إخوان الصفا وآراؤهم الكلامية والفلسفية

د. نورشيف عبد الرحيم رفعت

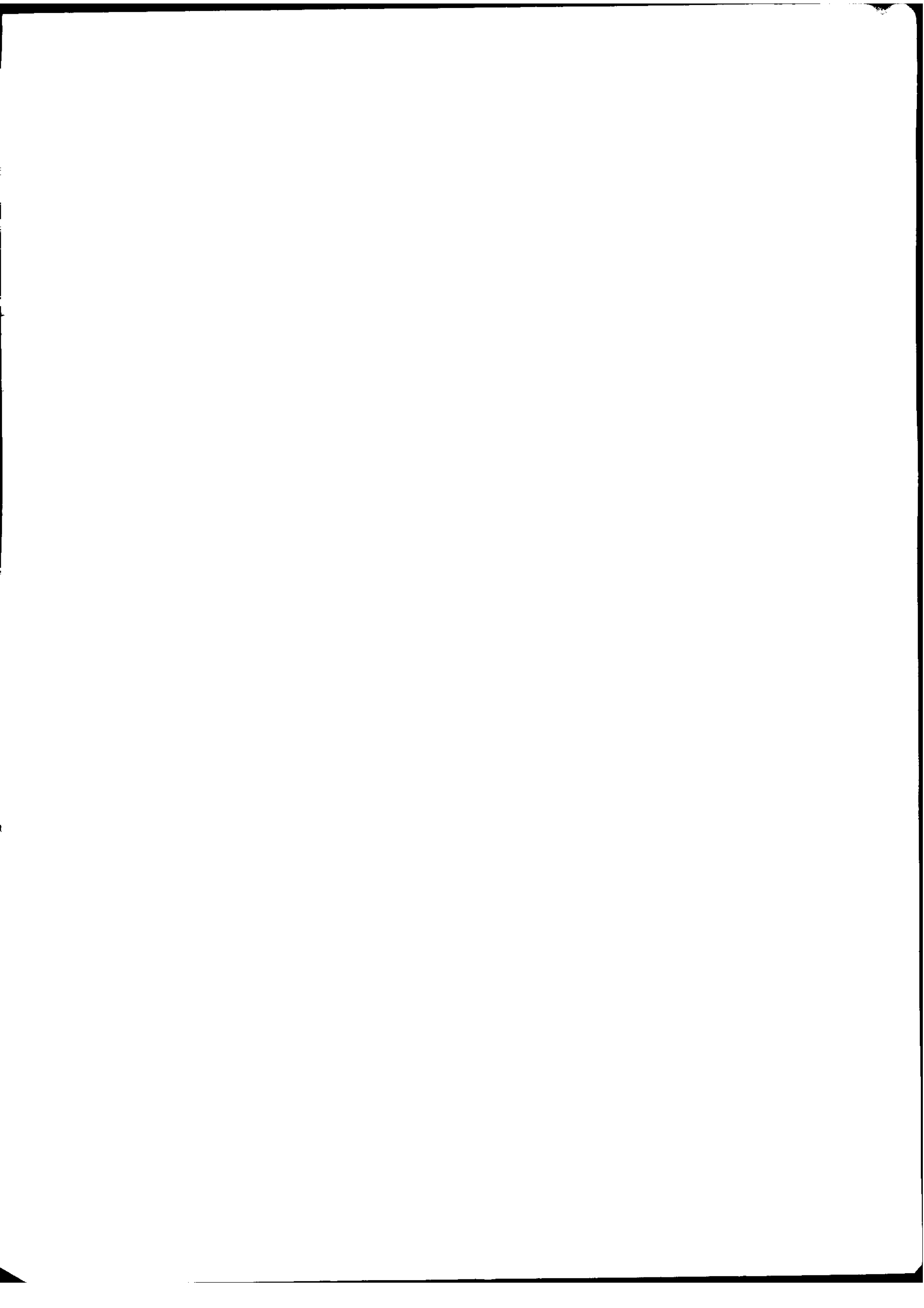
أستاذة العقيدة والفلسفة المساعدة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر - القاهرة

تقديم

أ.د. محمد محمد أبو ليلة

أستاذ مقارنة الأديان والدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية
ورئيس قسم اللغة الإنجليزية وآدابها - جامعة الأزهر

٢٠٠٢



مقدمة

في الفكر الطائفي

طبيعته - تاريخه - مصادره - أهدافه

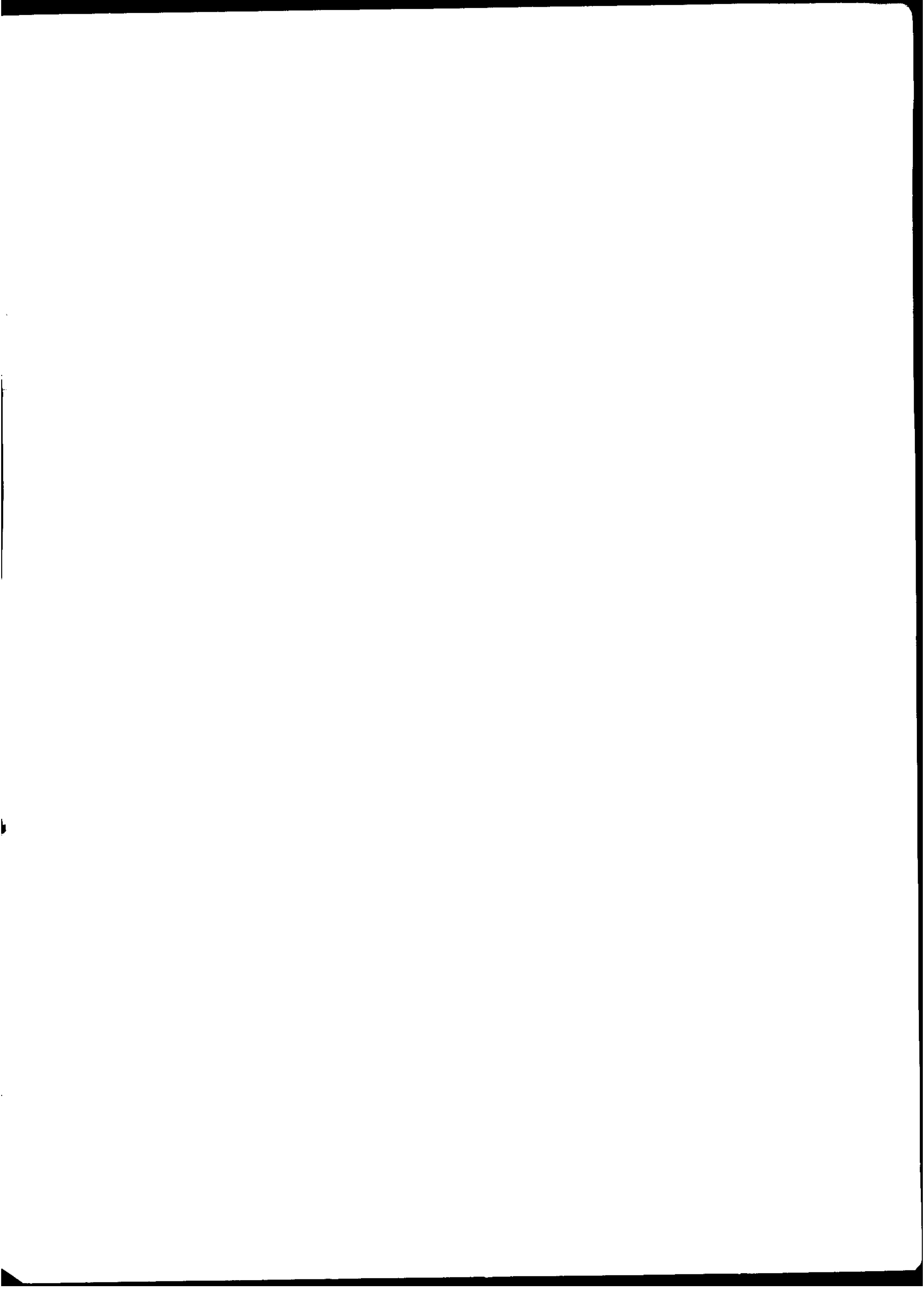
وموقع إخوان الصفا من هذا الفكر

بقلم:

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو ليلة

أستاذ مقارنة الأديان ورئيس قسم اللغة الإنجليزية

بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون؛ والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد الذي أرسله الله تعالى بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد الخالصة، فخلَّص الناس من عبادة الأوثان، حجراً كانت أو شجراً، شمساً كانت أو قمراً، إنساناً كانت أو حيواناً، وفكرةً كانت أو أسطورة؛ وحرَّرهم من سيطرة الجهل على عقولهم، ومن غلبة الحمية الجاهلية على سلوكهم، وعلى أنماط حياتهم. وجمع الله بين قلوب المؤمنين، فجعلهم خير أمة أخرجت للناس؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله؛ ودعاهم إلى الاعتصام بحبل الله المتين، وبأن يكونوا إخوةً متحابين؛ وحذرهم من الفُرقة واختلاف القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ فإن مخالفة تعاليم الله تعالى ردة إلى الوراء إلى عصر الجاهلية، عصر الظلمات والتفسخ، عصر الاستعلاء الزائف والعبودية المحققة لمن يملك القوة المادية- أعنى قوة السلاح وقوة الاقتصاد وقوة اتخاذ القرار، ولمن يملك كذلك وسائل العيش ومقومات الحياة، ومن وجهة نظرنا؛ فإن الجاهلية ليست بقاصرة في معناها ومفهومها على الناحية الدينية أو الاعتقادية فحسب، بل إنها تعبير عن نظام كامل، جاهلية دينية، وجاهلية علمية، وجاهلية فكرية، وجاهلية سلوكية، وجاهلية حضارية، وجاهلية اقتصادية وجاهلية اجتماعية، وهكذا؛ فالجاهلية التى حاربها الإسلام تمثل كل ألوان الانحطاط والتخلف والعنصرية والاستعلاء.

وإذا ما فرط المسلمون في التمسك بحبل الله تعالى، تفرقوا وتشرزموا، واضمحلوا وذلُّوا، وصارت أمورهم تُبْرَم بأيدى غيرهم، وصارت حياتهم مستهدفة

وثرواتهم مستنزفة، وصورتهم مشوهة، وسيرتهم محرّفة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩] وذلك لأن التفرق والتشيع ضعفٌ وضياعٌ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "قال رسول الله ﷺ: **"يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، من هم؟"** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **"هم أصحاب الأهواء والبدع وأصحاب الضلالة من هذه الأمة. يا عائشة! إن لكل ذنب توبة، ما خلا أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة، وأنا منهم بريء، وهم مني بُرَءَاءُ"**. أخرجه الترمذي وابن أبي حاتم وغيرهما

ويقول تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]. فالعلم إذن يمكن أن يكون بغياً، وأن يكون داعيةَ فُرقة واستعلاء، إذا ما سلك العلماء غير طريق الله تعالى، ورجوا بالعلم ومن العلم ظاهر الحياة الدنيا فحسب، ولم يأبهوا بالقيم السامية وبالمصالح العليا الباقية لخير البشرية والتى أُرْسِل الرسلُ من أجلها، واتفقت دعوتهم جميعا عليها.

وكما حذرنا الله تعالى في كتابه العزيز من التفرق والتحزب ومن اتباع الهوى والبعد عن الله تعالى، فإن الرسول ﷺ قد حذر أمته كذلك من التفرق فى الدين ومن الابتداع فيه؛ وأوجب عليهم مجانبة أهل الأهواء والبدع وعدم موالاتهم أو مهادنتهم حتى لا يستفحل خطرهم ويتعاظم شرهم، أو ينخدع الناس فيهم.

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة"**؛ وهذه نبوءة صادقة من نبوءات النبي ﷺ الذي كان يشغله أمر الأمة، ومستقبل الإسلام والمسلمين.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **"ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل. تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، تزيد عليهم ملة. كلهم في النار إلا ملة واحدة"**. قالوا يا رسول الله: من الملة الواحدة التى تنفلت؟ قال: **"ما أنا عليه وأصحابى"**.

وفى رواية أخرى عن أنس ﷺ **"أن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين**

فِرقة كلها فى النار إلا واحدة وهي الجماعة".

وقبل أن نمضى مع حديث الفِرَق نلفت النظر أولاً إلى إطلاق الرسول ﷺ لفظة "فِرقة" على الخارجين على أصول الدين، وهي مشتقة من فرّق وافترق، أي تباعد عن الأصل، واختلف مع جمهور المعتقدين. وقد استعملت الكلمة في القرآن الكريم في موضعٍ واحد منه، ولكن فى غير المعنى المراد من الحديث.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]

فالفِرْقة هنا تعني جماعة تُختار من بين المسلمين وتُوَجّه لتحصيل العلم والتفقه فيه، ثم نشره والدعوة من خلاله إلى الله تعالى ترغيباً وترهيباً.

أما الفرقة بمعنى الانشقاق عن الجماعة، والانفصال عن الأمة للمناوأة والمنابزة ولتشويه تعاليم الدين وتفريق كلمة المسلمين وأهل الدين، فقد وردت فى القرآن بصيغة "فريق"، وليس بصيغة "فرقة".

يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ويقول: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وأما الملحظ الثانى الذى نلفت إليه النظر، فهو أن النبى ﷺ قد أطلق على المخالفين أيضاً لفظة "مِلّة" فى أحد الحديثين اللذين أوردناهما.

والمِلّة بمعنى "الدين"، يقول تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ [الحج: ٧٨]، ومن هذه التسمية نأخذ أن رسول الله ﷺ قد بيّن لنا أن أصحاب الأهواء سوف ينتهى بهم الحال إلى

الانسلاخ عن أصول الدين بالكلية، واختراع دين يُضَمِّنونه كل كفرياتهم وأضاليلهم وترّهاتهم؛ وهذا ما حدث بالفعل مع كثير من الفِرق التى لم تلبث أن استقلت بنفسها عن الديانة الأُم التى خرجت عليها، وادعى مؤسسُها أو مؤسسُوها لأنفسهم ما للأنبياء المعصومين؛ وخلعوا على ما لفقوه وزوروه من كلامهم صفاتِ الوحي المنزل على رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

ولقد كان حديث افتراق الأمة موضع عناية الخلفاء الراشدين، فكانوا يُحَذرون المسلمين من الفُرقة فى الدين ومن البدع، ويتعقبون دعاة الفتنة من بين ضعاف المسلمين والمنافقين الْمُشَكِّكِين، وينبهون عليهم، ويُحذرون منهم.

وقد وَرَد عن النبي ﷺ أحاديث عديدة نص فيها على خطورة أهل الأهواء على الإسلام والمسلمين؛ فقد ذم النبيُّ ﷺ القدَريَّة، وقال إنهم مجوس هذه الأمة. والقدرية فرقة تشعبت إلى عشرين فرقة، يجمعها كلها خيطٌ رئيس واحد، يتمثل فى نفيهم لصفات الله تعالى الأزلية، وقولهم باستحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار، وبحدوث كلام الله تعالى، وقولهم بخلق القرآن؛ وزعمهم بأن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم ويقدرونها، وليس لله فى ذلك شيء- تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً.[1]

ومن طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون فى القَدَر، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم. فقال: يا قوم! بهذا ضلّت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض؛ ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً؛ ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به".

وقد وردت أحاديث أخرى فى النهى عن الجدال فى الدين والخوض فى غوامض الغيبيات، ومن أهمها القَدَر، وفى التحذير من الْمُرجئة والخوارج وأهل الأهواء بشكل عام، وهم الذين أعملوا عقولهم الضالة المضلة فى أصول الاعتقادات، وفى الإلهيات والنّبوات، وأحلوا الحرام، وحرموا الحلال، وخلطوا بين تعاليم الإسلام وبين تعاليم ديانات ومذاهب وفلسفات لا يقرها الإسلام؛ وحرفوا فى معانى القرآن عن طريق التأويلات الزائغة.

---

(١) عبد القاهر البغدادي – الفرق بين الفرق ص ٩٣- ٩٤

ولقد أنبأنا الرسول ﷺ بظهور الفتن الكبرى بين المسلمين، وبتداعى الأمم عليهم كما تداعى الأكلة على قصعتها، وذلك حتى نحذر من الفُرْقة والشتات ومن اتباع أصحاب الأهواء والشهوات والمذاهب الهدامة. وحضنا النبى ﷺ كذلك على التمسك بالكتاب والسنة وعلى العمل بما جاء فيهما، وبلزوم جماعة المسلمين والبعد عن المارقين والخارجين عن حرم الأمة وحصن الملة، وقد يكون من هؤلاء من ينسبون أنفسهم إلى المسلمين وهم ليسوا منهم، هؤلاء هم الذين يتسمّون بأسماء إسلامية، ويظهرون التدين بالإسلام، ولكن قلوبهم مختلفة على الإسلام وعلى الإيمان، منكرة للشرائع جملة، ساعيةً فى هزيمة المسلمين لا تكف عن محاولة ذلك، ولا تكفكف من غُلواء عدائها للإسلام والمسلمين. وقد أخذت معظم هذه الفِرق من الأديان والمذاهب والفلسفات الغير إسلامية كالفلسفة اليونانية، والفلسفات الشرقية بوجهٍ عام.

الروافض :

الروافض من السابقين في تفريق كلمة الأمة، وإثارة الفتنة والنعرة بين المسلمين حيث زعموا أن النبى ﷺ نص على إمامة عَلِيٍّ رضي الله عنه بالوصف دون الاسم، وزعموا كذلك أن الصحابة كَفَروا بترك بيعة عَليّ رضي الله عنه، على اختلافٍ بينهم وتحزُّبٍ منهم لرأي دون رأي، وتكفير بعضهم لبعض، مما لا تتسع هذه المقدمة للتفصيل فيه.[1]

والروافض على كثرة فِرَقِهم يُكفِّرون الصحابةَ بما فيهم عَلي رضي الله عنه، ويعتقدون بالغيبة والرجعة[2]؛ ويُعَوِّلون على المهدية كثيراً. وللروافض كلام في الذات الإلهية يخرجون به عن حد الإسلام، فهم يثبتون التجسيد والتشبيه، وينفون الصفات.[3]

وقد تفرع عن هذه الفرقة الأم فرق كثيرة، منها:

الكيسانية:

ادعى الكيسانية أن حياة محمد بن الحنفية لم تنته، ولم يصدقوا بموته، وزعموا وروجوا لزعمهم كذلك أنه يعيش في جبل رضوى يجري عليه رزقه، كما كان الدروز يعتقدون بالنسبة للمعز لدين الله الفاطمي.[4] ولكُثَيِّر عَزَّة شِعرٌ يؤيد فيه مذهب

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢، و ما بعدها .

(٢) المصدر نفسه: ٤٢، ٤٣

(٣) المصدر نفسه ٤٨ – ٥٤

(٤) المصدر نفسه ٢٧ ، ٢٨

الكيسانية، الذين قالوا بأن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر؛ وكان أول من قام بدعوة الكيسانية لإمامته المختار بن أبى عبيد الثقفي حيث تَجَمَّع حوله شيعة الكوفة، وكانوا زهاء سبعة عشر ألف رجل. ويحكى عبد القاهر البغدادي أنه لما تمكن المختار من الكوفة، وتمت له ولايتها، وامتدت ولايته كذلك على الجزيرة، والماهين إلى حدود أرمينية، تكهن وسجع كأسجاع الكهنة؛ وحُكِي عنه أنه ادعى النبوة ونزول الوحي عليه. ومن أسجاعه المرذولة: "أما والذي أنزل القرآن. وبين الفرقان. وشرع الأديان. وكره العصيان ... الخ"[1].

ولما دارت الدائرة على هذا المارق، وهُزِم جيشه أمامَ جيشِ مصعب بن الزبير، وكان قد زعم أن الله أوحى إليه بأنه سينصره هو ومن معه، قال له أتباعه بعد الهزيمة: لَم تعِدنا بالنصر على عدونا. فقال: "إن الله تعالى قد وعدني ذلك لكنه بدا له"، واستدل على زعمه هذا بقول الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فصار القول بالبَدَاء أو البَدْء من مقالات الكيسانية.[2]

المستدركة:

وهم جماعة من النجارية، يُخَطِّئون أسلافهم لأنهم منعوا إطلاقَ القول بأن القرآن غير مخلوق، ومن هؤلاء قومٌ يزعمون أن كل مَنْ خالَفَهُم كاذب، حتى ولو قال: إن الشمسَ شمس[3]. وهذه هي إحدى سمات العقلية الطائفية المغلقة.

الجَهْميَّة والبَكرية والضِّرَاريَّة:

الجهمية أتباع جهم بن صفوان، صاحب القول بالجبر والاضطرار وإنكار الاستطاعة، إذ يزعم أن الثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال جبر، وتكليف الله- تعالى- للعباد جبر؛ ويزعم جهمٌ كذلك أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان بمن فيهما، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فحسب، وأن الكفر هو الجهل به- تعالى- فحسب، وأن الأعمال تُنسب للمخلوقين على المجاز لا غير كما تنسب إلى الجمادات، أمَّا العمل الحقيقي فهو لله تعالى وحده. وينفى جهمٌ أن يوصف الله بما يوصف به غيره كأن

---

(١) المصدر نفسه: ٣٣ ، وأيضاً فخر الدين محمد بن عمر الرازي. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . القاهرة. الكليات الأزهرية ١٣٩٨ هـ: ١٩٧٨م، ص ١٩: ١٢٣.

(٢) البغدادي . الفرق بين الفرق: ص ٣٦ ، والبداء : ظهور الشيء أو الرأي بعد أن لم يكن.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٦: ١٩٨

يقال هو شيء موجود، وحي وعالم ومريد ونحو ذلك؛ أما الأوصاف المختصة به وحده فيجب وصفه تعالى بها، وذلك كوصفه بأنه قادر وموجد وفاعل وخالق ومحي ومميت. واتفق جهم مع القدرية في زعمهم أن كلام الله تعالى حادث، وليس قديماً، وقد اتفقت كلمة الأمة على تكفير هذا المدَّعي.(1) وحقيقة مذهب الجهمية هو تعطيل الرسالة التي جاء بها الأنبياء- عليهم السلام- عن الله-تعالى؛ بل إن مذهبهم يقتضي تعطيل التوحيد، فإن من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات سواءً بسواء؛ ومَنْ لا صفات له فهو عدمٌ محضٌ لا وجود له إلا في الذهن؛ فإله الجهمية على هذا النحو كإله متفلسفة الدهرية الذين يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً؛ وهم كمن يقول أؤمن بأن هناك قوة تُسَيِّر هذا العالم، ولكنني لا أدري ما هذه القوة!!(2)

والبكرية هم أتباع بكر الذي يوافق النظّام المعتزلي في دعواه أن الإنسان هو الروح دون الجسد، ويوافق الأشاعرة في إبطال القول بالتولد، وفي أن الله هو الذي يحدث الألم عند الضرب؛ ومن ضلالات فرقة البكرية التي كفرتهم فيها الأمة قولهم بأن الله تعالى يُرى في القيامة في صورةٍ يَخْلُقها، وأنه يكلم عباده من تلك الصورة- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أما **الضرارية** فهم أتباع ضرار بن عمرو الذي وافق أهل السنة في أفعال العباد، وأبطل القول بالتولد كذلك، ووافق المعتزلة في أن الاستطاعة تأتي قبل الفعل، ولكنه خالفهم بزعمه أن الاستطاعة تأتي قبل الفعل، ومع الفعل، وبعد الفعل، وأنها بعض المستطيع. وزعم أن الله- تعالى- يُرى يوم القيامة بحاسة سادسة؛ يرى بها المؤمنون فقط ماهية- أي حقيقة- الإله. وأنكر ضرار قراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب، وزعم بأن الله تعالى لم ينزلهما، وبالتالي فقد نسب هذين الإمامين من الصحابة إلى الضلالة في كتابة مصحفيهما. ومن ضلالاته أنه يشكك في جميع عامة المسلمين؛ ويقول: لا أدري لعل سرائر العامة كلها شرك وكفر. ونَفَى ضرار صفاتِ الله تعالى، وقال إن معنى قولنا إن الله تعالى عالم حي هو أنه ليس بجاهل ولا ميت، وكذلك في سائر صفات الله تعالى؛ فإنه يعطيها معنى السلب.

---

(1) الفَرق بين الفِرق ص ١٩٩

(2) الشهرستاني – الملل والنحل بهامش الفِصَل ١/١٢٧– ١٣٠، وابن تيمية رسائل وفتاوى ٣/١٧١ وما بعدها.

الكَرَّامية: نسبة إلى محمد بن كرام، وقد ظهروا بخراسان؛ وضلالاتهم كثيرة ومتنوعة؛ فقد زعم هو وأتباعه أن الله تعالى محل للحوادث، وأنه لا يَحْدث جسم ولا عرض في العالم إلا بعد حدوث ما يماثله في ذات معبودهم. ومن مزاعمهم في باب النبوة والرسالة قولهم بأن النبوة والرسالة صفتان حالَّتان في النبي والرسول، وهما بخلاف الوحي والمعجزات والعصمة، وزعموا أن من حَلَّت فيه هذه الصفات وجب على الله إرساله، وفرقوا بين الرسول والمرسل؛ فقالوا إن الرسول من قامت به تلك الصفة، والمرسل هو المأمور بأداء الرسالة. ويعني هذا أن إرسال الرسل واجب على الله، وهو مذهب المعتزلة. وتفريقهم بين المُرْسَل والرسول نجده تصريحاً أو تلميحاً في رسائل إخوان الصفا، وهو نفسه ما تعتقده فرقة القاديانية والبهائية في العصر الحديث. وزعم بعض الكرامية أن النبي ﷺ أخطأ في تبليغ قوله:﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ٢٠] حتى قال بعده: **"تلك الغرانيق العلى شفاعتها ترتجى"**؛ وقد بينا في كتابنا "القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي" أن حكاية الغرانيق ملفقة، ولا أصل لها؛ وهي من وضع الزنادقة، وزعمت الكرامية أن من لم تبلغه دعوة الرسل لزمه أن يعتقد موجبات العقول، أي ما يوجبه العقل عليه. وقد سبقهم إلى هذا القول أكثر القدرية.

وابن كرام يُسمى الله "جوهراً" كالنصارى؛ ويقول هو وأتباعه هذا في السر؛ وأما في العلن فإن الكرامية يقولون إن الله جسم[1]، وهذا يشبه قول أصحاب الهيولي، ومنهم إخوان الصفا الذين يقولون: إن الهيولي كانت في الأزل جوهراً خالياً من الأعراض، ثم حدثت الأعراض فيها[2]. ومما يشبه أقوال الدهرية والفلاسفة وإخوان الصفا في فكر الكرامية قولهم إن الفلك والكواكب طبيعة خامسة لا تقبل الفساد والفناء.[3]

وقد مَهّد ابنُ كرام لإخوان الصفا وللباطنية الطريقَ إلى تأويل القرآن تأويلاً فاسداً؛ فقد قال في كتابه "عذاب القبر" في تفسير قوله تعالى:﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾

---

(١) الفَرق بين الفِرق ص ٢٠٣

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٥، ورسالة جامعة الجامعة ١٢٩، والرسائل ٤/ ٥-١٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٠٦

[الانفطار: ١] إنها انفطرت من ثقل الرحمن عليها.[١]

وفي هذه القرينة نشير إلى أن بعض الكرامية ذهب إلى جواز وضع الحديث أي تلفيقه في باب الترغيب والترهيب. قال النووي: وهذا محل خلاف إجماع المسلمين الذين يعتد بهم.[٢]

المشبهة:

المشبهة عددهم كثير، وأقوالهم كذلك كثيرةٌ ومتناقضةٌ، وأول قول ظهر في التشبيه قد صدر عن غُلاة الروافض الذين منهم: **السَّبأية**، أتباع عبد الله بْن سبأ اليهودي، الذين ألَّهوا علياً وأسْموه إلهاً[٣]، وقد كاد السبَأيون للإسلام وعملوا على تفريق كلمة الأمة، وإضعاف الوازع الديني لدى كثير من المسلمين. ومن فروع هذه الفرقة **المنصورية**- أتباع أبى منصور العجلي الذي شبّه نفسَه بربه، وزعم أنه صعد إلى السماء، وأن الله مسح على رأسه هناك، وقال له: يا بني بلغ عني.[٤]

و أبو منصور العجلي هو وأتباعه من أصحاب التأويلات الفاسدة لآيات القرآن الكريم ، وقد ادعى أنه خليفة الباقر، وأنه صعد إلى السماء، حيث أُعلنت بُنوّته لله هناك، ثم نزل إلى الأرض. وزعم أنه الكِسْف الساقط من السماء، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرۡكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]؛ ومعنى- كِسْفًا- أي قطعةً أو فلقة كبيرةً. ومعنى- مَّرْكُوم- يعني: متراكم، مجموعٌ بعضه على بعض، مع أن الآية ليس فيها ما يعطي هذا المعنى الذي قصده هذا المارق، لا من قريب، ولا من بعيد؛ ولكن الله يضل من يشاء من عباده.

ويكفى أن نعرف أن مقالات هؤلاء الغلاة كلها تدور حول التجسيد والتشبيه وألوهية الأئمة، وهي تشبه إلى حد كبير، إن لم تكن متطابقة تطابقاً تماماً مع الأساطير اليهودية وأقوال حاخامات اليهود في التلمود.

البيانية:

البيانية إحدى فرق الغلاة الخارجة عن الإسلام؛ وتنسب هذه الفرقة إلى بَيَان

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٦

(٢) السيوطي تدريب الراوي. شرح تقريب النواوي. القاهرة. المطبعة الخيرية. ١٣٠٧هـ ص ٢٠١

(٣) المصدر نفسه ٢١٤ : ٢٢٣

(٤) المصدر نفسه: ٢١٤، ٢١٥

بن سمعان التميمي الذي يعتقد فيه أصحابُه أن الإمامة صارت إليه من محمد بن الحنفية، وأبي هاشم ابنه، بالوصية. واختلف البيانِيُّون في تحديد طبيعة صاحبهم؛ فمنهم من زعم أنه كان نبياً، وأنه نسخ بعضَ شريعة محمد ﷺ، ومنهم من زعم أنه كان إلهاً، وذكر هؤلاء أن بياناً قال لهم: إن روح الإله حلَّت في الأنبياء والأئمة وتناسخت فيهم، حتى انتقلت إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، ثم انتقلت بعد ذلك منه إلى غيره، فادّعى لذلك الربوبية على مذاهب الحلوليين، وزعم بيانٌ أنه هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: أنا البيان، وأنا الهدى والموعظة؛ وكان يزعم أنه يعرف الاسم الأعظم، وأنه يَهزم به الجيوش، ويدعو به الزهرة فتجيبه؛ وغير ذلك من المزاعم التي تُخرجهم عن الإسلام، وعن حد المعقول، وتربطهم بمزاعم فرق اليهود والنصارى، وبأقوال أهل التناسخ والحلول والاتحاد كذلك. وبالقراءة المقارنة نتبين بوضوح الخيوط المشتركة بين البيانية وبين إخوان الصفا.

وممن ساهم في تشكيل الفكر الطائفي المعادي للإسلام المغيرةُ بن سعيد العجلي الذي يذهب إلى التجسيد والتشبيه والتأويلات الضالة لبعض آيات القرآن الكريم؛ ومن مزاعمه أن الله خلق الخلق من البحرين، فخلق الشيعة من البحر العذب النير، فهم المؤمنون؛ وخلق الكفرةَ- وهم أعداء الشيعة- من البحر المظلم المالح؛ وزعم أن الله تعالى خلق الناسَ قبل خلق أجسادهم، فكان أولَ ما خلق فيها ظل محمد وتأوّل على ذلك قولَ الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وزعم أن الله أرسل ظلَّ محمدٍ إلى أظلال الناس، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن علي بن أبي طالب من ظالميه، فأَبَيْن (رفضن) ذلك، فعرض ذلك على الناس، فأمر عمرُ أبا بكر أن يتحمل نصرة عَلِي وحمايته من أعدائه، وأن لا يغدر به في الدنيا، وضمن له عليٌّ أن يعينه على القَدَرية، على شرط أن يجعل له الخلافة من بعده، ففعل أبو بكر. قال: فذلك تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فزعم أن المراد بالظلوم وبالجهول هو أبو بكر (ﷺ)؛ وتأول في عمر بن الخطاب ﷺ قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ

﴿قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الحشر: ١٦][(١)]، والمراد بالشيطان عنده هو عمر (ﷺ) ولعنةُ الله على المغيرة ابن سعيد العجلي، وأشياعه، نبت السوء، وأصل الشرور التي استهدفت الإسلام والمسلمين.

وهذه التأويلات الفاسدة هي التي مهدت الطريق لإخوان الصفا، فمضوا يؤولون القرآن طبقاً لأهوائهم ونزولا على معتقداتهم الباطلةً وتوصلاً إلى أغراضهم الطائفية الخاصة.

الحربية والعجلية:

ومن الذين صبوا في تيار إخوان الصفا، فرقة **الحربية**؛ وهم أتباع عبد الله بن عمر بن حرب الكندي، وكان على مذهب **البيانية**، التي مرت الإشارة إليها؛ في دعواها أن روح الإله تناسخت في الأنبياء والأئمة، بمعنى أنها كانت تتناقلُ بينهم، واحداً تلو الآخر؛ وكذلك كان أتباع ابن حرب الكندي يعتقدون فيه مثل ما اعتقدت البيانية في بيان بن سمعان يعني أن روح الإله قد حلت فيه- لعنه الله.[(٢)]

ومن الأصول المشتركة بين هذه الفرقة وبين إخوان الصفا إنكار يوم القيامة وإنكار وجود الجنة والنار، كما جاءت أوصافها في القرآن، وتأولوا مثل إخوان الصفا الجنة على أنها نعيم الدنيا، والنارَ على أنها محن الناس في هذه الحياة، وقد استحل العِجْلِيُّون خنقَ مخالفيهم، للتخلص منهم؛ وهذا هو مسلك الفِرق الباطنية والمنظمات السرية المارقة بشكل عام؛ والعِرقَ الشعوبي أو العنصري الذي يجمع هذه الفِرقَ كلها واحدٌ، وهذه المنظمات، قديمها وحديثها، تمثل خطراً على الإنسانية وتهدد بأحقادها وعنصريتها المجتمعات البشرية كلها.[(٣)]

الجناحية:

طائفة غالت في زعيمها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فألَّهوه؛ وكانوا يُخبرون عنه أنه قال: أنا الرب، وأن روح الإله كانت في آدم، ثم في شيث، ثم دارت في الناس؛ وزعم الجناحيون أن كل مؤمن يُوحَى إليه، وتأولوا

---

(١) الفرق بين الفرق ٣١ ، الملل والنحل ٢/ ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٤ .

(٣) المصدر نفسه: ٢٣٤ ، ٢٣٥، والملل والنحل ٢/ ١٢٢- ١٢٤.

على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] فقالوا: إن "إِذْنَ الله" بموت فلان يصل إلى الإنسان بوحي منه تعالى، وبالتالي فإن كل إنسان يُوحى إليه على زعمهم هذا؛ ومعنى الآية يكذبهم، فإن الإنسان لا يُوحَى إليه بموعد موته، وليس له إرادة في موت نفسه؛ فالموت يأتي بإذن الله وحده، أي بأمره وسلطانه دون شريك ولا منازع لا في الموت ولا في الحياة. واستدل الجناحيون على إمكان وقوع الوحي لكل إنسان أيضاً بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، فزعم الجناحية أنهم هم الحواريون، وقالوا: إذا كان الله يوحي إلى النحل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] فالوحي إلينا أولى بالجواز.[1]

ومن الضروري هنا أن نبين معنى "الوحي" عند علماء المسلمين فالوحي يأتي بمعنى الخطاب الإلهي المُفَصّل من الله تعالى ولا يكون هذا إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ويقال للكلمة الإلهية التي تُلقى إلى أنبياء الله وحي.

والوحي أنواع: منه ما يكون عن طريق رسول مشاهدٍ تُرَى ذاته ويسمع كلامه، كتبليغ جبريل لرسول الله ﷺ؛ وإما بسماع كلام منْ غير معانيه، كسماع موسى كلام الله تعالى؛ وإما بإلقاءٍ في الروع، كما ذكر ﷺ: "**وإن روح القدس نفث في روعي**"، وإما بإلهام، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]؛ وإما بتسخير أو توجيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وقد يكون الوحي بمنام، كما قال ﷺ: "**انقطع الوحي وبقيت المُبَشّرات، رؤيا المؤمن**"[2]، ومن ذلك قول إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وأما قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، فلا تعلق لهؤلاء المارقين به، إذ معناه أن الله تعالى أوحى إلى الحواريين بواسطة عيسى عليه السلام ولم يُوحِ إليهم مباشرة، أو أنه تعالى ألهمهم ذلك وهداهم إليه.

---

(١) المصدر نفسه: ٢٣٦

(٢) الحديث رواه البخاري (٣٣١/٢)، ومسلم (١٧٩)، وابن ماجة (٢٨٣/١)؛ وانظر الأصفهاني – مفردات ألفاظ القرآن ص ١٢٦، ٨٥٨، ٨٥٩.

يقول الله تعالى في تكذيب أمثال هؤلاء الأدعياء: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، يقول الراغب الأصفهاني في التعليق على هذه الآية: "فذلك لمن يدّعى شيئاً من أنواع ما ذكرناه من الوحي، أيّ نوع ادعاه من غير أن يكون حصل له".(١)

المفوّضة الرافضة:

ذهبت المفوضة الرافضة إلى أن الله تعالى خلق محمداً، ثم فوّض إليه تدبير العالم، فهو الذى خلق العالم دون الله، ثم فوّض محمدٌ تدبير العالم إلى عليّ - تعالَى اللّهُ عن ذلك علواً كبيراً- فهذه الفرقة شرّ من المجوس الذين زعموا أن الإله خلق الشيطان، ثم إن الشيطان خلق الشرور، وهم أشنع خطأ من النصارى الذين سَموا عيسى مدبرا ثانياً؛ وهذه الفرقة تكون بهذا خارجة عن الإسلام، ولا تنتسب إلى للمسلمين. فالله تعالى هو الخالق والمدبر، لا شريك له ولا ند ولا صاحب ولا مُفَوّض.

الشريعية :

ومن فرق الرافضة الشريعية الذين يزعمون أن الله تعالى قد حلّ في خمسة أشخاص، وهم النبي، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين. وقد ادعى الشريعي رأس هذه الفرقة الهالكة أن الإله حل فيه كذلك(٢). والله عز وجل لا يحل في مكان أو شخص، ولا يحويه زمان أو ظرف.

الخطابية :

الخطابية- أصحاب أبى الخطاب محمد ابن أبى زينب الأسدي- من فرق الرافضة. ومن عجائبهم زعمُهم أن جعفرَ الصادقَ قد أودعهم جلداً، كُتِب فيه كل ما يحتاجون إليه من أمور الغيب، وسموا ذلك الجلد جَفْراً؛ وزعموا أنه لا يَقْرأ ما فيه إلا من كان منهم. وقد نظم هارون بن سعد العجلي شعراً في ذلك، يقول فيه:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم من جعفر قال منكراً
فطائفة قالوا إله ومنهم ... طوائف سمته النبي المطهّرا

وقال بأن الأئمة أنبياء، ثم ادعى بعد ذلك أنهم آلهة، وقال إن آباء جعفر بن

---

(١) الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٨٥٩

(٢) الفرق بين الفرق: ٢٣٩

محمد آلهة، وهم أبناء الله وأحباؤه، وزعم أن الإلهية نور، نور في النبوة، والنبوة نور في الإمامة، وليس يخلو العالَم من هذه الآثار والأنوار، وزعم هذا الملعون أن جعفر هو الإله المتجسد.(١) وزعم كما زعم إخوانُ الصفا من بعده أن الدنيا لا تفنى، وأن الجنة هى ما يصيب الناس من خير ونعمة وعافية على الأرض، وأن النار هى ما يصيب الناس من شر ومشقة وبلية، إلا أن الخطابية الملحدة قد استحلوا الزنا وشرب الخمر وسائر المحرّمات وأسقطوا الصلاة والفرائض، شأن سائر الفِرق والجماعات المنحلة في القديم والحديث.(٢)

الحلولية:

وقد تكلم عبد القاهر البغدادي عن أصناف الحلولية، وبيان خروجها عن فرق الإسلام، وهي فرقٌ كثيرة كانت تُرَوّج للأفكار الإلحادية العنصرية بغرض الكيد للإسلام وتفريق كلمة المسلمين، فكان بَعضُها يَدّعى حلول الإله في البشر أو الأنبياء أو الأئمة، وبعضهم يُسقِط العبادات الإسلامية، ويبيح تناول المحرمات، وغير ذلك من المآثم والمناكر.(٣)

والحلول والتناسخ قولٌ تلتقي عليه الفرق الغالية؛ وقد تلقفوها من المجوس المزدكية والهند البرهمية ومن الفلاسفة والصابئة، وسائر الفرق المِلّية والعلمانية اللادينية.(٤) ومنهم من كان يستحل أكل الميتة والخنزير وقتل المسلمين نكاية في الإسلام؛ ومنهم من قال: إن من عرف الإله على الوصف الذى يعتقدونه زال عنه الخطر والتحريم، واستباح كل ما يستلذه ويشتهيه. وتأولوا قول الله تعالى:﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] على غير الوجه الذي أجمع عليه المسلمون كما سيتضح فيما بعد.

الحلمانية :

الحلمانية يُنسبون إلى أبي حلمان الدمشقي الذي كان يقول بحلول الإله في الأشخاص من ذوي الصور الحسنة، وزعم أن الإله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم

---

(١) انظر : الفرق بين الفرق ص٢٤٠، والملل والنحل٢/١١٥– ١٢٤

(٢) الملل والنحل ٢/ ١٢٥

(٣) المصدر نفسه: ص٣٤١

(٤) المصدر نفسه: ٢/١١٥

لأنه- تعالى- كان قد حل في آدم لقول الله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر: ٢٩]، وإنما حل في آدم لأنه خلقه في أحسن تقويم لقوله- تعالى- على العموم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤]، هذا مع أن هذه الآية وكذلك آية سورة الحجر: إن أريد بهما كل الناس على العموم لزم هؤلاء الفُجّار أن يسجدوا لكل إنسان، وإن كان قبيح الصورة، لدعواهم أن الإله حل في جميع الناس، وإن قالوا إن المراد بذلك إنسانٌ بعينه لزمتهم الحجة، لماذا يسجدون لأصحاب الصور الحسنة فقط- كما هو مذهبهم- ولم يسجدوا للقبيح من الناس أو يسجدوا للفرس و للشجرة وللطيور والبهائم![1] وكل ذلك من خلق الله؛ وينبغي أن يلاحظ أن دعوتهم إلى تقديس الجمال هي في حقيقتها دعوة إلى الإباحية والانحلال، وليست دعوة إلى تقدير الجمال كقيمة سامية ودلالة على الخلاّق العظيم.

الكيّالة :

هم أتباع أحمد بن الكيال، ربما كان من الأئمة المستورين، وهو واحد من دعاة أهل البيت، له أفكار وآراء في الخلق وفى الإنسان والعالم والإمامة مشابهة لكثير من أفكار إخوان الصفا[2]، وأفكار الصوفية أصحاب الشطحات كأبي منصور الحلاج الذي ادعى أن الله – تعالى- حلّ فيه واستتر في جبته[3]- حاشاه جلّ في عُلاه!

الخْرَمية:

ونشير إلى فرقة الخرمية من أصحاب الإباحة، وهم على مذهب المزدكية الذين سبقوا إلى الشيوعية المدمرة، فقالوا إن الناس شركاء في الأموال والنساء؛ وقد ظهرت أفكارهم في دولة الإسلام، وأثاروا الفتن أيام الدولة العباسية، وقد كانوا ينظمون الحفلات المختلطة بين الرجال والنساء ويأتون فيها بالفواحش والمناكر. ويزعم البابكية منهم- لعنهم الله- أن زعيمهم شروين كان أفضل من محمد (ﷺ) ومن سائر الأنبياء؛ وكان هؤلاء يسكنون الجبل، وقد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين يُؤذن فيها المسلمون، وهم يعلِّمون أولادَهم القرآن، لكنهم لا يُصَلُّون في

---

(١) الفرق بين الفرق ص٢٤٥- ٢٤٦ والملل والنحل ٢/١٢٥- ١٢٧

(٢) الملل والنحل: ٢/١٢٧ - ١٣٠

(٣) الفرق بين الفرق ص : ٢٤٧ - ٢٤٩

السر، ولا يصومون في شهر رمضان، ولا يرون جهاد الكفرة؛ وظل أمرُهم على هذا الخطر إلى أن ظُفِرَ بِهم- هم ومازيَّار وأتباعه- في أيام الخليفة المعتصم بالله بمدينة "سُرَّ مَن رَأى"، فقُتلوا وأراح الله منهم البلاد والعباد.[1]

وهذه الأفكار والدعوات الهدامة التي ينادي أصحابها في العصر الحديث بالإباحية وبالعري وبالجنس المفتوح وبضرورة تقنين العلاقات الآثمة كالشذوذ الجنسي، والسحاق، والزواج بين أفراد النوع الواحد؛ وبالإلحاد والتحلل من القيم الدينية كلها ليست جديدة، ولا هي من مولدات العصر الحديث؛ بل هي قديمة جداً، وليست هذا القيم الهابطة من لوازم التقدم، كما يُشيع المغرضون، وينادي به اللادينيون. إنها على العكس ردةٌ وصبأة، وتأخرٌ وتقهقر، ثم هزيمة وانحسار وخراب ودمار. وهذه الدعوات في أصلها عنصرية وعدائية تستهدف الجنس البشري كله. وعلى الأمة الإسلامية ألا تستسلم لها أو تتوقف عن مقاومتها ودحضها بكل الطرق والإمكانات مهما كانت التضحيات، وذلك حتى نحافظ على سلامتنا وسلامة الإنسانية وأمن العالم. وقد حَمّل الله تعالى المسلمين أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وربط خيرية الأمة الإسلامية بهذه الأصول الذهبية:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

القائلون بالتناسخ:

ومن هذه الفرق المارقة، التي كانت تتستر بالإسلام، القائلون بتناسخ الأرواح، والذي أخذوه عن بعض فلاسفة اليونان ومن الفلسفات والديانات الشرقية، وعن بعض اليهود الذين ذهبوا هذا المذهب، كما ذكرناه آنفاً؛ والذي يهمنا إبرازه هنا هو أن القول بالتناسخ له نظير في فلسفة إخوان الصفا، ومن قال بقولهم، وزعم أن روح الإله قد حلت في الأئمة.[2]

الخابطية :

وتوجد كذلك خيوط كثيرة تربط بين ضلالات **الخابطية** من القدرية، وهم أتباع أحمد بن خابط من أتباع النظام في الاعتزال وبين التناسُخِين وسائر الفِرَق

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٥٢

(٢) انظر المصدر نفسه ص ٢٥٣وما بعدها .

الضالة؛ يقولون: إن للخلق ربَّيْن وخالقين، أحدهما قديم وهو الله- سبحانه وتعالى-، والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم. وزعم أحمد بن خابط والفضل الحدثي أن المسيح هو ابن الله على معنى التبني دون الولادة، كما هو اعتقاد بعض فرق النصارى وكما تردد في رسائل إخوان الصفا. وزعم الحائطية أن المسيح تذرع جسداً، وكان قبل التذرع جسداً موجوداً، وأن عيسى هو الذي خلق جده آدم عليه السلام!!

يقول البغدادي في التعليق على هذا الزعم: "فيا عجبا من فرع يخلق أصلَه!!" وهذه الأفكار كلها كنسية، مَجامعية، ولا تمتد بأي صلة إلى المسيحية الأصلية، ديانة السيد المسيح عليه السلام المؤسسة على صحيح الإنجيل، ولا هي إسلامية ألبتة.

وقد أيَّد هذان الهاذيان مزاعمَهم الباطلة بآياتٍ من القرآن، وأحاديثَ للرسول ﷺ ليس لها أدنى تعلق بما يدعونه[1] أمّا ما قالوه بشأن الله- تعالى- وبشأن المسيح عليه السلام فإنما استقوه من قول الثنوية والمجوس في دعواهم وجود خالقين أو أصلين.

الميمونة:

والميمونة فرقة تولدت من الخوارج وقد تبعوا دين المجوس في إباحة نكاح بنات الأولاد من الأجداد، وبنات أولاد الإخوة والأخوات. وقد أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن؛ وهم بهذا خارجون عن الإسلام بالكلية، مكايدون للمسلمين.

الإمامية:

وهم القائلون بوجود الإمامة وبتعين معرفة الأئمة؛ لم يَثْبُتُوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين وعَلِي بن الحسين على رأيٍ واحدٍ؛ بل إن اختلافهم في هذا الأمر أكثر من اختلافات باقي الفرق الأخرى.[2]

وهم متفقون في تعدى الإمامة إلى جعفر بن محمد الصادق، ولكنهم مختلفون في المنصوص عليه بعده من أولاده إذ كان له خمسة أو ستة أولاد، محمد، وإسحاق، وعبد الله، وموسى، وإسماعيل، وعلي؛ ومن هؤلاء الأولاد مَن ادّعى أن الإمامة معقودةٌ له بالنص والتعيين، وهم محمد وعبد الله وموسى وإسماعيل وعلي؛ ومن أولاد جعفر بن محمد الصادق من مات وله عَقِب (أي أولاد)؛ ومنهم من مات ولم

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٦٠ وما بعدها

(٢) الشهرستاني – الملل والنحل ٩٩/٢

يُعْقِب؛ ومن الإمامية كذلك من قال بالتوقف والانتظار والرجعة؛ ومنهم من قال بالسَّوْق والتَّعْدِيَة (يعني أن الإمامة تُساق من شخص إلى شخص آخر من أئمتهم وتتعدى إليه).[1]

الموسوية:

ومن الإمامية فرقة الموسوية أو المفضلية، وهم يعتقدون بإمامة موسى بن جعفر نصاً عليه بالاسم، حيث قال الصادق: "سابعكم قائمكم"، وقيل "صاحبكم قائمكم"، "ألا وهو مسمى صاحب التوراة" (أي موسى)، ولذلك يسمى أتباعه بالموسوية. وروت الموسوية عن الصادق عليه السلام أنه قال لبعض أصحابه: "عد الأيام"، فعدها من الأحد حتى السبت، فقال له: "كم عددت؟" فقال: سبعة. فقال جعفر: "سبت السبوت، وشمس الدهور، ونور الشهور مَنْ لا يلهو ولا يلعب، وهو سابعكم قائمكم." قال هذا وأشار إلى موسى.[2]

الاثنا عشرية:

وهي فرقة من الشيعة، تؤمن بالإمامة، وتحصرها في اثنا عشر إماماً؛ وقد قَطَع الاثنا عشرية بموت موسى بن جعفر الكاظم، وساقوا الإمامة بعده في أولاده[3]؛ وهم يؤمنون بالغيبة ثم الرجعة- يعني اختفاء الإمام ثم رجوعه وظهوره مرة أخرى. وقالوا: الغيبة قد امتدت مائتين ونيفاً وخمسين سنة؛ وهم يعتقدون مع ذلك أن صاحبهم سيخرج بِسِنه الذى كان عليه عند الغيبة، لا يُؤثّر فيه سريان الزمن ولا مرور الوقت. ويستشهدون على ذلك بالخِضْر وإلْياس- عليهما السلام- فهما يعيشان في الدنيا من آلاف السنين لا يحتاجان إلى طَعام ولا شرابٍ، فلم لا يجوز ذلك في واحد من أهل البيت.[4] وليس للمسلمين قول قَاطع في طبيعة الخضر وإلياس عليهما السلام. وهم بهذا يبنون على غير أساس من كتاب أو سنة أو عالم يُعتد به.

يقول الشهرستاني في الرد على زعمهم: "ومع اختلافكم هذا (أي فيما بينكم على مَن يكون الإمام!) كيف يصح لكم دعوى الغيبة؛ ثم إن الخضر عليه السلام (ليس)

---

(١) المصدر نفسه: ٢/١٠٠

(٢) المصدر نفسه: ٢/١٠٤، ١٠٥

(٣) انظر أسماء هؤلاء الأئمة وجهات تواجدهم في الملل والنحل ٢/ ١٠٨

(٤) المصدر نفسه: ١١٣، ١١٤

مُكلفاً بضمان جماعة، والإمام عندكم ضامنٌ مُكلَّفٌ بالهداية والعدل (أي كيف يغيب عن جماعته وهو على هذا الشأن)، والجماعة مكلفون بالاقتداء به والاستنان بسُنَّتِه، وبين فِرَقِهم نزاع فيه قتال وتضليل، وهم جميعا في حيرة من أمره؟!!

ومن العجيب أن القائلين بإمامة المنتظر، مع هذا الاختلاف العظيم بينهم، لا يَسْتَحُون أن يدّعوا له مقام الألوهية، ويتأولون على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، قالوا هو الإمام المنتظر الذى يُرَد إليه علم الساعة، ويدعون فيه أنه لا يغيب عنهم، بل هو حاضر معهم، يخبرهم بأحوالهم، وهو الذى يُحاسب الخلق. وينقل الشهرستاني هذين البيتين في التعجب من أحوالهم ومعتقداتهم:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسَيَّرت طَرْفِي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كفَّ حائرٍ ... على ذقــنٍ أو قارعاً ســن نادم [(١)]

الباطنية:

الباطنية فرق تتجمع كلها حول هدف واحد هو العمل على ضرب الإسلام، وفلّ شوكة المسلمين. وفضائح الباطنية، كما يقول عبد القاهر البغدادي: "أكثر من عدد الرمل والقطر (المطر)"؛ وهم أضر على المسلمين من ألد أعدائهم، على اختلاف صنوفهم وبقاعهم وأزمنتهم.

وقد تتابعت الكتب والرسائل في الفكر الباطني فصنف لهم "النسفي" كتاب "المحصول". و"المحصول" من العناوين المحببة للباطنيين؛ وصنف لهم أبو يعقوب السجزي المعروف ببندانة كتاب "تأويل الشرائع"، وكتاب "كشف الأسرار".

ويقال إن دعوة الباطنية ظهرت أولاً في زمان المأمون؛ وانتشرت في زمان المعتصم.[(٢)] وذكر المؤرخون كذلك أن أول من وضع أسس الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، وكأنهم أخفوه في نفوسهم خوفاً من سلطان المسلمين، فأخذوا من ديانة المجوس، ووضعوا الأكاذيب ورموا الكفريات في مجرى الإسلام، فأوّلوا القرآن والسُّنَّة على وفق مبادئ هذه الديانة في النور والظلمة؛

---

(١) الملل والنحل: ١١٥/٢

(٢) انظر الفرق بين الفرق ٢٦٨، والرازي . اعتقادات ص ١٩ – ٢٥ .

وأنهما صانعان قديمان، وزعموا أن الخير صادر عن النور، وأن الشر صادر عن الظلمة.

وهم يقولون كإخوان الصفا إن الأجسام ممتزجة ومركبة من النور والظلمة، وكل منها مشتمل على أربع طبائع: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة؛ وأن الأوّليْن، مع الطبائع الأربع هي مدبرات هذا العالم؛ واتفقوا كذلك مع إخوان الصفا في قولهم: إن الإله خَلق النفس أو العقل، ثم أشركهما معه في تدبير العالم، وزعموا جميعاً أن الإله والعقل أو النفس إنما يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبعة، والطبائع الأُوَل، وهذا هو قول المجوس بعينه، وعلى هذا القول بعض فلاسفة اليونان وفلاسفة الشرق.[1]

وهذه التحكمات والآراء الفاسدة إنما فَرَّعوها على أصل فهمهم الخاطئ لطبيعة الألوهية، ولذات الله- تعالى- وكيفية خلق الكون مما لا يُؤخذ إلا من وحي معصوم؛ والله عز وجلّ يقول عن كيفية الخلق: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس:٨٢]، فعلَّق الخلق بالأمر والإرادة وليس بآلة أو واسطة؛ وفي تكذيب هؤلاء في ظنونهم يقول تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف:٥١][2]

جاء في كتاب "المحصول" المشار إليه سابقاً أن الباطنية قد عَبّروا عن الصانِعَيْن بالأول والثاني، وعبّر المجوس عنهما بيزدان وأهرمن[3]؛ وتأولت الباطنية أصولَ الدين الإسلامي على الشرك، وقد حاولوا أن يجعلوا الكعبة بيت نار، على منوال معابد المجوس، وكان منهم مَن أمروا بقطعِ يدِ مَن أطفأ ناراً بيده، وقَطعِ لسان مَن أطفأها بنفخة واحدة. وكانوا يحلمون بعودة دولة المجوس، ويخططون لها، ويسعَون في ذلك سراً.[4] فقد كانوا يكتمون تعاليمهم ولا يظهرونها إلا لِمَن كان منهم، أو صار، بعد الاختبار، منهم. وهم يتشددون على أتباعهم ألاّ يُظهروا شيئاً من

---

(١) المصدر نفسه : ٢٦٩-٢٧٠

(٢) انظر كلام أرسطو في هذا الموضوع وتفنيده في دلالة الحائرين لموسى بن ميمون القرطبي الأندلسي (٥٣٠- ٦٠٣هـ/ ١١٣٥- ١٢٠٥م) تحقيق حسين أتاي. القاهرة. مكتبة الثقافة الدينية- ص٣٤٢ وما بعدها.

(٣) انظر ما نقله عبد القاهر عنه في الفرق بين الفرق : ص ٢٧٧

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٠ ، ٢٧١

آرائهم لأحدٍ غيرهم، ويأخذون العهدَ عليهم بذلك، كما هو الحال بالنسبة لإخوان الصفا مع أتباعهم.

ومن تأويلات الباطنية التي سرت إلى إخوان الصفا، ثم إلى البابية والبهائية وجميع الفرق في القديم والحديث، إنهم يؤولون الزنا بأنه إفشاء أسرارهم. ويزعمون أن الملائكة هى دعاتهم، والشياطين هم أعداؤهم ومخالفوهم، وأن الأنبياء قوم كانوا يحبون الزعامة، وأنهم ساسوا العامة بالنواميس والحيل طلباً للزعامة وتوصلاً إلى الرياسة، وكلٌّ واحد منهم صاحبُ دور مسبع؛ والنبي عندهم- كما هو عند إخوان الصفا- يُسَمَّى الناطق، ويزعمون أن الناطق يؤول الوحي كما رواه، بل إنهم ينكرون نزول الملائكة بالوحي من السماء؛ ويزعمون أنه لا يوجد في السماء ملائكة أصلاً، وإن الذى يأخذ بالباطن ملاك من الملائكة؛ فمن أين جاءت الملائكة إذن إذا كانوا هم ينكرون وجود الملائكة. وينكر أهل الباطن المعجزات. وعندهم أن من يعمل بالظاهر شيطانٌ كافرٌ، والصلاة عندهم هى موالاة إمامهم، والحج زيارته وإدمان خدمته، والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سرِّ الإمام، دون الإمساك عن الطعام.

والزنا عندهم هو إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق؛ وزعموا أنه من عَرَف معنى العبادة سقط عنه فرضها، وتأولوا لذلك قوله تعالى من آخر سورة الحجر: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، و"ٱلۡيَقِينُ" على مذهبهم الفاسد- هو التأويل[1]؛ وهذا صرف لمعنى الآية عن موضعه إذ أن إجماع أهل التفسير على أن "اليقين" هو "الموت"، وأن الآية على عكس زعمهم تأمر النبي ﷺ بدوام العبادة لله تعالى والاستمرار عليها حتى الموت، ومعنى ذلك أن النبي المعصوم لم يُستثن من العبادة، فكيف يستثنى منها من هو دون النبي من البشر الخطائين، فضلاً عن الكذابين المفترين!!

السبعية:

وردت بعض الإشارات عنهم في هذا البحث، وهم إسماعيليون أرومة. وتنبني مقالتهم على أن الدور التام سبعة، ويستدلون على ذلك بأن السماوات سبع، والأرضين سبع، وأيام الأسبوع سبعة، والأعضاء سبعة؛ ويبدأ الدور الأول بآدم ووَصِيِّهِ

---

(٢) المصدر نفسه: ٢٨

شيث، والثاني نوح ووصيه سام، والثالث إبراهيم ووَصِيّه إسماعيل وإسحاق، والرابع موسى ووَصِيِّهِ هارون، والخامس عيسى ووَصِيِّهِ شمعون- الصفا- (وهو بطرس أحد تلامذة السيد المسيح (عليه السلام))، والسادس محمد (ﷺ) ووَصِيِّهِ علي.

والإمام الأول علي، والثاني الحسن، والثالث الحسين، والرابع زين العابدين، والخامس محمد الباقر، والسادس جعفر الصادق، والسابع إسماعيل بن جعفر. وإن المقصود من البعثة أن يلحق الجسمانيون من نوع الإنس بالروحانيين؛ فلما انتهت النبوة من الابن إلى محمد بن إسماعيل، ارتفع التكليف الظاهر من الناس.

يقول فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م): "فبهذا الطريق يخرجون الخلق من الشريعة. وعلى الحقيقة إن جميع ما يذكرون من هذا الجنس فإنما يذكرونه من طريق التلبيس. وذلك لأنهم لا يؤمنون بالله ولا برسوله (ﷺ) ولا بالإمام أصلاً، ولكنهم يضلون الخلق بهذا الطريق".[1]

ويقول أبو الفرج بن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ): "الباطنية قوم تستروا بالإسلام، ومالوا إلى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة، فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث، لكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم. بل يزعمون أن الله حق، وأن محمداً رسول الله (ﷺ)، والدين صحيح، لكنهم يقولون لذلك سِرٌّ غير ظاهر، وقد تلاعب بهم إبليس، فبالغ وحَسّن لهم مذاهب مختلفة".[2]

وقد اعتبرهم ابن الجوزي فرقةً واحدة، تحمل ثمانية أسماء: الباطنية، والإسماعيلية، والسبعية، والبابكية، والْمُحمرة، والقرامطة، والْخرمية، والتعليمية.[3]

(١) اعتقادات : ١٢٣ ، ١٢٤

(٢) تلبيس إبليس ص ١٠٢

(٣) المصدر السابق: ١٠٥، ١٠٦

الإسماعيلية:

الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل، وهو الإمام السابع الذي تختم به الإسماعيلية أئمتها الظاهرين، والذي لا تعترف الشيعة الاثنا عشرية به. تُعرف الإسماعيلية كفرقةٍ بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق، وهو ابنه الأكبر، المنصوص على إمامته في بدء الأمر؛ وجعفر الصادق هو الإمام السادس في الترتيب الإسماعيلي. ولا يهمنا هنا ذكر ما قيل حول إمامة إسماعيل وأحقيته في الإمامة، وفى ترتيبها بعده، وذلك لبُعْدِه عن مقصودنا، فضلاً عن واقع حياتنا، والذي يهمنا معرفته هنا أن الإسماعيليين قالوا: إنه بعد إسماعيل جاء ابنه السابع التام، وإنما تم دور السبعة به. ثم ابتدأ منه بالأئمة المستورين، الذين كانوا يسيرون في البلاد، ويظهرون الدعوة جهراً، وقالوا: إن الأرض لن تخلو من إمام حي قاهر، إما ظاهر مكشوف، وإما باطن مستور؛ فإذا كان الإمام ظاهراً، جاز أنْ يكون حجته (أي النائب عنه) مستورًا، وإذا كان الإمام مستوراً، فلا بد أن تكون حجته ودعاته ظاهرين. وزعموا كذلك أن الأئمة تدور أحكامهم على سبعة أيام الأسبوع، والسموات السبع، والكواكب السبع؛ والنقباء تدور أحكامهم على اثنتي عشر. ومن مقتضيات مذهب الإسماعيلية أنَّ مَن مات ولم يَعْرف إمامَ زمانه، مات ميتةً جاهليةً؛ وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعةُ إمام، مات ميتةً جاهليةً. وهذه المقولة هي بداية التجنيد والتحشيد للفكر الطائفي، والدعوة إلى مبايعة الإمام، والانخراط في سلك التنظيم وذلك دون دراية كاملة بأبعاده وأهدافه، مما يَجر على الأمة أنواعاً كثيرة من البلاء، أخطرها الانقسام والاقتتال والتمكين للأعداء.

وأشهرُ ألقابِ الإسماعيليةِ لقب "الباطنيةُ"؛ وهو مأخوذ من قولِهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً. وهم يُسَمَّون بالعراق الباطنية، والقرامطة، والمزدكية، وذلك باعتبار أصول مذاهبهم ومقالاتهم، ويُسَمَّون بخراسان التعليمية؛ وذلك لقولهم بأخذ العلم عن الأئمة، وبالتعلم من دعاتهم.

وللباطنية السابقة والباطنية اللاحقة آراءً في الدين، وفى الشرائع، والأخلاق تخرج بهم عن الإسلام جملةً؛ فهم ينفون الصفات عن ذات الله تعالى، ويجسدون، ويشبِّهون، ويقولون بالحلول والتناسخ وبإسقاط الشرائع؛ وقد خلطوا بين أقوال

الفلاسفة وأقوال مؤسسي الأديان الشرقية، وأسسوا على هذا الخليط المتنافر مذهبهم.(١)

وهم يقولون بنظرية الناطق- أي النبي- وبالوصي، ويقولون: "كما تحركت الأفلاك بتحريك النفس والعقل والطبائع كذلك تحركت النفوس والأشخاص بالشرائع بتحريك النبي والوصي في كل زمان دائراً على سبعة سبعةٍ، حتى ينتهي إلى الدور الأخير، ويدخل زمان القيامة، وترفع التكاليف، وللباطنية كلامٌ في الحروف وتأثيرها في النفوس يخرج عن مفهوم العلم في الإسلام، وعندهم أن الشرائع عوالم روحانية أمْرِيَّة؛ والعوالم شرائع جسمانية خِلْقِيّة، وكذلك التركيبات في الحروف والكلمات على وزان تركيبات الصور والأجسام، والحروف المفردة نسبتها إلى المركبات من الكلمات كالبسائط المجردة، إلى المركبات من الأجسام؛ ولكل حرف وزانٌ في العالم وطبيعة يخصها، وتأثير من حيث تلك الخاصية في النفوس.(٢)

ودعا الباطنية الناس إلى وجوب اتخاذ إمام في كل زمان، يَعرف موازناتِ هذه الحروف والكلمات والعلوم التي استخرجوها من آيات القرآن. ويشير الشهرستاني إلى "الحسن بن الصبَّاح"، فقد صعد الحسن إلى قلعة الموت في شعبان سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وبدأ يدعو الناس إلى تعيين إمامٍ صادق قائم في كل زمان يتبعه الناس ويلازمونه؛ وهذا هو ما يميز فرقته عن غيرها من الفِرق؛ وهؤلاء يزعمون أنهم هم أهل الفرقة الناجية، ولا نجاة عندهم بدون متابعة الإمام.(٣)

وفلسفة أبي الحسن الصبّاح تدور كلها على إثبات الْمُعَلِّم، ووجوب الأخذ منه لا من غيره، وأن التوحيد هو التوحيد والنبوة، وأن النبوة هي النبوة والإمامة معاً. وقد منع أبو الحسنُ العَوَامَّ عن الخوض في العلوم، كما نَهى الْخَوَاصَّ عن مطالعة كتبه، إلا من عرف كيفية الحال في كل كتاب، ودرجة الرجال في كل علم. وكان أبو الحسن الصبّاح يكتفي بالقول في الإلهيات بإطلاق هذه الجملة المبهمة: "إن إلهنا إلهُ محمد".

---

(١) انظر الملل والنحل ٢/١٤٥- ١٤٧

(٢) المصدر نفسه ٢/١٥٠

(٣) المصدر نفسه ٢/١٥٢

وإذا سُئل أحدهم عن اعتقاده في الله، وعن الأقوال المبثوثة في كتبهم، ودائرة على ألسنتهم، قال: إلهنا إله العقول- أي ما اهتدت العقول إلى معرفته. وإذا قيل لأحدهم: ما تقولون في الباري تعالى، هل هو واحد أم كثير، عالم قادر أم لا؟ لم يُجِب إلا بهذا القَدْر: "إن إلهي إله محمد، وهو الذى أرسل رسوله بالهدى، والرسول هو الهادي". وهذا كلام غامض وغائم، ومدلوله عندهم غير مدلوله عند السامع، وعند خالي الذهن بالنسبة لمذهبهم؛ وهذه الإجابة الهروبية المراوغة تخفي وراءها عقيدةً طائفية مُغرضَة، فعبارة: "إلهنا إله محمد" لَمْ تُحدد من هو محمد؟! ولماذا لم يُجيبوا بإجابةٍ واضحة وقاطعة أن "إلهنا هو الله لا إله إلا هو، وإلهنا هو الذي دعا إليه رسول الله محمد ﷺ جميعَ الخلق"؛ وقولهم: إن "الرسول هو الهادي"، عبارة فيها تعمية أيضاً- فأي رسول يقصدونه! وماذا هدى إليه هذا الرسول!

إن هذه الفرق والطوائف وما أنتجته من مقالات وبدعيات وتقليديات وأفكار مسمومة قد ساعدت إلى حدٍ كبير على تأخر المسلمين، وعلى تشتيت جهودهم وتبديد قُواهم، وعلى الانحراف بالطاقات الإسلامية عن الهدف الأسمى، وشغلها بمسائل لاهوتية ومشكلات كلامية فارغة لا طائل من ورائها، ولا مُحصلة منها غير تبديد الجهود، وتشتيت الأذهان، وغرس بذور التعصب الأعمى والانشقاق والتشرذم بين المسلمين، ناهيك عن إشاعة روح اليأس والشعور بالإحباط بين أبناء الأمة الواحدة.

ويخبرنا الشهرستاني أنه ناظر بعضهم حول هذا المعتقدات، فكانوا يرفضون حججه بدعوى أنهم ليسوا في حاجة إلى أي شيء من خارج مذهبهم؛ وأنهم مكتفون بمعلمهم؛ وهذا هو شأن الدوائر التنظيمية المغلقة على نفسها. وهذه التنظيمات تعمل في الظلام وفي الخرائب، فهي مختلة ومختلسة؛ وأهم ما تختلسه هو عقول الشباب وفكرهم للانحراف بهم عن الأعمال النافعة والأفكار البناءة، وعن الأهداف العليا للأمة.

ومن المفيد أن ننقل بعض ما أورده الشهرستاني عليهم من حجج إذ يقول: وقد منع العوام من الخوض في العلوم، وكذلك الخواص عن مطالعة الكتب المتقدمة، إلا من عرف كيفية الحال في كل كتاب، ودرجة الرجال في كل علم. ولم يتعد بأصحابه في الإلهيات عن قوله:إن إلهنا إله محمد. قال: وأنتم تقولون: إلهنا إله العقول، أي ما

هدي إليه عقل كل عاقل. فإن قيل لواحد منهم: ما تقول في الباري تعالى، وأنه هل هو واحد أم كثير، عالم أم لا، قادر أم لا؟، لم يجب إلا بهذا القدر: إن إلهي إله محمد، وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والرسول هو الهادي إليه. وكم قد ناظرت القوم على المقدمات المذكورة؛ فلم يتخطوا عن قولهم: أفنحتاج إليك، أو نسمع هذا منك، أو نتعلم عنك؟

وكم قد ساهلت القوم في الاحتياج، وقلت: أين المحتاج إليه، وأي شيء يقرره لي في الإلهيات، وماذا يرسم لي في المعقولات؛ إذ المُعلم لا يُعْنى لِعَيْنِه، وإنما يُعْنَى لِيُعَلِّم، وقد سددتم باب العلم، وفتحتم باب التسليم والتقليد، وليس يرضى عاقل بأن يعتقد مذهبا على غير بصيرة، وأن يسلك طريقا من غير بينة. وإن كانت مبادئ الكلام تحكيمات، وعواقبها تسليمات: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥][1]

(١) المصدر نفسه: ١٥٧/٢، ١٥٨

إخوان الصفا والإسماعيلية

قبل أن نتكلم عن العلاقة الوثيقة بين إخوان الصفا والإسماعيلية، التي هي إحدى فِرق الباطنية وأشهرها؛ فإنه ينبغي أن نذكر أن إخوان الصفا يحيطهم غموضٌ كامل سواء بالنسبة لأئمتهم وأعضاء جماعتهم أو بالنسبة لتاريخ وضع رسائلهم؛ كما أن عدد كُتّاب الرسائل وهويتهم الفكرية والمذهبية غير معروف لنا كذلك على وجه التحديد؛ وهل هذه الرسائل من عمل كاتب موسوعي واحدٍ؛ أم أنها ثمرة جهود مجموعة من العلماء؛ وهل كتبت مرة واحدة، أم استغرقت كتابتها فترة طويلة من الزمن؛ هذه كلها أسئلة لا تزال بغير إجابة حاسمة. غير أن ما تحويه هذه الرسائل من علوم ومعارف ومواعظ وأمثال تعطى فكرة واضحة عن النزعة الدينية، والفلسفية والسياسية والمعرفية لهذه الجماعة.

وبالنسبة لتاريخ وضع الرسائل، فإنه لا توجد أدلة قاطعة على تحديد هذا التاريخ؛ ولذلك فإن التواريخ التي اقترحها بعض الكتاب لا تعدوا أن تكون ظنيات، فعلى سبيل المثال فإن عباس حمداني، وهو أحد من عُني بدراسة إخوان الصفا ورسائلهم يقترح عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م كتاريخ تقريبي لظهور الرسائل؛ وهذا هو العام الذي تأسست فيه الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا. (١)

وهناك تواريخ أخرى لوضع الرسائل طرحها بعض الكتاب، على سبيل المثال فإن ماركو "Marquet" في مقالة له بدائرة المعارف الإسلامية قد حاول أن يضع تاريخاً للرسائل أرجعه إلى ما قبل عام ٩٨١م؛ إلا أن بلسنر "Plesner" قد استبعد أن يكون هذا التاريخ صحيحاً. ويقرر استرن "Stern" أن إخوان الصفا قد قدموا نموذجاً للفردوس المفقود "Utopian Isma'ilism".(٢) وبالتالي فإن الأحداث المشار إليها في الرسائل لا تعتبر تواريخ صحيحة يمكن أن يستدل منها على تاريخ وضعها.

ومع هذا فإنه توجد بعض الإشارات التي يمكن أن تعين على وضع تاريخ تقريبي

---

(١) Journal of Semantic Studies, Spring 1984. P.98

(٢) Islamic Studies 111. 1964, 421

للرسائل، وهو بدايات القرن العاشر الميلادي. وإذا كان بعض الباحثين قد فندوا، إن لم يكن نددوا بالتواريخ التي اقترحها ماركو، وذلك لاعتماده على صابئة حرّان، والتركيز عليهم في وضع هذا التاريخ؛ فإن أفضل ما جاء به هذا الكاتب هو أنه تحرك على أرض أشد صلابة في محاولة وضع تاريخ ثابت لكتابة رسائل إخوان الصفا؛ وهذه الأرض الصلبة التي اعتمد عليها ماركو تتمثل في اطلاعه على كتاب الأوستوتاس"Al-Ustutas"، وهو كتاب مستقل عن الرسائل؛ ويعتبر رسالة تأويلية اقتبس منها إخوان الصفا، وقد أرجعها ماركو إلى صابئة حران، وقال إنها قد أفلتت من الضياع، ووعد بنشرها على حدة في عمل مستقل.

ومن الواضح أن إخوان الصفا قد قوي وضعهم بضعف الدولة العباسية، وانقسامها، وقد ترعرعت الجماعة في ظل الدولة البوهية، ثم عادت إلى التستر أو الاختفاء باختلاف هذه الدولة.

وعلى أية حال، ومهما يكن الأمر، فإن الرسائل تقدم معلومات كافية تمكننا من معرفة المعالم العامة، والملامح الدالة على طبيعة كُتّابها ونزعاتهم التحررية الانفتاحية التي لم تعادِ الدين في وضعه الأصلي ظاهراً، ولا في ما تفرع عنه؛ ونشأ على هامشه من ديانات ومذاهب؛ حيث انفتح إخوان الصفا على جميع العلوم والمعارف والحكم والمواعظ والأمثال والفلسفات على عصرهم؛ ودعوا أتباعهم ألا يعادوا أي علم منها، وألا يتعصبوا لأي مذهب بعينه من المذاهب السائدة.

ومن تعاليمهم لأتباعهم كذلك قولهم: "إن الحق في كل دين موجود، وعلى كل لسان جار، وأن الشبهة دخولها على كل إنسان جائز ممكن، فاجتهد يا أخي في أن تتبين الحقّ لكل صاحب دين ومذهب مما هو في يده، أو مما هو متمسك به، وتكف عنه الشبهة التي دخلت عليه، إن كنت تحسن هذه الصناعة، وإلا فلا تتعاطاها ولا تدعها إن كنت تحسنها. ولا تمسك بما أنت عليه من دينك ومذهبك، واطلب خيراً منه، فإن وجدت فلا يسعك الوقوف على الأدوية، ولكن واجب عليك الأخذ بالأخير الأفضل، والانتقال إليه. ولا تشتغلن بذكر عيوب مذاهب الناس، ولكن انظر هل لك مذهب بلا عيب. واعلم أن الإنسان العاقل قد تخفى عليه عيوب مذهبه؛ كما تخفى

عليه مساوئ أخلاقه، وقبائح أفعاله وسيئات أعماله، وتسنح له عيوب غيره ومساوئ أخلاقه وقبيح أفعاله"[1]

وقد كان إخوان الصفا يُقْصِرُون دعوتهم على الشباب وصغار السن، ويوصون بتجنب دعوة الكبار؛ لأنه من الصعب تغييرهم، كما كانوا ينصحون أعضاء جماعتهم بألا يتقيدون بديانة بعينها، وأن يمعنوا النظر فيما يعرض عليهم من دين أو مذهب، مما جعل بعض الكتاب المعاصرين يرون أنهم كانوا ثوريين؛ وقد ورد في أكثر من موضع من هذا الكتاب الذي نقدم له، أن جماعة إخوان الصفا كانت لها أهداف سياسية تسعى إلى تحقيقها.

وسوف ننتقل الآن إلى الحديث عن العلاقة الوشيجة التي تجمع بين إخوان الصفا وفرقة الإسماعيلية بوجه خاص.

للدعوة الإسماعيلية مرتكزات أساسية تقوم عليها؛ أولها وأهمها ترتيب الأفكار والأعمال على أساس الظاهر والباطن. وهم يُسَمُّون علم الظاهر بالعبادة العملية، ويعنون به ما يتصل بفرائض الدين؛ وعلم الباطن ويعنون به العبادة العلمية (أي علم الباطن) من تأويل، ومن أفكار ومفاهيم تقوم على أساسها التنظيمات الاجتماعية والإدارة السياسية؛ وهذه كلها تعتبر عندهم من صميم العقائد، وتتداخل مع بعضها البعض تداخلاً كلياً.

فالإسماعيلية إذن ليست فرقة دينية ينحصر نشاطها في أمور دينية عقدية أو شعائرية بحتة، ولكنهم فرقة دينية سياسية لها مفهومها الخاص ورسالتها المحددة، وتنظيماتها الشاملة والفاعلة، وهم يعملون دائماً على أن تكون لهم حكومة ورئاسة تطبق آراءهم، وتعمل وفق تعاليمهم. وقد نجح الإسماعيليون بالفعل في إقامة دولةٍ باسمهم؛ فتأسست الخلافة الإسماعيلية في المغرب، وكانت مقدمةً للخلافة الفاطمية الكبرى في القاهرة التي بدأ بتأسيسها الإمامُ محمد المهدي حفيد الإمام محمد التقي؛ وقد انتشرت الدعوة الإسماعيلية على عصر المنصور بن الإمام القائم في

---

(١) رسائل إخوان الصفا ٣ / ٥٠١ - ٥٠٢

صفاقص، وتونس، وقابس، ووصلت جيوش المنصور إلى جزيرة صقلية بكاملها.[1]

وقامت لهم خلافة في مصر أيام المعز لدين الله، وبُنِي الأزهر على يد جوهر الصقلّي[2]، ليكون جامعاً وجامعةً للعلوم الإسماعيلية والفكر الطائفي الشيعي بوجه عام، ومركزاً تنطلق منه الدعوة الشيعية إلى إفريقيا وآسيا، إلا أن البذور الشيعية التي وضعت في تربة مصر أنتجت شيئاً آخر، أو قل إن مصر حولتها إلى العقيدة السنية الخالصة بحيث صار الأزهر الذي أسس في البداية ليكون منبراً للفكر الطائفي هو منارة الإسلام السُّني الخالص القائم على الوسطية، حتى أنه ليمكننا أن نقول إن الدعوة الفاطمية الشيعية نجحت سياسياً في الاستيلاء على مصر إلى حين، ولكنها لم تنجح طائفياً ألبتةَ، بل إذ عجزت تماماً أن تُحَوِّل مسلمي مصر إلى مذهبها الطائفي.

ويُعتبر إخوانُ الصفا الجناح السياسي الإعلامي السري للحركة الإسماعيلية، وقد كانوا يعملون في سرية تامة، وحيطةٍ بالغة، وذلك لتحقيق طموحات الدولة الشيعية، وهروباً في الوقت نفسه من بطش الحكام العباسيين الذين كانوا متيقظين لهم، يلهبون رأي العالم الإسلامي ضدهم، وقد وضعت رسائل إخوان الصفا في ظل هذه الظروف السياسية المعقدة، ومن المهم أن ننقل هذا النص من رسالة "افتراق النطقاء والأئمة والمتممين من كتاب المحصول للداعي الإسماعيلي شهاب الدين أبي النصر علي بن الجوشي الديلمي المينستي "مخطوط ملك عارف تامر، محقق رسالة جامعة الجامعة".

والنص هو: "اعلم أن الدور السادس هو وقت ظهور محمد ﷺ وقد كان ضده في وقته أبو لهب، أما عمره فكان ثلاثة وستون وقت وفاته، وقد أقام بمكة أربعين سنة وهاجر وهو ابن ثلاثة وخمسين وأقام في المدينة عشر سنين ونقل في ربيع الأول في ليلة خلت من يوم الاثنين، وأما وصيّه فهو علي بن أبي طالب ابن عمه وصهره كرم الله وجهه، عاش أيضاً ثلاثًا وستين سنة، توفي في عام الأربعين من الهجرة، استشهد

---

(١) مصطفى غالب . تاريخ الدعوة الإسماعيلية. دار الأندلس . بيروت. ١٥٨- ١٥٩، وص ١٧٥

(٢) المصدر نفسه ١٧٥- ٢١٤

ليلة الجمعة لأربع عشرة خلت من شهر رمضان قام بالأمر (وكالة) ولده الحسن وضده كان معاوية، وكان عمره وقت وفاته سبعاً وأربعين سنة، وقبره في البقيع ثم قام من بعده الحسين صاحب النص الشرعي؛ وكان ضده يزيد واستشهد في كربلاء في العاشر من محرم، ثم أقام من بعده ولده علي زين العابدين ابن الإمام الحسين وعمره سبع وخمسون سنة وقت الوفاة، وقبره في البقيع ثم أقام من بعده ولده محمد بن علي الباقر ودفن في البقيع أيضاً، ثم قام من بعده ولده جعفر بن محمد الصادق ومات وهو ابن خمس وستين سنة، وقبره بالبقيع، ثم قام من بعده في حياته وبين يديه حجته ولده إسماعيل فكانت حياة جعفر الصادق كحياة (يعقوب عند انتقال الأمر إلى ولده يوسف ومن يوسف إلى ولده ناخور) ثم قام بالأمر من بعده محمد بن إسماعيل وفي وقته ظهرت دعاته في المشرق وفي اليمن من حججه (عبد الله بن المبارك) و(عبد الله بن ميمون القداح) و(عبد الله بن حمدان) قيل عنه إنه صاحب القيامة أو القائم ولكن ليس كذلك كما يتبين."[1]

وقد كُتبت الرسائلُ في الوقت الذي اشتدت فيه المحنةُ بالإسماعيليين أيام الحكم العباسي، وكان الإمام الإسماعيلي آنذاك هو أحمد بن محمد بن إسماعيل الذي تولى الإمامة سنة ١٩٣هـ، وهو أول من ستر نفسه عن الأصدقاء، واحتجب عن الأعداء من الحكام، وسائر الخصوم بشكل عام.

ومنذ هذا التاريخ والإسماعيليون يكْنون بأسماء أئمتهم، ويرمزون لهم تِقية وستراً عليهم.[2] وقد استعمل إخوان الصفا كلمة "التَّقِيَّة" مرة واحدة على الأقل في رسائلهم. كما أكثروا من استعمال كلمة "الستر والاستتار والكهف."[3]

وفي هذه القرينة نضيف إلى ما قلناه سابقاً، إن إخوان الصفا قد استعملوا كلمة "كهف" كرمز للسرداب الذي حُفر للإمام عبد الله بن إسماعيل أحمد الوفي بالسلمية ليختبئ فيه عن أعين العباسيين.

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٦٧

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٨.

(٣) الرسائل ٤/ ١٤٩.

ويحكي مصطفى غالب أنه في ظل هذه الظروف اجتمع طائفة من علماء الإسماعيلية وألّفُوا اثنين وخمسين رسالة فلسفية عرضوها على الإمام أحمد الوفي فسماها "رسالة الجامعة" وألف رسالة أخرى جمعت خلاصة ما ورد بالرسائل الاثنين وخمسين رسالة، وسماها "الجامعة". كما ألّف رسالةً أخرى لَخَّص فيها أهم ما في الرسائل، بما في ذلك الرسالة الجامعة وسماها "جامعة الجامعة".[1]

وينبغي أن نذكر في التعليق على هذا الكلام أنه لا توجد أية إشارة في الرسائل تدل عل أن واضع الجامعة شخص آخر غير واضع الرسائل أو واضعيها. ويبدو من استطلاع الجو العام الذي كتبت فيه الرسائل أنها كتبت بالفعل في وقت الاضطهاد العباسي ضد الإسماعيلية. ومن هنا كَثر استعمالهم للرموز والإشارات، يضاف إلى ذلك التشديد على أتباعهم ألا يظهروا دعوتهم أو يجاهروا بها.

ولسنا نجد أي مجال للشك في أن إخوان الصفا هم الجناح الإعلامي والتربوي للدعوة الإسماعيلية، فالأفكار واحدة في الرسائل، وكذا في المتفرقات المأثورة للأئمة الإسماعيلية، وللمؤرخين للأديان والفرق والطوائف من علماء المسلمين.

فعلى سبيل المثال يقول كُتّاب الرسائل عن الشخص الذي كانوا يدعون إليه: "حتى عرفنا صاحب الأمر بصفاته، والسَّنة والشهر الذي يكون فيه الحادث في شأنه"[2]؛ وكانوا يعتقدون أن ظهور صاحب الزمان أو الدور الذي كانوا يقومون بالدعوة إليه والدعاية له يتوقف موعده على اجتماع النجوم وتوافق الطوالع.[3]

وفي الرسائل فصلٌ بهذا العنوان "في مخاطبة المتشيعين"[4]، ومن أقوالهم في هذا الفصل: "وفى الشريعة المحمدية، والملة الهاشمية، عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الغدير (هو غدير خمْ)، ويوم المصيبة به (يعنون الحسين) صلوات الله عليه.... كما حزن أهل بيت النبوة لما فقدوا سيدهم، وغاب عنهم واحدهم، وتُخُطِّفوا من بعده، وتفرق شملهم، وطمع فيهم عدوهم، واغتصبوا حقهم، وتبددوا، ثم ختم ذلك اليوم بكربلاء، وقتل من قتل من الشهداء ما افتضح به الإسلام"[5]

---

(١) المصدر نفسه ٤/ ٣٨١ .

(٢) المصدر نفسه ٤/ ١٩٠، ١٩٥.

(٣) الرسائل ٤/٢٢٥، وانظر جولدزيهر. العقيدة والشريعة في الإسلام. بيروت دار الرائد العربي. مصورة عن طبعة ص ٣٣٥

(٤) المصدر نفسه ٤/ ١٩٥.

(٥) المصدر نفسه ٤/ ٣٧٩.

وعلى الرغم من هذا فإنهم يسخرون من عقيدة المنتظر المختفي[١]؛ ومع أن الصبغة الإسماعيلية واضحة في رسائلهم، وكذلك التشيع لأهل البيت، فإن إخوان الصفا لم يهاجموا سائر الصحابة كما هو المتوقع منهم؛ بل إنهم يشيرون بإكبار إلى الشيخين أبي بكر الصديق، والفاروق عمر بن الخطاب، وإلى ذي النورين عثمان بن عفان، وذلك في السياق نفسه مع أهل البيت رضي الله عنهم أجمعين.[٢]

وفي هذه القرينة ينبغي أن نوضح أن الفرقة الإسماعيلية قد استعانت في ترويج دعاويها بالنظريات الأفلاطونية مع الارتكاز على الحياة الدينية في الظاهر، وذلك حتى تنفذ إلى صميم الدعوة الإسلامية فتضر بها من الداخل، فقد تبنى الإسماعيليون نظرية الفيض الكوني التي عُنيت بها الأفلاطونية الحديثة[٣]، وربطوا بين عملية الفيض هذه وبين المظاهر الدورية للعقل الكلي التي بدأت سلسلتها بآدم عليه السلام، وانتظم فيها الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، واختتمت بالإمام الذي يجيء في الترتيب بعد الإمام السادس عند الشيعة، وهو إسماعيل وابنه محمد، والذين يكونون حلقة شيعية من النطقاء كما ورد في موضع آخر من هذا الكتاب. ومما يُذكر أن الوحي عند الإسماعيلية لم يتوقف أو ينقطع، ومحمد (ﷺ) ليس بخاتم الأنبياء والمرسلين؛ الدعوة نفسها التي قامت عليها العقيدة القاديانية والعقيدة البابية والبهائية الزائفة في العصر الحديث.

يستشهد إخوان الصفا على صحة مذهبهم في الإمام الغائب، وضرورة البحث عنه بيعقوب عليه السلام الذي أرسل أولاده، وأمرهم أن يبحثوا عن يوسف (صاحب الأمر) في كل مكان؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧][٤]

---

(١) المصدر نفسه ٣/ ٥٢٣.

(٢) المصدر نفسه ٤/ ٢٦٩.

(٣) الأفلاطونية الحديثة (New Platonism) يقوم على أساس القول بالواحد الذي صدرت به الكثرة، وهو يجمع بين الدين والفلسفة والتصوف مع الاعتداد بأفلاطون. وقال بهذا المذهب مدرسة الإسكندرية في القرون من الثالث إلى السادس الميلادي (المعجم الفلسفي).

(٤) الداعي الإسماعيلي جعفر بن منصور اليمن. سرائر وأسرار النطقاء. تحقيق مصطفى غالب. بيروت. دار الأندلس ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م ص ٢٧٤.

ولتوضيح خطر الفكر الطائفي، والإسماعيلي منه بالذات، وفكر إخوان الصفا بشكل أخص ننقل هذا النص من كتاب (سرائر وأسرار النطقاء)، وذلك لأهميته في إظهار المقاصد الخفية لفكر أصحاب الفِرق المُتَستّرة ظاهراً بالإسلام.

يقول ابن منصور اليمن: "ولما بلغ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (ﷺ) أشده، وقع في يد أُبَيّ بن كعب، فدعاه إلى صاحب جزيرته كما فعل الكوكب بأبيه (يعني إبراهيم عليه السلام) قبله، وافتتن بخدمته كما افتتن أبوه بالكوكب، فلما تكامل أمره واستوعب ما في وعاء أُبَيّ رفعه أُبَيّ إلى صاحب جزيرته، وهو زيد بن عمر، فعقد عليه إلى إمامه بحيراء صاحب الدور، والإقرار بشريعة المسيح. وقد روي عن زيد ابن عمر هذا أنه كان يدعو بمكة خفاء وسراً حتى انكشف للعرب أمره فهجروه ونفوه عن مكة لمفارقته لأديانهم، وكان لا يدخلها إلا ليلاً فيصلي بها عند الليل. وأنه لما عقد على محمد بدأ يكشف له عن الحق الذي جاءت به الأنبياء والأوصياء والأئمة، فوقع في قلب محمد الإعجاب بما سمعه منه كما وقع بإبراهيم الإعجاب بالقمر بعد الكوكب، ووقع في قلبه أيضاً بُغض الأوثان والأصنام، وهو ما روي أنه أول من نظر في عيوبها، وذلك لما سمعه من زيد هذا. وروي أيضاً أن عمه أبا طالب سلم إليه لحم ذبائحهم التي كانوا يتقربون بها إلى أصنامهم، وقال له: إذا أمرك به أحد من قريش عرض عليه من هذا اللحم، وأن محمداً دفعه إلى مولاه زيد بن حارثة يحمله له، فإذا مر به أحد من قريش عرض عليه من هذا اللحم فناوله منه، فيتناول به، وأنه مر ذات يوم بزيد هذا وهو خارج عن مكة قبل أن يتصل به فقال له: يا عم أما تأكل من هذا اللحم؟ وكان شيخاً كبيراً. فقال: يا ابن أخي عساه من ذبائحهم هذه التي يذبحونها لأصنامهم، فقال: أجل يا عم. قال له: يا ابن أخي ما آكله، وسل عمك أبا طالب، وعماتك، وبنات عبد المطلب عن هذا، فبقي في قلبه منه شيء لم يقف على حقيقته، فلما اتصل به عِلْم حقيقة ما أشار إليه في عمه وعماته، وأنه لَمّا اتصل به بدأ بالاستقصاء عن ذلك حتى صح له من خبرهم ما صح، وأنّه لما أوقفه على عيوب الأصنام ، قال: والله ما قربتها، منذ عرفت خبرها، ثُم لزم زيد بن عمر

وهو مولاه، وأقبلوا عليه بالسؤال عما جاءت به الأنبياء والأوصياء والأئمة، وبما يتوجه به العبد إلى الله حتى استفرغ ما في وعاء زيد، فعند ذلك رفعهما إلى إمام زمانه فأمره بإحضاره إليه كما فعل شعيب لبناته بإحضار موسى لما وقع في أيديهم، بعد مفارقة العبد الصالح، وهو ما روي عن عمه أبا طالب، أنه سافر إلى الروم، وكان من أمره ما يطول به الشرح إن تقصيناه."

يشتمل هذا النص على مغالطات وافتراءات كثيرة. منها: الدعوى بأن رسول الله ﷺ وقع في يد أُبَيّ بن كعب، وكان هو الذي دعاه إلى صاحب الجزيرة، وصاحب الجزيرة في التعبير الإسماعيلي يعنون به "إمام الزمان" أو "القائم المستور"؛ والمعروف أن النبي ﷺ لم يلتق بكعب إلا بعد الهجرة، وفي المدينة المنورة؛ وقد كان أُبَيّ يهوديا فأسلم، وصاحَب النبي ﷺ وحسنت صُحبته، وكان أُبَيّ يتعلم من الرسول ﷺ مع شدة الاتباع له، ولم يقع النبي ﷺ في يد أُبَيّ ولا في يد غيره، كما يتوقع به هذا الكاتب الإسماعيلي، ولم نعرف أن أُبَيّ بن كعب قد عاش في مكة أو ارتحل إليها.

ومن التبجح أن يزعم الكاتب أن الرسول ﷺ قد افتتن بخدمة أُبَيّ بن كعب في مقابل أن يتعلم منه؛ وصاحب الجزيرة، كما يصرح به هذا الداعي الإسماعيلي مرة أخرى، هو زيد بن عمرو بن نفيل، الذي كُتِب خطأً هكذا (زيد بن عمر)؛ وأن زيداً هذا عقد على رسول الله ﷺ، والعقد هنا يعني النكاح، والنكاح يعني حسب التعبير الإسماعيلي الخضوع التام لصاحب الأمر، وكان زيد بن عمرو هذا من الحنفاء، يدعو الناس سراً إلى التوحيد وأنه هو الذي كشف الحق الذي جاء به الأنبياء والأوصياء والأئمة، فوقع في قلب محمد ﷺ الإعجاب بما سمعه من زيد، كما وقع في قلب إبراهيم عليه السلام الإعجاب بالقمر بعد الكوكب.

ومن التبجح كذلك زعْمُ الكاتبِ بأن رسول الله (ﷺ) كان لا يزال يميل بعض الميل إلى الأصنام والأوثان، على الرغم مما تعلمه من زيد، وأُبَيّ، وبحيرا الراهب بشأن التوحيد؛ وأنه (ﷺ) رفض عبادة الأصنام بعد ذلك بناءً على التعاليم التي أخذها من جده أبي طالب؛ مع أنه من المقطوع به أن رسول الله ﷺ لم يلتق بزيد بن عمرو ألبتة ومعه عمه.

ويستطرد الكاتب قائلاً: "ومما هو في أيدي العامة أن بحيراء أصلح لهم طعاماً وجمعهم عليه، وذلك أنه لما أحضره وعمه، عقد عليه عندما عرفه كما عقد شعيب على موسى عند معرفته به وجعله، استأجره لنفسه وسلم إليه جزيرة العرب، وأوصى

عمه به وبكفالته، والتسليم إليه (يعني تسليمه) ما عنده من ميراث ولد إسماعيل بن إبراهيم عند كمال أمره، وأمره بستر أمره وصيانته من أعدائه، والقيام بين يديه، وأمره بقيام الدعوة إلى المسيح مدة أجله، وهو ما روي عنه أنه صلى القبلتين وبايع البيعتين، وكتب إلى زيد بن عمرو بتسليم الجزيرة إليه، والانصراف عنها إلى الشام، فقبل زيد بن عمرو، وسلم ورضي ولم يتعرض له، إذ كان في يده علم من الكتاب، ولذلك يقول حيث نزل عليه الروح وانصرف عن قبلة المسيح، فلما قضى زيد بن عمر منها وطراً، يعني من الدعوة بها إلى تمام أمر الأول، يعني القيام بشريعة المسيح والدعوة إلى متم زمانه، يعني بحيراء، وروي أنه لما خرج زيد عن مكة وأقام محمد الدعوة بها واشتهر أمره، اجتمعت قريش على قتله كما اجتمعت على نفي زيد قبله، وأن بني هاشم خرجوا له من مكة خوفاً عليه، وأقاموا معه بالشعب سبع سنين، وذلك لما كان فيهم من المعرفة به، والأمر الذي كان متوارثاً فيهم من قيدار إلى ظهوره، فعند ذلك بذلوا مُهَجَهم وأنفسهم بين يديه. وهو في كل يوم ينشر الدعوة إلى المسيح، ويشير بالأبطحي (ساكن بطحاء مكة) التهامي وقدومه، وأنه كان يقول لأهل إجابته عند ضعف يده، من لم تكن له عشيرة تمنعه فليفر إلى أرض الحبشة، وروي أنه هرب من تهامة إلى أرض الحبشة خمسة وسبعون رجلا وامرأة، وأنه لم يزل على ذلك إلى أن تم الأمر وقضي الأجل، فعند ذلك أوصى الله إلى بحيراء بتسليم الأمر إليه، وهو ما روي أنه كان الشعب وكانت العرب قد اجتمعت مع قريش وكتب بينهم كتاباً وعلقوه بالكعبة على أنهم إن ظفروا بمحمد قتلوه، وأنهم لا يدعون أحداً من بني هاشم، ولا من انطوى إليهم واستجاب إلى دعوتهم يدخل عليهم، ولا يبايعونهم ولا يواكلونهم ولا يشاربونهم ولا يناكحونهم، ولا يتناكحون منهم، ولا يسلمون إليهم محمداً فيقتلوه. وروي أنه (أي رسول الله ﷺ) رأى في منامه عند تمام أمره أن الله سلط على صحيفتهم المكتوبة بينهم دابة الأرض فمحت ما فيها من العقود، وترك اسم الله الأعظم. وأصبح النبي فأعلم عمه بما رأى وكتب لوقته إلى قريش وأعلمهم بما كان من رؤياه، وقال لهم فيما قاله إن يكن الأمر على ما وصفه فإلى متى تدومون على العقوق، وإن لم يكن كما وصف سلمته إليكم فإن لم يكن عنده صحة ويقين لذلك كيف يطمئن لهم ويشرط على نفسه هذه الشروط، ولكن الخلق عموا عن معرفة أولياء الله جهلاً منهم بذلك، وأن القوم تواصوا على ذلك، وأخرجوا الصحيفة بمحضر من رسله وجماعة سادات قريش وسائر ملوك العرب، فأصابوا

الأمر كما وصفه محمد".

ومن العجيب أن يُعطي الكاتب مثل هذه السيطرةً لبحيرا الراهب على رسول الله ﷺ، وأن يجعل رسول الله ﷺ داعياً إلى دين المسيح بأمر بحيرا؛ مع أنه من المعروف من سيرته ﷺ أنه لم يلتق ببحيرا إلا في سن الطفولة، وبالقطع فقد مات بحيرا قبل أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ؛ يضاف إلى ذلك أن المؤرخين وكُتّاب السيرة لم يسجلوا لنا عن هذه المقابلة السريعة التي تمت بحضرة عمه أبي طالب، ومن كان معه من العرب، إلا بضع كلماتٍ، وهذه الكلمات لا تتسع لتلك الدعاوَى الطائفية اللادينية والعنصرية العريضة؛ وبالتالي فدعوى الكاتب بأن بحيرا قد زار النبي ﷺ في مكة، وسلمه أمر الجزيرة وأمر الدعوة إلى المسيح دعوى باطلة، وحتى لو كانت على سبيل الرمز، فإنها مع ذلك رمز ممجوج لا صلة له بالواقع؛ وهذه الترهات إنما تصب في وعاء الاستشراق العنصري والتنصير التنقصي الذي يعمل ضد الإسلام.

وأياً كانت التأويلات الإسماعيلية للنصوص وللأشخاص التاريخيين، فإنه من العجيب أن يصل الكاتب إلى الحد الذي يقول معه: "وعند ذلك رجع أبو طالب وبنو هاشم إلى مكة وسافر بحيراء إليه وجمع تلامذته وأهل المعرفة والبصيرة بالعلم، وسلم إليه بمحضر منهم، وأشهد عليه، وعلى نفسه بالتسليم وسلم حججه وحوارييه وأسبابه، وعقد عليه كما عقد شعيب على موسى حين زوجه بابنته. ومما روي (كما يزعم الكاتب) أنه قال: أقمت مع جبرائيل سنتين. عنى به بحيراء الذي جبره، وأقمت مع ميكائيل عشرين سنة عنى به عمه الذي كفله. وفي رواية جبرائيل هو أبَيّ بن كعب الذي عقد عليه، وميكائيل بحيراء الذي سلم إليه، ثم أمر عمه أبا طالب بتسليم الأمر المستودع فيهم من قيدار، وناهيك إليه".

فهذا النص واضح في دعوى الوصاية على الإسلام وفي مظاهرة دعوى انتحال رسول الله ﷺ من كُتُب السابقين وأقوالهم، تلك الدعوى التي رددها خصوم الإسلام وردها القرآن في نحور مدّعيها، وأجمع المسلمون على بطلانها. أضف إلى ذلك التفسي الإسماعيلي الطائفي التسلطي المرذول للتاريخ الإنساني، وإخضاع مفهوم النبوة لفكرة الأئمة والأوصياء وقائم الزمان، منذ بداية التاريخ الإنساني على ما يبدو واضحاً في الفكر الباطني كله.

وفي قرينة تتبع فكر إخوان الصفا والتعرف على أصوله وامتداداته في المحيط

الذي نشأوا فيه نجد أنه مما تجدر الإشارة إليه أن إخوان الصفا ظلوا مستترين بمذهبهم، مُتخفّين بدعوتهم إلى حدٍّ جعل من الصعب التعرف على أعيان أشخاصهم بحيث لم يعد من السهل الإجابة على مثل هذه الأسئلة؛ من هم كتّاب الرسائل؟ وما هو موقعهم من العلم؟ وما هي علاقتهم بعلماء عصرهم؟ ما هو المذهب أو الفكر الذي يجمعهم، حيث إن إخوان الصفا قد أخذوا من جميع المذاهب ومن جميع العلوم والمعارف على قدم وساق دون تفريق في الغالب بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي؛ هل كان إخوان الصفا من أهل السُّنة ثم غيروا مسارهم؟ هل كانوا من الشيعة ثم انفتحوا على سائر الفِرق بما فيها أهل السنة والجماعة؟ هل كانوا من الصوفية، حيث يكثر كلامهم في الرسائل عن الزهد أم كانوا من المعتزلة؟ وهل اضطلع كاتبٌ واحد بكتابة هذه الرسائل أم هي من عمل أكثر من كاتب؟ ومهما كان الأمر في هذه المسألة فإن الرسائل كلها قد كُتبت بأسلوبٍ واحد، وخضعت لمنهج واحد في الكتابة؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه توجد فيها إشارات قد توحي بأن كاتبها واحد، وفي الوقت نفسه توجد إشارات أخرى تدل على أنها لعدد من الكُتاب.

وعلى الرغم مما يحيط بأشخاص كتاب رسائل إخوان الصفا من غموض قد يصل إلى حد اللغز الذي يصعب حلّه؛ فإن في الرسائل نفسها نصوصاً قاطعةً في أنها من عمل جماعة دينية فلسفية باطنية كانت لها رسالة خاصة ومنهج دعوي محدد. هذه الجماعة استطاعت أن تجمع تراث أسلافها وتراث فلاسفة الإغريق وعلمائهم، وأن تنسج على أساسه تلك الرسائل الجامعة التي لا يشك أحدٌ في نسبتها إليهم، أو في نسبتها إلى العصر الذي عاشوا فيه، وإلى البيئة التي مارسوا فيها أنشطتهم وتأثروا بها.

ومن خلال دراسة هذه الرسائل في إطار الفكر الإسماعيلي والفكر الطائفي بشكل عام، قد صحّت لدينا نسبة هذه الرسائل وكُتّابها إلى الفرقة الإسماعيلية.

وقد بالغ أحد علماء الإسماعيلية في تقدير الرسائل، فزعم "أن رسائل إخوان الصفا هي القرآن بعد القرآن؛ أو هي قرآن العلم، كما أن القرآن هو قرآن الوحي؛ وهي قرآن الإمامة، وذلك قرآن النبوة".[1]

---

(١) الرسالة الجامعة تحقيق مصطفى غالب : ص١٧

أما عن إخوان الصفا والفلسفة فإن عارف تامر يذهب في كتابه "حقيقة إخوان الصفا وخلان الوفا"[1] إلى أن إخوان الصفا كانوا هم أول من قَعَّد ونظَّر للفلسفة الإسماعيلية؛ وإذا كان إخوان الصفا يمثلون برسائلهم الجانب الفلسفي الفكري للطائفة الإسماعيلية، فإن القاضي النعمان يمثل بكتابه "دعائم الإسلام" الجانب الفقهي للإخوان. ا هـ

وعدد الرسائل كما هو واضح في الرسائل نفسها اثنان وخمسون رسالة. ويقدم عارف تامر نصوصاً أخرى من خارج الرسائل تؤكد أن عددها هو كما ورد في الرسائل؛ ويذكر أن الداعي الإسماعيلي عبد الله بن محمد هو الذي جعل الرسائل بهذا العدد لأنها توافق على التحديد اسمه بحروف الجمّل.

ومن اللافت للنظر أن الداعي المطلق إدريس عماد الدين يذكر في كتاب "زهر المعاني" بأن عدد رسائل إخوان الصفا ثلاثة وخمسون رسالة؛ وأنها من تصنيف الإمام أحمد بن عبد الله الذي "نشر العلوم ظاهراً وباطناً، وصنف الرسائل وجعلها على العلوم الأربعة، ثم جعلها ثلاثة وخمسين رسالة"؛ ويقول في تأكيد ذلك أن اسمه بحساب الجمّل يوافق عدد الرسائل- أي ثلاثة وخمسون"[2]

وقد أورد المؤرخون والمتكلمون ونقاد الفلسفة من علماء المسلمين إشارات كثيرة إلى الإخوان ورسائلهم كما سيتضح من خلال هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وكما ألمعنا إليه آنفاً في هذه المقدمة.[3]

ومن الأهمية بمكان في هذه المظان أن نشير إلى أنه يمكن أن يكون لإخوان الصفا كتباً أخرى غير الرسائل حملت أسماءهم؛ أو صدّرت بأسماء أخرى، يبدوا أنها فقدت فلم تصل إلينا، أو أنها موجودة ولكنها لم تُكتشف بعد.

فقد جاء في الرسالة الجامعة هذه الفقرة المهمة: "وقد قلنا لك في رسالة كيفية الدعوة إن لنا كتبا لا يقف على قراءتها غيرنا ولا يطلع على حقائقها سوانا، ولا يعلمها الناس إلا من قِبَلِنا ولا يتعلم قراءتها إلا من علّمناه، ولا يعرف صور حروفها إلا من عرّفناه".[4]

---

(١) ط٢ بيروت المطبعة الكاثوليكية ص٧ وما بعدها

(٢) المصدر نفسه: ١٨

(٣) وانظر المصدر السابق ص ١٥ : ١٩

(٤) الرسالة الجامعة: ٢ / ٣٧١

إخوان الصفا والمعتزلة

وهنا نود أن نثير نقطة نرى أنها مهمة وهي علاقة إخوان الصفا بالمعتزلة، حيث يقترح بعض الكتاب انتماءهم إلى هذه المدرسة الاعتزالية؛ ودون الدخول في التفاصيل التي لا تتسع لها هذه المقدمة، نقول إنه على الرغم من وجود علاقة فكرية مذهبية بين المعتزلة وإخوان الصفا، فإنه لا يمكن أن نقول إن هذه الجماعة قد خرجت من عباءة المعتزلة؛ فإنهم كما بيّنا قد أخذوا من جميع المذاهب والفرق، ولم يقفوا عند حدّ المعتزلة؛ والفوارق بين إخوان الصفا وبين المعتزلة كثيرة؛ فعلى سبيل المثال فإن المعتزلة لم يُؤَوّلوا القرآنَ تأويلاً يخرج بهم عن الإسلام كما فعل إخوان الصفا برسائلهم وكما هو مُبيّن في موضعه في هذا الكتاب، فالمعتزلة لم تعترف بصلب المسيح ﷺ وما يترتب على ذلك من معتقدات، ولم ينكروا البعث الجسماني، ولم يعتبروا المعجزة نوعاً من السحر كما فعل إخوان الصفا.

والمعتزلة مدرسة فكرية إسلامية تقوم على الاجتهاد العقلي وعلى محاولة التوفيق بين الأدلة النقلية والعقلية؛ أما فكر إخوان الصفا فبمثل عقيدةً وفكراً طائفياً يسعى في النهاية إلى إبطال التعاليم الإسلامية. وقد كان إخوان الصفا يجتهدون في العمل ضد الدين، وليس في الدين كما فعل المعتزلة. يضاف إلى ذلك أن المعتزلة كانوا يعملون في وضح النهار، ويواجهون بآرائهم مَن خالفهم، إلى درجة أنهم استعانوا بالسلطان على ذلك؛ أما إخوان الصفا فقد قامت دعوتهم على السرية المطلقة، ولم يكن المعتزلة يعتقدون في إمام غائب، أو في مرجعيةٍ بشرية تحل محل النبي، كما فعل إخوان الصفا الذين أسسوا قواعد مذهبهم على فكرة القائم المنتظر والإمام الغائب وعلى الأوصياء والنطقاء والدعاة. لقد تأثر المعتزلة بالشيعة كما تأثر إخوان الصفا بالمعتزلة على الأقل في الجانب العقلي، ولكنه مع ذلك تظل الحدود الفاصلة قائمةً بينهما وتظل السمات المميزة لكل فريق منهما باقية لا تتزحزح.

وفي هذه القرينة نذكر أن بعض الباحثين يرى أن إخوان الصفا لا يمكن أن يكونوا شيعة اثنا عشرية؛ لأن الشيعة الاثنا عشرية لا تزال تنتظر قدوم المهدي، بينما يعتقد الإسماعيلية بأن المهدي المنتظر قد ظهر بالفعل في بلاد المغرب في القرن

التاسع الميلادي، وأسس الإمبراطورية الشيعية. كما استبعد بعض الباحثين كذلك أن يكون إخوان الصفا من الأشعرية، لذات السبب، وهو أن الأشعرية على خلاف الإسماعيلية، يقولون بأن وقت المهدي المنتظر لم يحن وأنه لم يظهر في أي مكان بعد.

أما عن احتمال كون إخوان الصفا من أهل السنة فذلك مستبعد بل مستحيل؛ هذا على الرغم من توقير هذه الجماعة لعموم الصحابة رضوان الله عليهم، خلافا للشيعة. والصحيح الذي نطمئن إليه أن إخوان الصفا هم إخوان الشيعة الباطنية، وبني جلدتهم، ولكنهم يمثلون تياراً خاصاً ضمن التيار الشيعي العام، فهم إسماعيلية سَبعية لُحْمةً وسُدًى، وإن كان لهم اتصال بكل المذاهب والتيارات والحركات الأخرى التي ظهرت كالأعشاب على هوامش المجتمع الإسلامي وحاولت أن تمتد إلى مركزه ومواقع التأثير فيه.

ولولا أن هذه الأفكار قد تجد طريقها إلى ضعاف العقول، وضعاف الإيمان، ما نقلناها لتَهَافُتِها وتَفَاهَتِها؛ إذ أن ما يظنه البعض معلوماً من الدين بالضرورة قد يكون عند البعض محل جهلٍ تام وعام، مما يجعل من الضروري، بل من الواجب التنبيه عليه، وبخاصة في زماننا هذا الذي كثرت فيه البدع القولية والعملية، وانتشرت فيه الأفكار والدعاوَى التي تستهدف الهوية، وضرب العقيدة الإيمانية في النفوس، وإن أخطر ما ابتلي به الإسلام على مدار تاريخه، هو تلك الجماعات السرية التي لا تكف تُعمِل معاول الهدم في الإسلام، سواءً بطريقة مباشرة أم غير مباشرة؛ والمسلمون دون غيرهم من أهل الأديان الأخرى يُحَارَبُون في دينهم أولاً، لأن الإسلام بالنسبة للمسلمين ليس ديناً بالمعنى الضيق، وإنما هو دين ودولة، دين يهتم بالدنيا وشونها بكل تفاصيلها ودقائقها، كما يهتم بالآخرة بكل تفاصيلها ودقائقها.

وأخيراً فإن هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ يتعامل مع فكر جماعة فلسفية دينية قديمة ترجع إلى القرن الرابع الهجري كما تتفق عليه كلمة المؤرخين والدارسين بناء على اجتهاد، وليس بناء على أدلة يقينية واضحة، ونصوص قاطعة من داخل الرسائل. فجماعة إخوان الصفا كانت تعمل سرياً وبعيداً عن أعين الرقباء، وسواءً كانت هذه السرية لأسبابٍ سياسية أوجبتها ظروف العصر وطبيعة الدعوة، أم كانت لأسبابٍ طائفية "تكتيكية"، على أي حال، فإن هذه الجماعة ظلت معروفةً برسائلها لا بأعيانها وأشخاصها.

ويُعتبر إخوان الصفا روادا في فن كتابة الموسوعات، وهذا مما يُحسب لهذه الجماعة ويضعها على درجة عالية من سُلَّم المعرفة الإنسانية، ومما يحسب لهم أيضاً اهتماماتهم بالأخلاق العملية والنظرية، ودعوتهم إلى الفضيلة غير أن دعوتهم الطائفية الباطنية جعلتهم يؤولون القرآن بما يتفق مع فكرهم الطائفي ومعتقداتهم الخاصة، وأن يخرجوا عن تعاليم الإسلام في كثير من المسائل التي بينتها الكاتبة، وأن يبثوا معتقدات غير إسلامية رغبةً في تأليف قلُوب أهلها، وإدخالهم في جماعتهم مما يوحي بوضوح أنهم كانوا يدعون إلى ديانة عالمية تشبه تلك التي كان يدعو إليها بعض علماء اليهود في الأندلس والذين تصدى لدعوتهم ابن حزم الأندلسي.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعالج موضوعاتٍ قد تبدو قديمة إلا أن الكاتبة قد استطاعت بجدارة أن تقدمه في ثوبٍ جديد وبأسلوب علمي رصين، وبمنهجية استوفت كل وسائل البحث العلمي وضوابطه وغاياته، ناهيك بالقراءة النقدية التحليلية التي قدمتها الكاتبة لأول مرة، لنصوص رسائل إخوان الصفا مدعومة بالمصادر المهمة باللغتين العربية والإنجليزية، وبالربط الرائع بين القوى المعادية للإسلام في القديم والحديث.

وسوف يرى القارئ بنفسه أن الدكتورة نورشيف رفعت قد قدمت للمكتبة العربية في الوقت الحاضر بحثاً مهماً وفريداً؛ وأزعم أنها لم تُسبق في هذا المجال الذي اختارته للدراسة، وبما قدمته عن إخوان الصفا وموقع فكرهم وإسهاماتهم في مجال مقارنة الأديان والحوار والفكر الديني وفلسفة الأديان بشكل خاص.

الأستاذ الدكتور/ محمد محمّد أبو ليلة

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله، الرحمة المزداة، والسراج المنير، البشير النذير، والداعي البصير إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يدور هذا الكتاب حول فكر جماعة إخوان الصفا، ومعتقداتهم كما تعكسها رسائلهم التي تشكل في مجموعها دائرة معارف متكاملة جمعت بين دفتيها علوم العصر الذي عاشوا فيه؛ الأصيل منها والدخيل. ويبلغ عدد هذه الرسائل اثنين وخمسين رسالة، بالإضافة إلى الرسالة الجامعة التي اختصروا فيها أهم ما تحتوي عليه مجموعة الرسائل، ثم رسالة جامعة الجامعة؛ وقد ضمن إخوان الصفا هذا المختصر الأخير كثيراً من الرموز والألغاز والتي صرحوا بوجوب قصر العلم بها على خواص أتباعهم، وحذروا من الكشف عن أسرارها للأغيار- أي لغير المنتمين إلى جماعتهم.

تشكلت هذه الجماعة سرياً في أواخر القرن الثالث أو القرن الرابع الهجري، التاسع أو العاشر الميلادي؛ واتخذوا من البصرة وطناً لهم، ربما لأن البصرة كانت تضم كثيراً من الشيعة والصوفية وأيضا كثيراً من الحركات الفكرية والمدارس الكلامية التي ساعدت بلا شك على ظهور هذه الجماعة، وعلى الرغم من شيوع الحرية الفكرية والانقسامات الدينية والطائفية بين الأمة؛ فإنهم لم يستطيعوا أن يعلنوا عن أنفسهم، فقد التزم إخوان الصفا بالسرية التامة في تكوين جماعتهم ونشر دعوتهم والعمل على تحقيق أهدافهم الدينية والسياسية.

في هذه الحقبة الزمنية التي مهدت لنشوء جماعة إخوان الصفا كانت كتب الفلسفة والمنطق والعلوم اليونانية قد ترجمت إلى اللغة العربية فقد بدأت الترجمة في القرن الثالث على عصر المأمون؛ وظلت تتوسع كذلك حتى القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي؛ ذلك القرن الذي نرجح أن إخوان الصفا قد شكلوا فيه جماعتهم. وكان هذا القرن يتميز بكثرة العلماء الموسوعيين وكثرة الفلاسفة وبظهور المدارس الفكرية المتعددة؛ ولسنا نعرف على وجه اليقين والدقة، بل ولا على أي وجه آخر،

حقيقة إخوان الصفا، فإنهم قد نجحوا في كتمان أمرهم وتنظيم حركتهم سرياً، كما أنه لا توجد أية إشارة في الرسائل يمكن أن يستفيد منها الباحث في التعرف على هويتهم على وجه اليقين أو التقريب؛ وقد اجتهد بعض الباحثين في التعرف على أشخاصهم، ولكن في غير طائل. فقد اقترح البعض على سبيل المثال أنه كان منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني الذي يسميه المستشرق "دي بور" محمدَ بن أحمد النهرجَوْري، والعوفي وزيد بن رفاعة.[1]

وهناك أسماء أخرى أثبَتَها بعض العلماء لإخوان الصفا لا يفيد عرضها هنا شيئاً في التعرف عليهم.[2]

قسم إخوان الصفا جماعتهم إلى أربع طبقات:

الطبقة الأولى: وتتكون من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة عشر وثلاثين، وهؤلاء يجب عليهم الانقياد لمرشديهم انقياداً تاماً.

الطبقة الثانية: وتشمل الرجال الذين هم في سن الثلاثين إلى الأربعين.

الطبقة الثالثة: وتضم الأتباع الذين تتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين، وهذه عندهم هي طبقة الأنبياء. ثم طبقة الرجال الذين نيفوا على الخمسين؛ وهؤلاء هم أهل الطبقة العليا الذين صاروا مؤهلين لشهود حقائق الأشياء على ما هي عليه كالملائكة المقربين وغير ذلك من عالم الروحانيات، ومقام هؤلاء عند إخوان الصفا يصل إلى وضع يكونون فيه فوق الطبيعة والشريعة والناموس.[3]

ومما يلاحظ أن إخوان الصفا لم يقبلوا في جماعتهم إلا الرجال حيث لا توجد إشارة واحدة إلى المرأة كعضو بالجماعة في رسائلهم كلها.

يرجع الفضل في التعريف بإخوان الصفا وإخضاع رسائلهم للنظر إلى الوزير صمصام الدولة ابن عضد الدولة الذي سأل أبا حيان التوحيدي أن يُعرّفه بهوية زيد

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة محمد عبد الهادي. القاهرة. التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧هـ/ ١٩٣٨م ص ١٠٠

(٢) انظر دائرة المعرف الإسلامية. مدخل إخوان الصفا. مقدمة د. طه حسين وأحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفا ط القاهرة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.

(٣) انظر الرسائل ٤/ ٥١ وما بعدها.

بن رفاعة الذي كان يتكلم بكلام غريب لا عهد للوزير به. وكان هذا السؤال هو مفتاح الدخول إلى عالم إخوان الصفا واكتشاف بعض ما فيه وإلى تقويم رسائلهم تقويماً علمياً؛ فقد انبرى التوحيدي يتكلم عنهم وعن رسائلهم في مجلس علمي برئاسة هذا الوزير العالِم صمصام الدولة، والذي كان يضم عدداً من العلماء؛ كما سنذكره في موضعه من هذا الكتاب تفصيلا.

قامت دعوة إخوان الصفا عل تراث الفِرق الباطنية السابقة عليها، وارتبطت عِرقياً بها، وكانت تعمل سراً تجنباً لأي صدامٍ مع السلطة الحاكمة؛ وقد أفادت في جلب الأعضاء لجماعتها من الانقسامات السياسية والصراع على السلطة، وبظهور النزعة الشعوبية في البيئة العربية. وقد أسست الجماعة منهجها في الدعوة على أصولٍ تربوية ودعويةٍ ونفسية أفادتها كثيراً في تشكيل نفسها وتحصين دعوتها وفرضِ سيطرتها على الجماعة، وكان إخوان الصفا متحررين إلى حدٍ أخرجهم عن بعض العقائد الإسلامية التي هي موضع الإجماع بين المسلمين، على سبيل المثال صلب السيد المسيح-عليه السلام-، ونبوته والقول بديانة عالية جامعة، وبعصمة الفلسفة اليونانية وجَعْلِها حَكَماً على الدين، وبصحة جميع الأديان؛ وهم يصرحون في رسائلهم بأنهم لا يتعصبون لمذهبٍ معينٍ ولا لعلم من العلوم بذاته، لأن مذهبهم يستغرق جميع المذاهب الحسية والعقلية مِن أولها إلى آخرها مما سيجده القارئ في ثنايا هذا الكتاب، وكذلك في المقدمة المهمة التي قدم بها الأستاذ الدكتور محمد أبو ليلة للموضوع، وفيها تتبع تاريخ ظهر الفكر الباطني وتطوره.

وقد أخذ إخوان الصفا علومهم ومعارفهم وطريقتهم في نشر دعوتهم من الفرق الباطنية القديمة، ومن علوم اليونانيين وفلسفتهم ومن مصادر أخرى إسلامية وغير إسلامية، ونظراً لتوسعهم في النقل عن أصحاب الديانات والمذاهب والآراء فإنهم توسعوا كذلك في تكوين مذهبهم بحيث لم يعد متقيداً بالأصول الإسلامية المجمع عليها بين علماء المسلمين مثل موقف الإسلام من النبوات ومن السحر وتأثير النجوم، وكذلك موقفه من المعجزات والبعث الجسماني والثواب والعقاب في الدار الآخرة، وغير ذلك مما وردت الإشارة إليه هنا، وذُكر بالتفصيل والتدليل في ثنايا هذا الكتاب.

دكتورة / نور شيف رفعت

تمهيد

أولا : البحوث والدراسات حول "إخوان الصفا" في اللغات الأوروبية

منذ أن اكتشفت رسائل إخوان الصفاء وهى محل دراسة العلماء والباحثين وعنايتهم، سواءً كان هؤلاء العلماء والباحثون عرباً أم مستشرقين؛ وقد سبق المستشرقون إلى تناول هذه الرسائل بالدراسة والتقويم، وسوف نقدم هنا ثبتاً تاريخياً لأهم هذه الدراسات والبحوث التي كتبت حول إخوان الصفا ورسائلهم، مراعين ما أمكن الترتيب الزمني لها مع التنويه بأهميتها، وبالجديد الذي تضيفه إلى هذا الموضوع.

ظهرت أول دراسة لرسائل إخوان الصفا باللغة الإنجليزية عام ١٨٣٧م، وهى للمستشرق "توماسون" "T. T. Tomason"، وقد تضمنت هذه الدراسة أجزاءً من رسائل إخوان الصفاء أعطاها المؤلف عنواناً هو "تحفة إخوان الصفاء" والتي تدور حول "تداعى الحيوانات على الإنسان عند ملك الجن"، وهى الرسالة الثانية والعشرون من رسائل إخوان الصفاء الحالية.[١]

وفى برلين بألمانيا نشر المستشرق "نوورك" "Nowork" ١٨٣٧م، خلاصةً وافيةً عن إخوان الصفاء ترجمها إلى الألمانية، وفي السنة نفسها التي نشرها توماسون باللغة الإنجليزية.

وفى عام ١٨٥٩م نشر "فلوجل" "Flügel" مقالاً بعنوان:

Flügel, G., Uber Inhalt und Verfasser der arabischen Encyclopadie Rasâ'il Ikhwan al-safa wa khillan al-wafa'. d. i die Abhandlungen der aufrichtigen Brüder und treuen Freunde, zeitschrift der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft 13 (1859) pp. 1- 43.

ونشر المستشرق "فردريك ديتريس" "Fredeireikh Dietricis" كتاباً بعنوان

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ١٧٨- ٣٠٦

"دراسة العرب للطبيعة والفلسفة الطبيعية في ضوء رسائل إخوان الصفاء" (برلين ١٨٦١م) أكّد فيه على الجوانب العلمية في الرسائل.

وفى عام ١٨٧٩م نشر هذا المستشرق الألماني كتابه الموسوعي "العلوم الفلسفية عند العرب"، وقد أصدر في برلين بحثاً عن إخوان الصفا اعتمد فيه على رسائلهم.

وفى عام ١٨٨٣م صدر في ليبزج أيضًا كتابٌ للمستشرق نفسه بعنوان "خلاصة الوفاء باختصار رسائل إخوان الصفاء في البصرة" نشرت فيما بعد مع مقدمة للدكتور طه حسين، وخلاصة تاريخية لأحمد زكى باشا اعتمد فيها الأخير على طبعات المستشرقين للرسائل وتعليقاتهم عليها.

ثم جاء المستشرق المجرى "جولدزيهر" "Goldziher"، فقدم بحثاً مختصراً عن إخوان الصفاء ورسائلهم عام ١٨٨٨م نشره بمدينة "هالى" "Halle" بألمانيا وكتب المستشرق نفسه مقالاً عام ١٩١٠م.

Goldziher, Ignaz, uber die Benennung der "Ichwan al-Safa", Der Islam. 1 (1910) pp. 22- 60.

وفى عام ١٨٩١م قدم "باربيت دى مينار" "Parbiet De Mei Nard" دراسةً تاريخيةً عنهم.

وفى عام ١٨٩٣م كتب "ستانلى لين بول" "S. Lane Poole" بحثاً مهماً عن "إخوان الصفا".

وفى العام نفسه نشر "ويمر" "Weimer" ترجمةً لبعض رسائل إخوان الصفاء مع مقدمةٍ تكلم فيها عن طبيعة فلسفتهم.

وفى عام ١٩٠٢م قدم المستشرق الإنجليزي "دى بوير" "De Boer" بحثاً عن رسائل إخوان الصفاء نشره في لندن، كما كتب "ماكدونالد" "Macdonald" بحثاً آخر عن الرسائل نشره في العام نفسه.

ثم جاء بعدهم "كازانوفا" "Casanova" فنشر دراسة مهمة عنهم في عام ١٩١٥م.

وفي قرينة دراسة المستشرق الفرنسي "ماسينون" "Massianon"عن الصوفية في الإسلام، وفلسفة الإمام الغزالي أشار إلى فلسفة إخوان الصفاء في الكتاب الذي نشره عام ١٩٢٩م، ثم عاد فنشر دراسة خاصة عنهم حاول فيها أن يضع تاريخاً

لرسائل إخوان الصفاء.

وفى العام نفسه قَدَّم كلٌّ من المستشرق الإنجليزي "تريتون" "A. S. Tritton"، الأستاذ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، والمستشرق "إيفانوف" "Ivanov" دراسةً عنهم.

وفى عام ١٩٣٦م نشر المستشرق الأسباني "إميليو جارثيا جوميز" "Em. Garcia Gomez" بحثاً عن إخوان الصفاء، وبحثاً آخر عن "جدل ابن حزم الأندلسي الديني" عام ١٩٣٦.(١)

كما نشر المستشرقين "سترن" و"نيكلسون" دراساتٍ عنهم، وقد نشر الأخير بحثه في عام ١٩٤١م في كامبردج بإنجلترا، وكتب "S. M. Stern"، دراسةً عن الرسائل أضافها إلى موسوعة دائرة المعارف الإسلامية في أكسفورد عام ١٩٤٦م.

وممن كتب في فلسفة إخوان الصفاء "ديساسي" "De Sacy"، و"ستانيسلاس جارد" "S. Guard"، وبوسني إليساندرو.

Bausani, Alessadro, Scientific Elements in 'Ismâ'ilî Thought: the Epistles of the Brethrens of Purity (Ikhwân al-Safa) in 'Ismâ'ilî contributions to Islamic Culture, Ed. By: Sayyed Hosssein Nasr (Tehran, Imperial Iranian Academy of Philosophy, 1966) pp. 123-140.

Diwald Susanne, Arabische Philosophie und Wissenschaft in der Enzyklopädie Kitab Ikhwân as-Safa (III): Die Leher von Seele und Intellekt (Wiesbaden, Otto, Harrassowitz, Lehre 1975).

واهتم "ويدن جرين" "Widengren" بدراسة تقنية أو طبيعة لغة المعرفة الروحية في رسائل إخوان الصفا،

The Gnostic Technical Language in the Rasâil Ikhwân al-Safâ.

"In Acts Do Congresso De Studas Arabes E. Islamic as coimber-alishaa 1968" (Leiden, E. J. Brill, 1971, pp. 181-203)

ونشر "إميل فاكينهم" "Fackenheim, Emil L." مقالاً عام ١٩٤٣م، بعنوان:

The Conception of Substance in the Philosophy of the Ikhwân as-Safa (Brethren of Purity) Medieval Studies (Toronto) 5 (1943) pp.115- 122.

---

(١) المستشرقون. نجيب العقيقى ٢ / ٢١٣- ٢١٤

وفي عام ١٩٤٥م صدر كتاب "Medieval Islam" للكاتب النمساوي "Gustave E. Von Grunebaum"؛ وقد ترجمه إلى العربية عبد العزيز توفيق، ونشر ضمن سلسة الأعمال الفكرية في مكتبة الأسرة عام ١٩٩٧م تحت عنوان "حضارة الإسلام". أشار الكاتب في عدة مواضع فى الكتاب إلى إخوان الصفا باعتبار مساهمتهم في المشروع الحضاري الإسلامي الكبير من الناحية الفكرية والفلسفية؛ وقد وردت أول إشارة في الكتاب عن مصنفات إخوان الصفا وموقفها من المصنفات الإسلامية في إطار منظومة العلوم الإسلامية[1]؛ ويتحدث الكاتب نفسه عن فلسفتهم فيربط بينهم وبين فرقة الإسماعيلية الذين بنوا تفكيرهم الطائفي على فلسفة الإشراق الأفلاطونية الحديثة.[2] وتعددت بعد ذلك الإشارة إليهم في أكثر من موضع.[3]

وفي عام ١٩٦٢م نشر فرانز روزنثيل "Franz Rosenthal" كتابه: The Classical Heritage in Islam؛ اعتمد فيه على رسائل إخوان الصفا[4]؛ وعلى كتاب الخوارزمي "مفاتيح العلوم" (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م القاهرة)، وعلى كتاب الفارابي "إحصاء العلوم" (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م القاهرة) وذلك في التأريخ للعلوم عند العرب، ولم يذكر روزنثيل في كتابه عن إخوان الصفا إلا فقرة تشتمل على ثلاثة أسطر، قال فيها: "إن الرسائل عبارة عن دائرة معارف ألّفها في القرن العاشر الميلادي مجموعة من العلماء سموا أنفسهم بإخوان الصفا".

From the Rasa'il Ikhwan as-Safa, an encyclopedia compiled in the tenth century by a group of scholars called themselves the "Faithful Friends".[5]

وقد أعد المستشرق الإنجليزي "إيان ريتشارد نيتون" "Ian Netton" رسالةً للدكتوراه في موضوع رسائل إخوان الصفا، وحصل عليها من قسم الدراسات الإسلامية والعربية من جامعة إكستر بإنجلترا عام ١٩٧٢م، وربما كانت هذه هى أول

---

(١) جرونيباوم. جوستاف فون. حضارة الإسلام. ترجمة عبد العزيز توفيق.الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٧م ص ٦٢

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧٤– ٢٧٦، ٢٨٨ .

(٤) نسخة القاهرة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م الجزء الأول صفحات ٢٠٢، ٢٠٤ .

(٥) ص ٥٥، ط لندن ونيويورك ١٩٧٥م.

رسالة جامعية تمنح في الغرب في هذا الموضوع. وبعد عشر سنوات من القراءة المتصلة في إخوان الصفا أصدر المستشرق نفسه كتابه "الأفلاطونية الإسلامية الحديثة" "Muslim Neoplatonists"، مقدمة في فكر إخوان الصفا ونشرها في لندن عام ١٩٨٢م، وسوف نقدم تقريراً مختصراً لهذا الكتاب بخاصة لأهميته.

يقع الكتاب في إحدى وست وأربعين صفحة (١٤٦)، من الحجم المتوسط.وفى تمهيده للكتاب يقرر البروفيسور نيتون بأنه بعد فترة هدوء، استمرت لبعض السنوات، بدأ الاهتمام حديثاً برسائل إخوان الصفا، وقد ظهر هذا الاهتمام جلياً بظهور عدد من المقالات في المجلات والدوريات المختلفة، وأيضاً في ظهور ثلاثة أعمال كبرى حول إخوان الصفا؛ هذه الأعمال كتبها ثلاثة مؤلفين أوروبيين باللغة الفرنسية، والألمانية، والإيطالي:

الأول: فلسفة إخوان الصفا لمؤلفه "يوفيس" "Yves Marquet":

"La Philosophie und Wissenschaft in der Enzyklopadie, (1975)"

وقد نشر "ماركويت" "Marquet" ثمانِ مقالاتٍ عن إخوان الصفا منذ عام ١٩٦١م. كما ساهم كذلك في دائرة المعارف الإسلامية الجديدة بمقالة عنهم وعن رسائلهم. وقد انتقد هذه المقالةَ بعنفٍ "بِلِسْنر" "M. Plessner"؛ أولاً: لعدم كفاية مصادر ماركو؛ وثانياً: لإهماله للدراسات السابقة عن إخوان الصفا، وبالذات الدراسات التي قام بها استرن "S. M. Stern" لرسائل إخوان الصفا كعمل على هامش التيار العام المعاصر لفرقة الإسماعيلية؛ ولكنه مما ينبغي أن يذكر أنّ هذه الرسائل نفسها لا تقدم ما يؤيد وجهة نظر استرن. ولا يفوتنا أن ننبه على أن استرن وماركو يتفقان على الرغم من ذلك في أن تاريخ وضع الرسائل يرجع إلى ما قبل عام ٩٨١م.

ومما يلاحظ أن جزءًا كبيراً من دراسة "ماركو" لإخوان الصفا ورسائلهم يُركز على صَابِئة حِرَّان. ويعتبر أهم ما قدمه المستشرق عن إخوان الصفا هو اطلاعه على كتاب "الأستوتاس" "Al-Ustutas"، وهو رسالة تأويلية اقتبس منها إخوان الصفا. ولحسن الحظ فقد نَجت هذه الرسالة من الضياع؛ وقد وَعَدَ "ماركو" بنشرها كعمل مستقل؛ ولكننا للأسف لم نستطع الاطلاع عليها. وتحتوي هذه الرسالة على مفهومٍ

إخوان الصفا على النموذج الفلكي، الذي يمثل مرور السبعة أدوار أو الألفيَّات، التي اهتبل بها الإخوان في رسائلهم؛ والتي يكون كل دور منها خاصًّا بنبي بعينه.

وقد أكد "ماركو" بأن هذه الرسالة تعود في الأصل إلى صَابِئة حرَّان.

Kitâb al-Ustutas, a hermitic treatise from which the Rasail quote and which survives independently. (1)

ويقرر سترن في النشرة النقدية لفلسفة إخوان الصفا بأنها تمثل "الفردوس الإسماعيلي"، وهذا يؤكد في حد ذاته أن الرسائل، وما تحتوى عليه من إشارات تاريخية لا تصلح للاعتماد عليها وحدها في تحديد تاريخ وضع هذه الرسائل، وهكذا فإنه لا يمكننا أن نستخلص تاريخ الرسائل من داخل نصوصها، ولعل هذا كان جزءًا من الخطة الكلية لواضعيها الذين حاولوا ألا يتركوا أيّ أثرٍ يدل على أشخاصهم والأماكن التي يتجمع فيها أعضاء جماعتهم وعصرهم.

والمقال الثاني لديوالد "Diwald"، بعنوان:

Arabicshe Philosophie und Wissenschaft in der Enzyklopadie Kitab Ihwan as-Safa (III): Die Lehre von Seele und Intellekt (1975).

والمقال الثالث لمؤلفه ألسّاندرو بوسانى بعنوان:

(Enciclopedia dei Fratille della purita (1978) by Allessandro Bausoni)

ويشير المستشرق البروفيسور نيتون إلى نقطة لها مغزاها تتصل بهذا الاهتمام النهضوى العالمى بدراسة فكر إخوان الصفا. يتجلى هذا الاهتمام في الندوة التي عقدت في يومي ٢٥، ٢٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٧٩م؛ وكان حول هذا الموضوع. وقد عُقِدَت هذه الندوةُ في رُوما في "بلازوكورسينى" تحت رعاية "قوندازيون أكاديمية تازينيل دي" من "Leone Caetani Lincei".وقد شارك نيتون في هذه الندوة ببحثٍ عن إخوان الصفا مع المستشرقين الثلاثة المشار إليهم توًّا.

ويقرر نيتون بأن كِتابه عن إخوان الصفا سيَجمع بين دفتيه خلاصةَ ما انْتهت إليه هذه الدراسةُ؛ كما أنه هو الأولَ من نوعه في اللغة الإنجليزية؛ ولم يفت هذا الكاتب أن يحيل في هذا الصدد إلى كتاب "سيد حسين نصر" الذي اقترب من سد

(1) See Marquet's article بدائرة المعارف الإسلامية De Dleu al-'homme, pp.IV. ff., (L'Imam et la societe 272 ff), Stern In Islamic Culture XX, 4, 1964, p 421.

هذه الثغرة؛ وذلك من خلال كتابه: An Introduction to Islamic Cosmological) Doctrines) (من إصدارات جامعة هارفارد ١٩٦٤)، وقد خصص سيد حسين نصر نحو ثلث الكتاب للحديث عن إخوان الصفا.

يقول نيتون إن إخوان الصفا معروفون للمثقف العربي بنفس الدرجة التي يعرف من خلالها المثقفون الأوربيون ديكارت وهيجل وأوجستين. ويحدد هذا المستشرق طبيعة كتابه هذا الذي بين أيدينا بقوله: "هذا الكتاب مقدمة فقط لفكر إخوان الصفا، ولا أدعى أنه دراسة شاملة لهم، وليس هو كذلك تغطيةً كاملة لكل وجه من وجوه معتقداتهم، ولكنه يهدف فقط إلى تعريف القارئ ببعض آرائهم". وهذا الكتاب، على الرغم من صغر حجمه، فإنه عظيم الفائدة؛ وهو مقدمةٌ لا غِنَى عنها في التعريف بإخوان الصفا، وفى اختراق عالَمِهم المجهول، ومعرفة كثيرٍ من فكرهم الغامض.

يضاف إلى ذلك ما نشره نيتون إلى جانب هذا الكتاب المهم وهو مقال مهم آخر بعنوان: "الأخوة مقابلة بالإمامية" Brotherhood versus Imamate.[1]

وفي هذه القرينة نرى أنه من المهم أن نشير إلى رأي الدكتور عمر الدسوقى في الدراسات الاستشراقية عن إخوان الصفا يقول إن المستشرقين الذين أبدوا اهتماماً بدراسة فكر إخوان الصفا انطلقوا في حالات كثيرة من مواقف مسبقة، أثرت بلا شك على الأحكام التي أصدروها على إخوان الصفا ورسائلهم. ويشير إلى المستشرق الفرنسي كازانوفا بوجه خاص الذي كتب أبحاثاً كثيرة عنهم تناولها الدكتور عمر الدسوقى بالدراسة والتحقيق، وبَيّن بالأدلة أن كثيراً منها يحتاج إلى المراجعة.[2]

---

(١) إخوان الصفا والإسماعيلية- القاهرة- دار نهضة مصر- ط٣، ص٤، دراسات القدس في اللغة العربية والإسلام (٢) ١٩٨٠م الصفحات رقم ٢٥٣- ٦٠ .

(٢) عمر الدسوقى. إخوان الصفا. دار نهضة مصر ط ٣، ص ٤.

ثانياً: الدراسات والكتابات العربية حول "إخوان الصفا"

في البداية نشير إلى المخطوط الذي ذكره صاحب هدية العارفين (١٨٤/١)، وبروكلمان (٨٥٠/٢) وهو بعنوان "إخوان الصَّفا وخِلَّان المروءة والوفا" للشبرواني أحمد بن علي بن إبراهيم الهمذاني (ت ١٢٥٦هـ)، ويقع المخطوط في ١٤١ ورقة على تسعة عشر سطراً من القطع (٢١,٥ × ١٥,٥)، ورقمها في مكتبة رفاعة الطهطاوي ١٥٠/ أدب؛ أول المخطوط: "الحمد لله يقول الشرواني هذه رسالة من إخوان الصفا، وخلان الوفا للشيخ ابن الجلدي، قد احتوت على فصول، يبتهج لما فيها اللبيب، ويستلذ بحلاوة معانيها الأديب...."؛ وآخرها: "عسى أن يتأمل المتأمل في هذه الرسالة، وينتبه من نوم الغفلة، ويتعظ من مواعظ الحيوانات وخطبهم، ويتأمل كلامهم وإشاراتهم، لعله يفوز بالموعظة الحسنة، تمت الرسالة.". ولظروف عملية لم نستطع أن نطلع على هذا المخطوط، غير أننا نرى أنه يدور حول رسالة تداعي الحيوان على الإنسان لإخوان الصفا مع تعليقات وشروح للمؤلف.

يتصدر اسم "أحمد زكى باشا" قائمةَ الكُتَّاب العرب الذين تَصَدَّوْا للكتابة عن إخوان الصفا؛ فقد كتب هذا العَلاّمة مقدمةً لرسائل إخوان الصفا ١٩٢٧م، لم يصل فيها إلى نتائج مرضية بوجه عام؛ كما أنه لم يلتزم في دراسته بالمنهج العلمي الصحيح. وعلى الرغم من أن أحمد زكى باشا قد قَدَّم معلوماتٍ مهمةً تفيدُ في البحث عن مؤلف الرسائل، فإنه قد أنكر وجودَ رسائل الحكيم المجريطي، لمجرد أنه لم يعثر عليها، ولم يجد أي إشارة إليها في ترجمة المجريطي.[1]

بعد ذلك ظهر بحث لمحمد كرد علي عن إخوان الصفا نُشر في مجلة المجمع العلمي بدمشق. وفى عام ١٩٢٨م كتب الدكتور طه حسين مقدمة لرسائل إخوان الصفا. وفى عام ١٩٤٥م كتب عمر فروخ دراسةً مطولة عنهم. يأتي بعد ذلك كتاب "إخوان الصفا" للأستاذ عمر الدسوقي الرئيس الأسبق لقسم الدراسات الأدبية

---

(١) انظر عمر الدسوقي: ٦٢، ٦٣، ٧٢.

بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.[1]

استشعر الدكتور الدسوقي قلة الدراسات التي قام بها العرب لرسائل إخوان الصفا، إذ يقول إنه "لا يزال تراثنا الإسلامي في حاجة ماسة إلى أن يدرس درسا منظماً، وتحقق موضوعاته بطرق البحث الحديثة، وتعقد بينه وبين الفكر الأوروبي موازنات تكشف عمَّا فيه من ثروة علمية وتبين مبلغ تأثر الغرب به، وسيره على مناهجه".

ويضيف: "وإخوان الصفا من هؤلاء المفكرين المسلمين الذين لم يكد يعنى بهم أحد من الْمُحْدَثِين من علماء الشرق العناية التي يستأهلونها، مع أنهم في الطليعة من حيث ثقافتهم الواسعة، وتبسيطهم لمعضلات الفلسفة، وتناول المسائل الفلسفية بفكر إسلامي يحاول المزج بين العقيدة والفلسفة، والتوفيق بينهما، حتى لا يتعارض الدين الذي آمنوا به وأحبوه بالفلسفة التي أغرموا بها ووجدوا فيها غذاءً لعقولهم. وقد تبعهم في هذا معظم من جاء بعدهم من فلاسفة المسلمين".[2]

وقد لاحظ الدكتور عمر الدسوقي بحقٍ أن للمستشرقين كتاباتٍ كثيرة حولهم، ولكن هذه الكتابات جاءت مصبوغةً بوجهات نظر مسبقة، وهي في معظمها تحتاج إلى مراجعة كما ذكرناه من قبل. ويشكو الكاتب من قلة عناية التربويين ومؤرخي التربية بدراسة رسائل إخوان الصفاء؛ فهم قد اكتفوا بتقديم إشارات عابرة عنهم، ولكنهم لم يتوقفوا عندها لدراستها، ولعقد الموازنة بينها وبين الآراء الحديثة في التربية. وقد اعتمد عمر الدسوقي على قراءة الرسائل قراءة نقدية لتحديد هوية مؤلف هذه الرسائل أو مؤلفيها، وطبيعة فلسفتهم وموقفهم من الدين، وأيضًا لتوضيح نزعتهم المذهبية أو الطائفية، فقد انتهى من دراسته إلى أن إخوان الصفا ينتمون إلى طائفة الإسماعيلية من الشيعة الباطنية.[3]

وهذه النتيجة يتفق عليها كثير من الباحثين، وتؤيدها نصوص الرسائل نفسها

---

(١) القاهرة. دار نهضة مصر. ط ١/ ١٩٤٥م، ط٢/ ١٩٤٧م، ط٣/١٩٧٣م.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣، ٤

(٣) المصدر نفسه: ٤ – ٦

كما أثبته الدكتور محمد أبو ليلة بالبراهين من مصادرهم، في مقدمة هذا الكتاب.

وفى عام ١٩٤٧م نشر الأب يوحنا الفاخوري دراسة عن هذه الجماعة، ثم جاءت بعد ذلك دراسات الأب نعمة الله العنداري، ومحمد لطفي جمعة، وعبد الحميد سامي بيومي، وسليم الجندي، والقِس سليمان صائغ، وقدري طوقان، ومحمد يونس الحسيني، وأديب عباس، ومحمد كامل حسين، وعبد الرسول الحبشي، وعبد الحميد مرسى، ومحمد الهاشمي، وعبد الحميد الدحيلي.

وقدم الدكتور حسين همذاني دراسةً عن "إخوان الصفا"؛ ثم جاء عبد اللطيف الطيباوى فنشر بحثاً في مجلة المركز الإسلامي بلندن (ج٢ رقم ١/ ١٩٥٥م، صفحات ٢٨- ٤٦)، وهذا البحث بعنوان:

A. L. Tibawi, Ikhwan As-Safā and their Rasa'il: A Critical Review of a Century and a half of Research, Islamic Quarterly, vol. 2, no 1, (1955) pp. 28- 46.

في هذا المقال قدم الطيباوي ثبتًا بأهم ما صدر عن إخوان الصفا من بحوث ودراسات على مدى قرن ونصف القرن مع تقويم نقدي لهذه الأعمال، ولعل الطيباوي قد أخذ إشارة الدكتور عمر الدسوقي بشأن ضرورة دراسة الآراء التربوية لإخوان الصفا مأخذ الجد، فقد نشر بحثاً في المجلة المشار إليها نفسها (ج٥ عدد رقم ١- ٢، ١٩٥٩م، ص ٥٥- ٦٠) بعنوان "بعض المصطلحات التربوية في رسائل إخوان الصفاء".

A. L. Tibawi, Some Educational Terms in Rasa'il Ihkwan as-Safa, Islamic Quarterly , vol. 5, No.s 1- 2 (1959) pp. 55- 60.

وقد ألف عارف تامر كتاباً عن إخوان الصفا وعنوانه- نصوص ودروس: حقيقة إخوان الصفا وخلان الوفا.[1] ويقع هذا الكتاب في خمسين صفحة من الحجم فوق المتوسط؛ جمع فيه العديد من النصوص المهمة التي تعين على فهم هوية إخوان الصفا. في البداية يقول عنهم: "إنهم لُغز مبهم في التاريخ الإسلامي صعب حله، وسر من أسرار العقائد الباطنية الفلسفية تعسَّر فهمه، وكنز مقفل لم يتسن للعلماء والباحثين الاهتداء إلى نفائسه وجواهره، وموضوع معقد تضاربت الأقوال فيه،

---

(١) الطبعة الثانية – بيروت– المطبعة الكاثوليكية– ١٩٦٦

وتشعبت الأبحاث حوله فأصبح مثاراً للجدل والتخمين وسبباً للتخبط".[1]

وقد انصبت دراسة الكاتب على إثبات الهوية الإسماعيلية لإخوان الصفا، وعلى "أن فلسفتهم في الحقيقة هي الفلسفة الإسماعيلية التي بذر بذورها إخوان الصفا، ثم نمت بعدئذٍ وترعرعت وبرزت أخيراً في مصر بعد جهاد طويل وعسير لتصبح نواة لتعاليم، ودستوراً لدولة إسلامية عظيمة (الدولة الفاطمية التي انتشرت رسالتها في كل مكان........)".[2]

ويعتبر عارف تامر أن ما كتبه طه حسين وزكي باشا وفرّوخ وغيرهم لم يزد موضوع إخوان الصفا إلا بعداً وتعقيداً.[3] ويقول إن إخوان الصفا قد تكهنوا بما سوف يتقول الناس به عليهم بعد ألف عام؛ إذ يقولون في الرسالة الجامعة [4]: "وقد قلنا لك في رسالة كيفية الدعوة إن لنا كتبا لا يقف على قراءتها غيرنا ولا يطلع على حقائقها سوانا، ولا يعلمها الناس إلا من قِبَلِنا ولا يتعلم قراءتها إلا من علّمناه، ولا يعرف صور حروفها إلا من عرّفناه"[5] ويرى كذلك أن إخوان الصفا "هم أول من وضع الفلسفة الإسماعيلية وركز دعائمها".[6]

وقد أورد أقوال المستشرقين في تمجيد الإسماعيلية، فعلى سبيل المثال ما نقله عن المستشرق كازانوفا:"أؤكد أن آراء الإسماعيلية موجودة كلها في رسائل إخوان الصفا".

وقال ديفروميري M. C. Defromery: "إن سنان بن سليمان الملقب براشد الدين قد تناول علوم الفلسفة، وأطال نظره في كتب الجدل والخلاف، وأكَبّ على مطالعة رسائل إخوان الصفا".

وقال ماكدونلد: "يجب أن نكون على ذكْرٍ من أن الإسماعيليين لم يكونوا

---

(١) الرسالة الجامعة. تحقيق مصطفى غالب ص ٧

(٢) المصدر نفسه :ص ٨

(٣) المصدر نفسه: ص ٩

(٤) الرسائل: ٢ / ٣٧١

(٥) الرسالة الجامعة ص ٩

(٦) المصدر نفسه ص ٩

عصابات من اللصوص تنشر الرعب بأساليبها الشنيعة، ولكن كلا الفرعين الشرقي والغربي قد عكف على العلم وربما وجد في حصونهم الجبلية أشد أنواع الفناء في طلب العلم الصحيح، وحينما استولى المغولُ على قلعة "الموت" وجدوها غنية برسائل إخوان الصفا".(١)

ويقول الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي: "لا أراني إلا مصيباً في القول بأن فلسفة الإسماعيلية جميعها مبثوثة في رسائل إخوان الصفا؛ "فالقول بالإمام المستور الذي سوف يظهر ليعيد السلام إلى العالم هذا القول عندهم يمثل امتزاج النظريات الأفلاطونية بالاعتقاد بالمجيء الثاني للمسيح"، وعليه فمن الجور في الحكم أن يُرمى الإسماعيليون بالكفر والانحطاط الأخلاقي كما جاء في فتوى ابن تيمية".(٢)

وقد نشر عامر تامر "رسالة جامعة الجامعة لإخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء" محققةً، مع مقدمة من ثمانٍ وخمسين صفحة، ومقدمة عارف تامر شاملة وعميقة في الوقت نفسه، وقد أفدنا منها في دراساتنا هذه.

وفى ١٩٥٨م نشر الكاتب نفسه بحثاً بعنوان "حقيقة إخوان الصفاء وخلان الوفاء"، صدر ضمن منشورات المطبعة الكاثوليكية ببيروت.

وفى عام ١٩٦١م صدر كتاب إخوان الصفاء للدكتور جبور عبد النور ضمن سلسلة الفكر العربي (رقم ٧) التي تصدرها دار المعارف بمصر.

وقد ركز هذا الكاتب على طبيعة دعوة إخوان الصفاء، وطريقتهم في الدعوة؛ وركز كذلك على النزعة الباطنية عندهم، كما تناول بالدراسة الأهداف السياسية التي كانوا يتذرعون بها، ويسعون لتحقيقها؛ والذي لفت نظرنا في هذا الكتاب هو تركيز الكاتب على ما أسماه "معالم الوثنية في مذهبهم" أي مذهب إخوان الصفا ويشمل الصفحات ٨٥- ٩٨.

وفى العام نفسه نشر الدكتور محمد غلاب بحثاً عن إخوان الصفا في مجلة المشرق، كما نشر الأب يوحنا قامير بحثاً عنهم في العام نفسه.

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٩

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦، وانظر فتاوى ابن تيمية ١/ ٧٥- ٧٦

وكل هذه الدراسات يكمل بعضها البعض الآخر، ولا يخلو كاتب من كُتّابها من إضافة شيء جديد إلى حقل الدراسات الإخوانية.

ومن الكتب التي صدرت حديثاً عن إخوان الصفا كتاب "إخوان الصفا: رواد التنوير في الفكر العربي" تأليف الدكتور محمود إسماعيل، صدر عن دار قباء بالقاهرة عام ١٩٩٨م. يقع الكتاب في ١٥٢ صفحة، من القطع المتوسط؛ ويشتمل على مقدمة وتمهيد وثمانية مباحث وخاتمة وملاحق، والعناوين التي اختارها الكاتب لمحتويات الكتاب هي: مفهوم التنوير، الخلفية التاريخية، نشأة جماعة إخوان الصفا، الانتماء الطبقي والهوية المذهبية، الدعوة السرية، إشكالية المنهج ونظرية المعرفة، النسق الفلسفي، الإلهيات والطبيعيات، الفكر السياسي والاجتماعي والأخلاق، وأخيراً الملاحق وهي نصوص يطلق الكاتب عليها نصوصٌ في التنوير، وهي عبارة عن نصوص اقتبسها من الرسائل نفسها؛ ويبدو أن الكاتب أصر على أن يضع إخوان الصفا في غير عصرهم وأن يلتقط من دعوتهم ما يؤيد به دعوى التنوير، وربط هذا التنوير بالتحلل من القيم الدينية.

ومفهوم التنوير كما يُعَرِّفُه الكاتبُ، لم يكن في فكر إخوان الصفا وهم يكتبون رسائلهم؛ وكما يُلاحَظ من التمهيد الذي قَدَّمه الكاتبُ، فإن كلمة "تنوير" مصطلحٌ أوروبي غربي، انتقل إلى العالَم العربي خلال القرن التاسع عشر. وعلى أي حال فإن كتاب محمود إسماعيل مع كتبه الأخرى في هذا المجال لم تقدّم جديداً يُذكر، اللهم إلا في الشكل أو الصياغة؛ ومن الواضح أن الكاتب قد حاول عبثاً أن يؤصّل للعلمانية في التراث الإسلامي، على حين أن المفهوم الحديث للعلمانية لم يكن معروفاً على عصر إخوان الصفا. يؤيد هذا اعتماده على بعض الكتب التي تسير في هذا الاتجاه المتعرج، مثل كتب أحمد صبحي "فلسفة الأخلاق في الفكر الإسلامي"، وأدونيس "الثابت والمتحول"؛ السيد ياسين "التحليل الاجتماعي في الأدب" وهكذا.

ومع هذا فإن الكتاب يحتوي على بعض نقاط جديرة بالاعتبار. ولكن الكاتب في مواضع كثيرة ترك للقارئ أن يجتهد بنفسه في فهم النصوص التي اقتبسها من الرسائل، وهذا مما يؤخذ على الكتاب.

المبحث الأول

إخوان الصفاء وفلسفتهم في إطار عصرهم

قبل أن نتكلم عن فلسفة إخوان الصفا في قرينة عصرهم نرى أنه من الضروري أن نذكر أن اسم "إخوان الصفاء" قد شاع وعُرِف على الرغم من الغموض الذي يحيط بهذه الجماعة المتجانسة فكرياً إلى حد كبير والتي أطلقت على نفسها اسم "إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء"، وهذا الاسم في حد ذاته يحمل معنى صوفياً وأخلاقياً، ومما ينبغي معرفته أن اسم "إخوان الصفاء" لم يكن من ابتكار الجماعة ولكنهم فقط أطلقوه على أنفسهم لملاءمته لميولهم ومذهبهم، فقد ورد هذا الاسم "إخوان الصفاء" في أشعار قديمة، منها شعر الأوس بن حجر الذي يندد فيه بطفيل بن مالك والد عامر بن طفيل؛ كما وردت هذه العبارة في قصيدة لأبى حناك البراء بن ربعي الفقعسى من شعراء الحماسة[(١)].

وورد الاسم بهذه الصيغة في كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع باب "الحمامة المطوقة"؛ ومن الثابت أن إخوان الصفاء قد اطلعوا على هذا الكتاب الأخير وأفادوا منه[(٢)]، وربما اقتبسوا منه هذا الاسم أو من شعراء الجاهلية وأطلقوه على جماعتهم.

ويتردد اسم "إخوان الصفا وخلان الوفاء" كثيراً في ثنايا رسائلهم بهذا اللفظ، أو بلفظ إخواننا؛ ولكنهم حرصوا دائماً ألا يعطوا أي معلومات تكشف اللثام عن هوية أعضاء جماعتهم.

ومن الأمثلة على ذلك قولهم: "الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، اعلم أيها الأخ البار الرحيم، بأنه لما كان من مذهب إخواننا الكرام، أيدهم الله، النظر في جميع علوم الموجودات التي في العالم، من الجواهر والأعراض والبسائط والمجردات والمفردات، والمركبات، والبحث عن مباديها، وعن كمية أجناسها وأنواعها وخواصها، وعن ترتيبها ونظامها، على ما هى عليه الآن، وعن كيفية حدوثها،

---

(١) انظر نقائض جرير والفرزدق ليدن ط١، ١/٣٨٦، وديوان الحماسة لأبي تمام. القاهرة. السعادة. ١٩٢٧، ١/ ٣٥١

(٢) الرسائل ١ / ٦٢– ٦٣.

ونشوئها عن علة واحدة، ومبدأ واحد، من مبدع واحد، جل جلاله..."[1]

وهم يضيفون إلى اسم الجماعة "إخوان الصفاء وخلان الوفاء" بعض العبارات الموحية الأخرى، مثل "الربانيين"، كما جاء في الرسالة الثالثة من العلوم الناموسية، والشرعية في بيان اعتقاد "إخوان الصفاء ومذهب الربانيين"، و"إخوان الصفاء وخلان الوفاء وأهل العدل وأبناء الحمد".[2]

ولا ينبغي أن تفوتنا ملاحظة أن إخوان الصفا يوجهون خطابهم دائماً إلى من مدعويهم بهذه العبارات الرقيقة: "اعلم أيها الأخ أيدك الله وإيانا بروح منه" أو "اعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروح منه" مما مهد لهم الطريق إلى قلوب العامة وبعض الخاصة؛ وع ذلك فإن هذه الجماعة لم يكن لها نشاط معلن ذا تأثير يمكن أن يشكل منحى سياسياً بارزاً يرقى إلى مستوى الظاهرة التي يمكن دراستها وتتبع آثارها في المجتمع.

---

(١) المصدر نفسه ١ /٤٨

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢١، ٤٧، وانظر أيضاً ١٤/٤

أول دراسة نقدية عن إخوان الصفا

أول تعريف بإخوان الصفا وأول تقويم نقدي لرسائلهم يصل إلينا من خارج دائرتهم هو ما ذكره أبو حيان التوحيدي في كتاب "الإمتاع والمؤانسة" فيما نرجحه في منتصف القرن الرابع الهجري، وهو الوقت الذي كُتبت فيه الرسائل أو معظمها تقريباً؛ وعُرفت على الأقل بين العلماء الموسوعيين المعنيين بالمقالات والآراء كأبي حيان التوحيدي المشار إليه.

ومن الواضح أن أبا حيان لم يقصد إلى الكتابة عن إخوان الصفا بصفة خاصة؛ وإنما جاء كلامه عنهم في صدد الإجابة عن سؤال وَجَّهه إليه أحد الوزراء النبهاء في مجلس أدبي ضم كبار علماء عصره.

سأل الوزير المفكر أبا حيان عن رجل يسمى زيد بن رفاعة، قائلاً: "إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً ومذهباً لا عهد لي به، وكنايةً عما لا أحُقُّه، وإشارةً إلى ما لا يُتوضَّح شيء منه، يَذكر الحروفَ، ويَذكر النقَط، ويزعم أن الباء لم تُنقط من تحتٍ وَاحدةً إلا بسبب، والتاء لم تُنقط من فوقٍ اثنتين إلا لِعِلَّة، والألف لم تُعَرَّ إلا لِغَرض، وأشباه هذا، وأشهر منه في عرض ذلك دعوى يتعاظم بها ويَتَنَفج بذكرها، فما حديثه وما شأنه..."[1]

وما ورد في هذا النص بشأن الحروف صحيحٌ، وهو موجود في رسائل إخوان الصفا.[2] وقد أشاد الكندي بالكتابة العربية لأنها من وجهة نظره تحتفل أكثر من غيرها من الكتابات في تحليل الحروف وتدقيقها.[3]

وقبل أن نعرض لإجابة أبي حيان التوحيدي، نجد من المفيد أن نلفت النظر إلى أن هذا الوزير كان يَعْرف زيد بن رفاعة حق المعرفة، ولم يكن لزيد بن رفاعة حتى هذا الوقت أي انتماء إلى جماعة أو إلى طائفة بعينها؛ وذلك بدليل أن الوزير، وهو الذي كان يجتمع عنده العلماء يتناقشون ويتحاورون، لم يلاحظ عليه أي تغير،

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٤/٢

(٢) انظر الرسائل ١٤٣/٣ وما بعدها.

(٣) انظر جولدزيهر – العقيدة والشريعة في الإسلام- ١٩٦٤ ص ٣٣٩.

على الرغم من معرفته الطويلة به، إلا في هذا الوقت الذي سأل فيه أبا حيان بالذات، يؤكد هذا التَّغيُّرَ المفاجئَ في سلوك ابن رفاعة قولُ الوزير: "... وأشهر منه في عرض ذلك دعوى يتعاظم بها، ويَتَنَفج بذكرها" أي يفتخر بها وهو عريّ عنها.

وهذا الكلام، وإن كان مهماً في تحديد هوية زيد بن رفاعة، فإنه لا يكفي وحده في القطع بأنه كان من أعضاء الجماعة، أو ضمن كُتَّاب رسائل إخوان الصفا، وإلا لعرف ذلك الوزير ومن كان يحضر مجلسه من العلماء والمفكرين. هذا مع القطع بأن ما أسنده الوزير إلى رفاعة من الكلام في تفسير شكل الحروف العربية صحيح النسبة إلى كُتَّاب الرسائل، وهو موجود ضمن الرسالة السابعة عشرة في علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات في الجزء الثالث من الرسائل الصادرة عن دار صادر ببيروت في الصفحات ٨٤- ١٤٧.

ومما يؤكد انتماء زيد بن رفاعة إلى جماعة إخوان الصفا أن أبا حيان على الرغم من تمجيده له بالذكاء الغالب والذهن الوقاد واليقظة الحاضرة وبالتوسع في فنون النظم والنثر والحساب والبلاغة وفي التاريخ والمقالات والآراء والديانات. يقول عنه إنه "لا ينسب إلى شيء، ولا يُعرف برهط (جماعة) لجيشانه بكل شيء، وغليانه في كل باب"؛ وهذا الكلام واضح في أن زيداً لم يكن له مذهب فكري أو طائفي محدد، ولكنه كان واسع الأفق، متعدد المواهب يجيد الكلام في كل فنٍ فحسب.

ويمضي أبو حيان ليخبرنا بأن زيداً كان قد تعرف على "جماعة" بالبصرة، وصفها بأنها "جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة"، عَدَّ منهم أبو حيان: أبا سليمان محمد بن معشر البِسْتِيّ، وكان معروفاً بالمقدسي؛ وأبا الحسن على بن هارون الزَّنجاني؛ وأبا أحمد المهرجاني؛ والعوفي وغيرهم؛ فصحبهم وخدمهم."[1] ولسنا ندري على سبيل القطع، عما إذا كان زيد بن رفاعة قد انضم إلى جماعة إخوان الصفا انضماماً معرفياً فلسفياً، أم انضماماً طائفياً مذهبياً، أم هما معاً.

وأياً كان الأمر فإن أبا حيانٍ يصف إخوانَ الصفا بقوله: "وكانت هذه العصابة

---

(١) الإمتاع ٢/٥.

قد تآلفت بالعِشْرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القُدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به [الطريق] إلى الفوز برضوان الله، والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنست بالجهالات، واخْتَلَطت بالضلالات؛ ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال؛ وصنفوا خمسين رسالةً في جميع أجزاء الفلسفة: عِلْمِيِّها وعَمَلِيِّها، وأفردوا لها فِهْرستاً وسموها: **رسائل إخوان الصفاء وخِلاّن الوفاء**، وكتموا أسماءهم، وبَثُّوها في الورّاقين، ولقّنوها للناس، وادعوا أنّهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله عز وجل وطلب رضوانه، ليخلّصوا الناس من الآراء الفاسدة التي تضر الناس، والعقائد الخبيثة التي تضر أصحابَها، والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلُها؛ وحَشَوْا هذه الرسائل بالكلِم الدينية والأمثال الشرعية والحروف المُحْتَمَلَة، والطرق الوهمية".[1]

أما عن الرسائل فيخبرنا أبو حيان بأنه لم يقرأها كلها؛ بل قرأ جملةً منها، ويصفها لنا أدق وصف بقوله: "وهي مبثوثة من كل فن، نتفاً بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات؛ وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها".

ويذكر صاحب الإمتاع والمؤانسة بأنه عَرَض عدة من هذه الرسائل على شيخه أبي سليمان المنطقي السجستاني، لإبداء الرأي فيها فبقيت معه أياماً، واختبرها طويلاً؛ ثم ردها إليه مشفوعةً برأيه فيها، قال: "تَعِبُوا وما أَغْنوا، ونَصَبُوا (تعبوا) وما أَجَدُّوا (أفادا)، وحَامُوا (حَلَّقوا حول الشيء) وما وَرَدُوا (وصلوا)، وغَنُّوا وما أَطْرَبوا، ونَسَجُوا فَهَلْهَلُوا (مزقوا ما نسجوه)، ومَشَّطُوا فَفَلْفَلُوا (أي جعلوا الشعر جعداً)، ظَنُّوا ما لا يكون ولا يُمكن ولا يُسْتَطَاع؛ ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة- التي هي علم النجوم والأفلاك والمجسطي والمقادير وآثار الطبيعة- وأن يضموا الشريعة للفلسفة، وهذا مرامٌ (غرض) دونه حَدَد (أي موانع وحدود)، وقد

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٥

توفر على هذا، قبل هؤلاء، قومٌ كانوا أحَدَّ أنياباً، وأخْضَرَ أسباباً (يعني أقوى عقولاً)، وأرْفَعَ أخطاراً (مكانة)، وأوسع قُوَى (مدارك وأفهاماً)، وأوثق عُرًا (أشد ثباتاً وأوفر إنتاجاً)، فلم يَتِم لَهم ما أرَادُوه، ولا بَلَغُوا منه ما أمَّلُوه، وحَصَلُوا على لوثات (حماقات قبيحة) ولطخات (مساوئ) فاضحة، وألقاب مُوحِشة، وعواقب مُخْزِية، وأوزار (ذنوب وهموم) مُثقِلة."[1]

يشير أبو حيان التوحيدي هنا إلى بعض فلاسفة المسلمين الذين حاولوا أن يوفقوا بين الدين والفلسفة، غير أننا لا نستطيع أن نفصل في هذا الموضوع، أعني موضوع فلاسفة التوفيق بين الدين والفلسفة، وهؤلاء الفلاسفة الذين عناهم أبو حيان على وجه التحديد، وقد تكلم في هذا الموضوع الدكتور أبو ليلة في مقدمته لهذا الكتاب. وسوف أن نحدد مجالنا هنا بكلام أبي حيان الذي يعطي تمثيلاً كافياً لمحاولة التوفيق أو التلفيق بين الفلسفة والشريعة، وفي الوقت نفسه فإن هذا الرد يعتبر من الردود المبكرة على إخوان الصفا.

يقول صاحب الإمتاع والمؤانسة في التعليل لِحُكمه على إخوان الصفا، وفي الرد على سؤال وَجَّهه إليه البخاري أبو العباس من معاصريه من العلماء: "إن الشريعة مأخوذة عن الله -عز وجل- بوساطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، على ما يوجبه العقل تارةً، ويُجَوّزه تارةً، لمصالحَ عامةٍ متقنة، ومراشد تامةٍ مبينة؛ وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه، والغوص فيه؛ ولا بد من التسليم للداعي إليه، والمنبه عليه؛ وهناك يَسقطُ (لِمَ)، ويبطل (كيف)، ويزول (هَلاّ)، ويذهب (لو) و(ليت) في الريح، لأن هذه المواد عنها محسومة، واعتراضات المعترضين عليها مردودة، وارتياب المرتابين فيها ضارّ، وسكون الساكنين إليها نافع؛ وجملتها مشتملة على الخير، وتفصيلها موصول بها على حسن التقبل، وهي متداولة بين متعلّقٍ بظاهر مكشوف، ومحتجٍّ بتأويل معروف؛ وناصر باللغة الشائعة، وحامٍ بالجدلِ المبينِ، وذابٍّ بالعمل الصالح، وضاربٍ للمثل السائر، وراجعٍ إلى البرهان الواضح، ومتفقهٍ في الحلال والحرام، ومستندٍ إلى الأثر والخبر المشهورين بين أهل الملة، وراجعٍ إلى اتفاق الأمة. وأساسها

---

(١) المصدر نفسه : ٢/ ٥ – ٦

على الورع والتقوى، ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزلفى. ليس فيها حديث المنجِّم في تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك ومقادير الأجرام ومَطالِع الطوالع ومغارب المغارب. ولا حديثُ تشاؤُمها وتَيَامُنِها، وهبوطها وصعودها، ونحسها وسعدها، وظهورها واستسرارها، ورجوعها واستقامتها، وتربيعها وتثليثها، وتسديسها ومقارنتها.

ولا حديثُ صاحب الطبيعة الناظر في آثارها، وأشكال الأُسْطُقُسَّات، بثبوتها وافتراقها، وتصريفها في الأقاليم والمعادن والأبدان، وما يتعلق بالحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة؛ وما الفاعل وما المنفعل منها؛ وكيف تمازُجِها وتزاوجها، وكيف تنافرها وتسايرها؛ وإلى أين تسري قُوَاها، وعلى أي شيء يقف منتهاها.

ولا فيها حديثُ المهندس الباحث عن مقادير الأشياء ونُقَطها وخطوطها وسُطوحها وأجسامها وأضلاعها وزواياها ومقاطعها، وما الكُرة؟ وما الدائرة؟ وما المستقيم؟ وما المنحنى؟

ولا فيها حديثُ المنطقيّ الباحث عن مراتب الأقوال، ومناسب الأسماء والحروف والأفعال؛ وكيف ارتباط بعضها ببعض على موضوع رجل من يونان حتى يَصحّ بزعمه الصدق، ويُنبذَ الكذب.

وصاحب المنطق يرى أن الطبيب والمنجِّم والمهندس وكل من فاه بلفظٍ وأمَّ غرضاً فقراء إليه، محتاجون إلى ما في يديه.

قال: فعلى هذا كيف يَسُوغ لإخوان الصفاء أن يُنصِّبوا من تلقاء أنفسهم دعوةً تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة؟

على أن وراء هذه الطوائف جماعة أيضاً لهم مآخذ من هذه الأغراض، كصاحب العزيمة وصاحب الطِّلَّسَم وعابر الرؤيا ومدّعي السحر وصاحب الكيمياء ومستعمل الوهم.

قال: ولو كانت (أي الفلسفة) جائزةً وممكنةً لكان الله تعالى نبَّه عليها، وكان صاحب الشريعة يُقوِّم شريعته بها، ويُكمِّلها باستعمالها، ويتلافى نقصها بهذه الزيادة التي يجدها في غيرها، أو يحض المتفلسفين على إيضاحها بها ويتقدم إليهم بإتمامها، ويفرض عليهم القيام بكل ما يذب به عنها حسب طاقتهم فيها، ولم يفعل ذلك بنفسه، ولا وَكَلَه إلى غيره من خلفائه والقائمين على دينه؛ بل نهى عن الخوض

في هذه الأشياء، وكرَّه إلى الناس ذكرها، وتوعدهم عليها، وقال: من أتى عَرّافاً أو طارقاً أو حازياً[1] أو كاهناً أو منجِّماً يطلب غيب الله منه فقد حارب الله، ومن حارب الله حُرِب، ومن غالبه غُلِب، حتى قال: "لو أن الله حَبَس عن الناس القَطر سبع سنين ثم أرسله لأصبحت طائفة به كافرين". ويقولون: مُطِرنا بنوْء الْمِجْدح، فهذا كما ترى، والمجدح: الدَّبَران.

ثم قال: ولقد اختلفت الأمةُ ضُروباً من الاختلاف في الأصول والفروع، وتنازعوا فيها فنوناً من التنازع في الواضح والْمُشكل من الأحكام، والحلال والحرام، والتفسير والتأويل، والعيان والخبر، والعادة والاصطلاح؛ فما فزعوا في شيء من ذلك إلى منجّم ولا طبيبٍ ولا منطقيٍّ ولا مهندسٍ ولا موسيقيٍّ ولا صاحب عزيمةٍ وشعبذة وسحر وكيمياء، لأن الله تعالى تمَّم الدينَ بنبيه ﷺ، ولم يحوجه بعد البيان الوارد بالوحي إلى بيانٍ موضوعٍ بالرأي.

قالَ: وكما لَم نجد في هذه الأمة مَن يَفزع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها، فكذلك أمة عيسى عليه السلام وهي النصارى، وكذلك المجوس.

قال: ومما يزيدك وضوحاً ويُريكَ عجباً أن الأمة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافاً فيها وفِرقاً؛ كالمرجئة والمعتزلة والشيعة والسُّنّية والخوارج، فما فزعت طائفةٌ من هذه الطوائف إلى الفلاسفة، ولا حقّقت مقالتها بشواهدهم وشهادتهم، ولا اشتغلت بطريقتهم، ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربّها وأثر نَبيّها.

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام من الحلال والحرام منذ أيام الصدر الأول إلى يومنا هذا لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة فاستنصروهم، ولا قالوا لهم: أعينونا بما عندكم، واشْهَدوا لنا أو علينا بما قِبَلَكُم (أي لديكم من الفلسفة).

قال: فأين الدين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل، من الشيء

---

(١) الحازي: هو الذي ينظر في الأعضاء، وفي خيلان الوجه يتكهن؛ والحازي هو الذي يزجر الطير، ويقال لخارص النخل حازٍ؛ والحازي من ينظر في النجوم وأحكامها بظنه وتقديره، فربما أصاب وربما أخطأ؛ والحازي والحزاء الذي يحزر الأشياء ويقدرها بظنه. وفي الحديث: "كان لفرعون حازٍ"، أي كاهن. (لسان العرب: ١٤/٢٤

المأخوذ بالرأي الزائل؟

فإذا أَدَلُّوا بالعقل، فالعقل موهبة من الله عز وجل لكل عبد، ولكن بِقدْر ما يُدرك به ما يعلوه، كما لا يَخفى به ما يتلوه، وليس كذلك الوحي، فإنه على نوره المنتشِر، وبيانه الْمُيَسَّر.

قال: وبالجملة، النبيُّ فوق الفيلسوف، والفيلسوف دون النبي؛ وعلى الفيلسوف أن يتبع النبي، وليس على النبي أن يتبع الفيلسوف، لأن النبي مبعوث، والفيلسوف مبعوث إليه.

قال: ولو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء، على أن منازل الناس متفاوتةٌ في العقل، وأنصباؤهم مُختلفةٌ فيه؛ فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل كيف كنا نصنع، وليس العقل بأسره لواحدٍ منا، وإنّما هو لِجميع الناس، فإن قال قائلٌ بالعبث والجهل: كلُّ عاقلٍ موكول إلى قدر عقله، وليس عليه أن يستفيد الزيادة من غيره، لأنه مكفيٌّ به، وغير مطالب بما زاد عليه."[1]

اعترض البخاري أبو العباس على أن درجات النبوة قد اختلفت بالوحي، فإذا كان هذا الاختلاف في الوحي مقبولاً ومستساغاً وغير قادح فيه، كان من المقبول والمستساغ أيضاً في الاختلاف من جهة العقل، ولم يكن قادحاً فيه.

وجاء رد صاحب الإمتاع والمؤانسة عليه حاسماً: "يا هذا، اختلافُ درجات أصحاب الوحي لم يُخرجهم عن الثقة والطمأنينة بمن اصطفاهم بالوحي، وخصهم بالمناجاة، واجتباهم للرسالة، وأكملهم بما ألبسهم من شعار النبوة؛ وهذه الثقة والطمأنينة مفقودتان في الناظرين بالعقول المختلفة، لأنهم على بُعدٍ من الثقة والطمأنينة إلا في الشيء القليل والنَّزر اليسير؛ وعَوارُ هذا الكلامِ ظاهرٌ، وخطَلُ (زلل) هذا المتكلم بَيِّنٌ."[2]

ونضيف هنا أن الأنبياء الذين جاءوا بالوحي من عند ربهم لَم يختلفوا ألبتة في الأصول وكثير من الفروع، ولم يعترض أحدهم على الآخر، أو أنكر ما جاء به؛ بل لقد

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٦ – ١٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١٠– ١١.

تكاملوا واجتمعوا على تمام البناء الواحد.

وفي التدليل على أن طبيعة عمل الفلسفة في النفوس، وفي محاولة التوفيق بينها وبين الشريعة، يقول المقدسي وهو كما أشرنا إليه من شخصيات الإمتاع والمؤانسة: "الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يُطِبّون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرضُ بالعافية فقط. فأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرضٌ أصلاً، فبين مدبّرِ المريض ومدبّر الصحيح فرقٌ ظاهر وأمر مكشوف، لأن غاية مدبِّر المريض أن ينتقل به إلى الصحة، هذا إذا كان الدواء ناجعاً، والطبع قابلاً والطبيب ناصحاً. وغاية مدبّر الصحيح أن يحفظ الصحة، وإذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب الفضائل، وفَرَّغه لها، وعَرَّضه لاقتنائها؛ وصاحب هذه الحال فائزٌ بالسعادة العظمى، ومتبوِّئٌ الدرجة العليا؛ وقد صار مستحقاً للحياة الإلهية؛ والحياة الإلهية من الخلود والديمومة والسرمدية.

فإن كَسَبَ من يَبْرأ من المرض بطب صاحبه الفضائل أيضاً؛ فليست تلك الفضائل من جنس هذه الفضائل، لأن إحداها تقليدية، والأخرى برهانية؛ وهذه مظنونةٌ، وهذه مستيقنة، وهذه رُوحانية، وهذه جسمية، وهذه دهرية.

وقال أيضاً: إنما جمعنا بين الفلسفة والشريعة لأن الفلسفة معترفة بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدة لها؛ وإنما جمعنا أيضاً بينهما لأن الشريعة عامة، والفلسفة خاصة، والعامّة قِوامها بالخاصة، كما أن الخاصة تمامها بالعامة؛ وهما متطابقتان إحداهما على الأخرى، لأنها كالظِّهارة التي لا بدّ لها من البطانة، وكالبطانة التي لا بد لها من الظِّهارة"[١]

وقد انبرى الحريري للرد على المقدسي في مجموعة الدعاوى التي نسجها لإثبات دور الفلسفة وأهمية هذا الدور، وكذلك صلة الفلسفة بالشريعة، قائلاً له إن الطبيب الحاذق في طبه هو الذي يجمع بين الأمرين (يعني الوقاية من المرض والشفاء منه)، أما أن يكون هاهنا طبيبان، يعالِج أحدهما الصحيح، والآخر يعالج المريض، فهو شيء غير مقبول وغير واقعي؛ فإن الطبيب يعمل على وقاية الناس من المرض

(١) المصدر نفسه ٢ / ١١- ١٢.

وعلاجهم منه إذا ما أصيبوا بأي مرض، فالمسألة إذن لا تقبل القسمة.

وأما بالنسبة لدعوى أن الشريعة تؤخذ بالتقليد، والفلسفة تؤخذ بالبرهان، فكلام مُغَالَط فيه، إذ الوحي جاء بالبراهين، ودعا إلى استعمال العقل، والتوثق من الأخبار قبل الأخذ بها، وأقام الحجج على ما كلف الناس بالإيمان به أو العمل بمقتضاه؛ بل أراد الشرع التكليف مع العقل وجوداً وعدماً؛ وأما التقليد أو النزعة التقليدية فهي المأخوذة عن دعاوى الناس؛ وتقلُّد مذاهبهم دون الرجوع إلى الوحي؛ وفي القرآن آيات كثيرة تحض على استعمال العقل وعلى الفكر والتدبر والنظر وتنعي على المقلد للآباء والأسلاف والأحبار والرهبان.

بعد هذا التعليق المختصر نعود إلى أبي حيان وأصحابه؛ لنجد الحريري يتعجب من قول المقدسي إن الشريعة مأخوذة من باب الظن، على الرغم من كونها وحياً؛ وإن الفلسفة مأخوذة من باب اليقين، على الرغم من كونها وليدة الرأي.

وأما زعم المقدسي بأن الفلسفة خاصة، والشريعة عامة، فيعده الحريري كلاماً ساقطاً ومظلماً، قائلاً له: "وأما قولك: الفلسفة خاصة، والشريعة عامة، فكلامٌ ساقط لا نور عليه، لأنك تشير به إلى أن الشريعة يعتقدها قوم- وهم العامة- والفلسفة ينتحلها قوم- وهم الخاصة- فَلِم جَمعتم رسائل إخوان الصفاء ودعوتم الناس إلى الشريعة وهي لا تلزم إلا للعامة، ولَم تقولوا للناس: مَن أحبّ أن يكون من العامة فليَنْتحلّ بالشريعة، فقد ناقضتم، لأنكم حَشوتم مقالتكم بآياتٍ من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلولٌ عليه بالشريعة، ثم الشريعة مدلولٌ عليها بالمعرفة، ثم هاأنت تذكر أن هذه للخاصة؛ وتلك للعامة؛ فلِم جمعتم بين مُجتَمِعَين؛ وهذا والله الجهل المُبين، والخُرق المُشين"[1]

وهذا التوصيف لرسائل إخوان الصفا ينطبق تماماً على محتويات هذه الرسائل، فهي كما ذكرنا في أكثر من موضع، وكما وصفها الإمام الغزالي مَحْشوّة بالكثير من الآيات القرآنية التي طوعها إخوان الصفا، لصالح فكرهم الطائفي.

أما الإشارة الثانية إلى الرسائل فقد وردت في كتاب المنقذ من الضلال للإمام

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ١٣.

الغزالي في معرض الرد على نُقَّاده الذين اعترضوا على تضمينه لبعض كلام الأوائل- يعني حكماء اليونان- في كتبه، قائلاً: إننا لو هجرنا الحق الذي ضمنه إخوان الصفا رسائلهم لتضليل الناس واستدراج الحمقى، لَمَا صَحّ ذلك منا؛ فالحق لا يضيره دخول الباطل الذي يجاوره.[1]

ظهر الفكر الطائفي بين العرب المسلمين عن طريق احتكاكهم بأهل الأديان الأخرى والثقافات المختلفة في الحواضر الإسلامية. ومما يلفت النظر أن جميع الفرق التي ظهرت على هامش الإسلام لم تخرج غالباً عن منطقة الشام والعراق، وهي المنطقة التي كانت واقعةً تحت الاحتلال الروماني تارةً، أو الاحتلال الفارسي تارةً أخرى.

فقد ظهرت في العراق وفارس فرق الإحسائية، والدشتية، ثم البابية، والبهائية؛ وانتشرت في هذه المنطقة بصورة ما؛ ثم انتقلت إلى مصر وبعض البلدان الأخرى. وقد ظهرت فرقة الأحمدية أو القاديانية في الهند بتأثير الاستعمار البريطاني، وقد بَنَت هذه الفرق الحديثة دعواتها على أساس معتقدات الفرق القديمة، مع دمجها بالمؤثرات السياسية، والنزعات العلمانية الحديثة.

(١) الغزالي. المنقذ من الضلال بتحقيقنا. واشنطن ٢٠٠١- ص ٢٠٨

المبحث الثاني

إخوان الصفا ومحاولات التوفيق بين الدين والفلسفة

الفلسفة هي عمل الخاصة للخاصة؛ وهي نتاج عقلي يقصد به ذوي العقول الكبيرة، وحتى من الناحية السلوكية، فإن الفلسفة تقصر محاولة التوصل إلى السلوك الكامل، والأخلاق الفاضلة على أُناس توفرت لهم صفات محددة وقدرات خاصة؛ وقد تكون الفلسفة إلحادية معادية للدين، أو مادية صِرفة لا تُقيم للقيم الروحية أي وزن بالمرة؛ أما الدين فشامل لجميع دروب الحياة، ولجميع مستويات العقول؛ بل إنه أيضاً يبين لنا حقيقة العالم الآخر، وما سيكون فيه؛ والوحي يأتي به نَبيٌّ معصوم مختار. وأما الفلسفة فهي من نتاج العقل؛ ونتاج العقل غير معصوم، اللهم إلا إذا استمد نوره من الوحي وتآزر معه؛ فالعقل يمكن أن يضل، والفلسفة قد تكون إلحادية ماديةً كما ذكرنا؛ أما الوحي فإنه لا يتعارض ولا يختلف من نبي لنبي آخر.

والفلسفات- كما هو واضح- مختلفة؛ حتى الفلسفات الروحية الوضعية، التي لا تتلاقى مع الدين في بعضٍ من الجوانب وأهمها الإيمان بوجود إله صانعٍ للكون قدير مدبر، فإنها تختلف عمّا جاء به الدين بوجهٍ عام في مسألة بدء الخلق- أي إحداث المادة من العدم- على سبيل المثال فقد كان بعض قدماء الفلاسفة اليونانيين يرى أن الروح المدبر للعالم لم ينشئ هذا العالم إنشاءً، بل إنه أوجده من مواد كانت موجودة بلا نظام بالفعل، فنظمها على الوجه التي هي عليه، وإذن فالله (تعالى) صانعٌ بمعنى مرتب هذا الكون ومهندسه؛ ولكنه ليس خالقاً، بمعنى أنه لم يوجده من بعد أن لم يكن.

هذا من حيث عنصر "بدء الخلق"؛ أما من حيث عنصر "الربوبية"، أو "العناية المستمرة" فإن الأديان إذ تتفق على أن الله تعالى هو المدبر الدائم للكون، وأن هذا الإله المدبر جدير بالعبادة؛ فإن الفلسفة ليس فيها كلها الإيمان بهذا المبدأ. إنها تعتقد أن صلة العالم بالله هي صلة الشيء بعلته أو بسببه؛ فالله (تعالى) أوجد

العالم وانتهى دوره عند هذا الحد، كالمهندس والبَنّاء لا صلة لأحدهما بالمبنى بعد بنائه، ولا دخل لهما بتخصيصه وإدارته أو حتى معرفة ما يجري بداخله بعد ذلك.[1]

وعلى الرغم من أننا لا نتصور وجود فلسفة في بيئة لا دين فيها، أو ظهور فيلسوف دون نَبي يسبقه، أو عالِم دين يتقدمه. فإن الفلسفة قد غالت في تقدير قيمتها ودورها، فقد زعم بعض الفلاسفة أن الفلسفة تعتمد على البراهين اليقينية، أما الملل والأديان فتعتمد على التفهيم الإقناعي والتمثيلي. وعلى الرغم مما قلناه على سبيل التنويه والإيجاز من أن الفلسفة لو كانت تعتمد على البراهين العقلية في كل شيء وأنها تتوصل من خلال العقل إلى الحقيقة وأصول الفضائل، فلماذا إذن هذا الاختلاف بين الفلاسفة؟ ولماذا تعددت المدارس الفلسفية، واختلفت باختلاف الفلاسفة، والعصور، والبيئات، والنزعات السياسية؟ ولو كانت الفلسفة وحدها تهدي إلى الحق لما كان هذا التعارض والتضارب بين الفلاسفة.

الفلسفة، في حقيقة الأمر، ضربٌ من الاجتهاد العقلي الذي يمكن أن يصيب، ويمكن أن يخيب. إنها في كثير من أحوالها أبنية من الفرضيات والتقديرات والتخمينات التي لا تصل إلى حد اليقين التام والتسليم المطلق.

وعندما تقف الفلسفة في مواجهةٍ مع الدين، تعارض مسلماته وتجادل معه في أصوله، فإنها بهذا تبالغ أو تغالط في تقدير نفسها، وكذلك عندما يعادي أهلُ الدين الفلسفةَ، وهي من عمل العقل الذي وهبه الله تعالى للإنسان وكرمه به، ويردون كل ما جاءت به، فإنهم يغالون أيضاً، بل ويخرجون على دعوة الدين نفسه إذ قد دعا الإسلام إلى التفكر والتدبر والبحث والنظر في غير شطط أو مجاوزة، فينكرونها.

من وجهة نظرنا أن الوحي نورٌ خالصٌ؛ والفلسفة نور قد لا يكون خالصاً، لذا علينا ألاَّ نأخذ الفلسفة بالتسليم المطلق، وكذلك فإن أي علم من العلوم مهما كانت منهجيته ونتائجه، فلا ينبغي أن نُحِلّه مَحَلّ الدين؛ وعلينا أن ننظر إلى الوحي بنور الفكر، وأن ننظر إلى الفكر بنور الوحي، فننتفع بهما معاً، ولا نعارض أحدهما بالآخر، فإنهما كالتوأمين يرجعان إلى أمٍّ واحدة، وأصلٍ واحدٍ إذا سلمت لهما

---

(١) انظر محمد عبد الله دراز – الدين– القاهرة– مطبعة السعادة– ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص ٦٠– ٦١.

فطرتهما.

فأرسطو مثلاً على الرغم من تصويره للذات الإلهية تصويراً رائعاً، إلا أن عقله لم يبلغ في ذلك مبلغ الوحي أو النبوة في الكلام عن الله؛ إذ أنه يقول بقدم الهيولي والصورة والحركة، أو أبدية المادة، وما انبثق عنها. والإسلام يقرر أن المادة مخلوقة، وكذلك كل ما يتبعها من صور وحركات وتحولات. وكيف يكون العالَمُ قديماً، ولم يكن هناك زمنٌ بعد، قبل خَلْق العالَم، وذلك لأن الزمن والحركة لازمان للخلق وصادران عنهما صدور لزوم.

ويذهب أرسطو إلى أن الله- تعالى- ثابت غير متحرك، وأنه فعل محض أو صورة محضة لا يحتوي على شيءٍ من الهيولي أو الإمكان، وهو أزلي أبدي لا يجوز عليه التغيير، وهو واحد بالعدد، لا شريك له، لا أجزاء له؛ ليس جسما، عقل محضٌ، حيٌّ، ليس له ضد، خيرٌ محض موجود بالضرورة؛ وهو عاشقٌ ومعشوق، وهو أفضل سعيد، وأَجَلُّ مبتهج، ولذلك فإن العقل هو أفضل فعل وأكثر لذة.وفي التدليل على وحدانية الله (تعالى) يقول أرسطو: إنه ليس من الخير حكومة الكثيرين، بل ينبغي أن يكون الحاكم واحداً.

فتصوير أرسطو لله (تعالى) على هذا النحو كان اجتهاداً عقلياً منه، اعتمد فيه على الفكر وعلى التراث الشعبي للدين اليوناني، وعلى الرمز، وعلى ما سبق من فلسفات مادية؛ ولذلك جاء في أوصافه لله تعالى ما لا يليق بالذات الإلهية، كعشق الله لذاته، وتساميه عن حكم العالم، وعن العناية به؛ وهذا وأمثاله مما كان يقوله الشعراء اليونانيون، وهو مما تناثر في الأساطير اليونانية؛ لكن أرسطو مع هذا قد رفع العقل كثيراً إلى مرتبة عالية عند الكلام عن الله تعالى.

وقد اهتدى أرسطو بعقله أو بفطرته إلى أن الله واحد غير مركب، لا شريك له في ملكه وتدبيره؛ وفي قوله بأن تعدد الآلهة فيه فساد لنظام العالم وسيره، وفي أن كل شيء مخلوق لله تعالى؛ كما يقول عز وجل:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢]

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الاسراء: ٤٤]

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ومن كلام فلاسفة اليونان لا سيما عن الألوهية وعلاقة الله تعالى بالإنسان وبالكون، نستدل على أنه لم يكن هناك نبي مبعوث لديهم في هذه الفترة الطويلة، وأن أثر النبوة السابقة كان ضئيلاً في حياتهم وفكرهم؛ ومن هنا جاء تخبطهم في المسألة، وذلك لأن العقل الإنساني، فردياً كان أم جمعياً، لا يستطيع أن يصل إلى تصور الله تعالى تصوراً كاملاً على ما هو عليه بالفعل. ومن أبسط الأمور وأعقدها في الوقت نفسه لدى العقل أنه ينبغي ألا يتصور العالم قائماً بنفسه أو مستغنياً عن تدبير الخالق المدبر الحكيم، كما زعم أرسطو؛ فتدبير الله للإنسان ولسائر المخلوقات بَيِّن من أصغر ذرة لأضخم مخلوق، من الذرة إلى المجرة، ومن الحركة ومن السكون، ومن نظام الكون، وفي خلقه للطبيعة على هذا النحو المعجز وبقاء هذه الطبيعة لهذه الأحقاب الطوال قائمةً على نظامٍ وجاذبيةٍ على قاعدة لا تتخلف أبداً.

إن الكون لا يمكن أن يستغني ألبتةَ عن خالقه ومدبره، وكذلك الإنسان أن يستقل بوجوده عن الله تعالى. ومن أمارات التدبير والعناية الإلهيين الإحياء والإماتة، وهداية الإنسان ومتابعة الوحي عليه، ودعوته إلى الخير وتحبيبه في الفضائل، وتبغيض الرذائل إليه، وترتيب الجزاء العادل على الأفعال وهكذا.[1]

ونزعة التوفيق بين الدين والفلسفة من ثم قد يرجع تاريخها إلى عصر ظهور الفلسفة نفسها، والدين هو السابق إلى الوجود، وقد دخل الإنسان هذا العالَم أولاً بالوحي؛ فقد حاول الفلاسفة القدماء أن يوفقوا بين الفلسفة وما ينطوي تحتها من

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع انظر يوسف كرم- تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٨٧- ١٩٨؛ وأرسطو- كتاب ما بعد الطبيعة- ترجمة أبو العلا عفيفي ص ١٢٧؛ و حمودة غراب- ابن سينا بين الدين والفلسفة- القاهرة- مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م ص ٦٣ وما بعدها.

علومٍ ومن منهج وبين الديانة السائدة؛ بل إن الرواقيين كانوا يفسرون رموز الديانات الشعبية تفسيراً فلسفياً. وقد اختلف موقف الفلاسفة من الدين، وبالذات من قضية الألوهية بين الرفض والقبول.

ولقد أظهر أمبادوقليس مهارةً فائقةً في محاولة ابتكار طرقٍ للتوفيق بين الفكر والدين. كما بذل أفلاطون جهوداً جبارةً في سبيل إنجاز هذا العمل الشاق الذي وصفه صاحب كتاب "من الدين إلى الفلسفة "From Religion to Philosophy" بأن أفلاطون بهذا قد "وضع قدمه على الأرض وأمسك بالسماء".[1]

ويؤيدنا كورنفورد "Cornford" صاحب كتاب "من الدين إلى الفلسفة" المشار إليه آنفاً في أن الفلسفة هي بنت الدين، وفي أن الفلاسفة قد مارسوا نشاطهم العقلي حول هذه المادة الهائلة الموروثة في تلك العصور السحيقة؛ وبذلك بدت الفلسفة وكأنها شرحٌ وتحليلٌ وتعليلٌ للحوادث الدينية، وأن الفلسفة لم تخلق وسائل تصويرية جديدة، وإنما اكتشفت تلك الوسائل عن طريق التحليل الدقيق، والتحديد والتمييز بين العناصر المختلفة في هذا التراث.[2] وقد قام فيلون الإسكندري (ت: ٥٠ قبل الميلاد) بشرح الشريعة اليهودية شرحاً فلسفياً؛ موضحاً ما فيها من رموز. وقام بهذه المحاولة أيضاً آباء الكنيسة بفعل تأثرهم بالأفلاطونية الحديثة، مثل القديس أوغسطين (٤٣٠م)؛ فأسسوا بذلك الفلسفة المدرسية (Scholastic Philosophy) التي بلغت ذروتها في القرن الثالث عشر مع ألبرت الكبير، والقديس توما الأكويني.[3]

وينبغي أن يلاحظ أن اختلاف فلاسفة اليونان في تصور الذات الإلهية وعلاقتها بالإنسان وبالطبيعة إنما هو راجع لاختلاف الديانة اليونانية، حيث تتضمن هذه الديانة فكرتين متناقضتين لمفهوم الألوهية والفكرة الصوفية (Mystical) والفكرة الأولومبية أو الأسطورية (Mythological).

وهكذا استمر الفلاسفة بين تأييدٍ ومعارضةٍ بالنسبة للدين، وموقف الفلسفة منه،

---

(١) انظر محمد كمال إبراهيم جعفر- في الفلسفة: دراسة ونصوص- مكتبة دار العلوم ١٩٧٦ ص ٧٧.

(٢) المصدر نفسه

(٣) انظر مقدمة ألبيرنصري نادر على كتاب: ابن رشد - فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال- دار المشرق ط ٥ ص ١٤.

ومهما كان موقف هؤلاء الفلاسفة من الدين فإنهم لم يغفلوه من نظرتهم العقلية وتحليلاتهم الفكرية أو العلمية للأشياء، لأن الدين لا يمكن الاستغناء عنه، أو إسقاطه من المنظومة الإنسانية الخاصة بهذا المخلوق، والمسيطرة عليه سواءً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ وسوف تمضي فلسفاتٌ، وتَجِدّ فلسفاتٌ أخرى؛ وسوف يتفق الفلاسفة أو يختلفون فيما بينهم. أما الدِّين فهو الحقيقة الكبرى، والمطلب الأسمى في حياة الإنسان، وسوف يلازمه في كل مراحل وجوده على هذا الكوكب. ولقد كاد العلماء والفلاسفة أن يُجمعوا على أن غاية الدين هو سعادة البشرية وصلاحها وفلاحها، وكذلك الفلسفة فإنها تتخذ من هذا كله غرضاً.[1] ولكن ينبغي أن ندرك مغزى ما قاله ابن خلدون في مقدمته من أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية؛ فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف.

لم يتوقف إذنْ تيَّارُ التوفيق بين الدين والفلسفة على مدار تاريخ الفكر الإنساني، ومنذ أن بدأ الإنسان يتفلسف فلسنا نجد فيلسوفاً إلا تكلم عن الدين سلباً أو إيجاباً، وحاول أن يُوَسِّع أو يُضَيِّق، يُعَمِّق أو يُسطح العلاقة بين الاثنين. وإذا كان فلاسفة المسلمين قد تناولوا هذه المسألة في ثنايا كتبهم بطريقة مباشرة أحياناً، وغير مباشرة أحياناً أخرى؛ وبالتالي فإن ميدان المعارضة الشكلية أو الظاهرية "بين الدين والفلسفة من مفكرين دافعوا عن الفلسفة، والتزموا طريقها، منذ نشأتها الأولى وحتى عصورها المتأخرة منذ الكندي الفيلسوف، ونزولاً إلى (عصر العقل) الذي مَثّله فيلسوف المغرب (الأندلسي) ابن رشد، على الرغم من محنته القاسية التي رسمت لنا صورة واقعية لفقدان العدل وضياع الضمير".[2]

فإذا هدانا الشارعُ إلى مَدَارك، فينبغي أن نقدمها على مداركنا؛ ونثق به دونها، ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل، ولو عارضَه؛ بل نعتمد على ما أمرنا به اعتقاداً

(١) انظر ابن حزم – الفصَل– ١/ ١٧٩، والشهرستاني– الملل والنحل– بـهامش الفِصَل ١٤٢/٢.

(٢) انظر: قصة النـزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل – القاهرة– ١٩٥٨ ص ١١٥– ١١٨، وانظر أيضا: المدخل إلى الفكر الفلسفي عند العرب دراسة في التراث– للدكتور جعفر آل ياسين– بيروت دار الأندلس ١٩٨٣ ص ١١٥.

وعلماً، ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونُفَوِّضه إلى الشارع.[1]

استمرت محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة في كل العصور حتى لقد صارت سمةً من سمات البحوث الفلسفية، فقد كان للمعتزلة سبق في تناول هذه المسألة في تاريخ الفكر الإسلامي عندما اتخذوا العقل سلطاناً، وعوّلوا عليه بالدرجة الأولى في تأويل الشرع.

ثم جاء من بعدهم الكندي الفيلسوف حيث يقول: "إن صدق المعارف الدينية يُعرف بالمقاييس العقلية"[2]، وكان الفارابي وابن سينا في الشرق وابن باجَّة وابن طفيل في الغرب (الأندلس)، يحاول جميعهم التوفيق بين الدين والفلسفة، وسنتكلم عنه بإيجاز فيما يلي.

---

(١) ابن خلدون . مقدمة – باب علم الكلام– ص ٣٦٣– ٣٦٩.

(٢) رسائل الكندي – تحقيق أبو ريدة – القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٤٤.

فلاسفة التوفيق بين الفلسفة والدين

الكندي:

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (٢٥٣هـ) الذي لُقِّب بفيلسوف العرب؛ وتصدى الكندي للرد على علماء الكلام في هجومهم على الفلسفة، والذين سماهم "أهل الغربة عن الحق" الذين عادوا الفلسفة أو الفكر لمجرد معاداتها ولعدم فهمهم إياها، ودفاعاً عن كراسِيِّهم المغرورة التي نصبوها عن غير استحقاق بل للترؤس والتجارة بالدين وهم عُدماء الدين".[(١)]

ومن خلال هجوم الكندي على العلماء المتعصبين، نلاحظ أنه حاول أن يجعل العداوة الظاهرية بين الدين والفلسفة عداوةً مصطنعة، لها غرض نَفْعِيّ شخصي، وليس غرضاً إصلاحياً أو عاماً؛ إذ أنه من التعصب الممقوت أن يقال بأن الشريعة ليست بحاجة إلى الفلسفة أو التفلسف؛ ورأي الكندي أنه لا مجال إذن لأن يتبادل المتكلمون والفلاسفة تُهم الكفر والإلحاد والخروج عن الدين أو أن يُؤلب كل فريق منهم الحكامَ على الفريق الآخر.

ويرى الكندي أن الدين والفلسفة كلاهما يدور حول محور واحد، هو الحق، وكلاهما يهدف أيضاً إلى الغاية نفسها يعني التوصل إلى الحق؛ ولذلك فإن الكندي يقول إن أشرف فروع الفلسفة هو العلم والفلسفة الإلهية أو الفلسفة الأولى أو علم الحق الأول الذي هو علة كل حق، كما أن علة كل شيء وثباته الحق. والحق لا يختلف بين الفلسفة والدين مهما اختلفا في القضايا والأساليب. بل إن الكندي يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك عندما يرى أن الدين والفلسفة يتفقان (بشكل عام) من حيث الموضوع والمنهج والغاية.

يقول: "لأن في علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية، وعلم الوحدانية، وعلم الفضيلة، وجملة كل علم نافع والسبيل إليه، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه، واقتناء هذه جميعا هو الذي أتت به الرسل الصادقة عن الله- جل ثناؤه- فإن

---

(١) كتاب الكندي إلى المعتصم بالله، في الفلسفة الأولى ص ٨٤

الرسل الصادقة- صلوات الله عليهم- إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده، وترك الرذائل المضادة للفضائل في ذاتها وإيثارها. فواجبٌ إذن التمسك بهذه القنية النفسية عند ذوي الحق، وأن نسعى في طلبها بغاية جهدنا، لما قدمناه، وما نحن قائلون الآن وأنه يجب على ألسنة المضادين لها اقتناؤها... الخ".[1]

وإذن فالدين والفلسفة يتفقان من حيث الموضوع، إذ إن موضوع كلٍ منهما التوصل إلى الحق أو الحقيقة، كما أنهما يتفقان من حيث الغاية والهدف إذ يسعى كلٌ منهما إلى تأسيس قيم الحق والعدل والخير الذي يتضمن عموم الأعمال الصالحة والنافعة.[2]

ومن المكونات الرئيسة في فلسفة الكندي التوفيقية أن القرآن وهو الوحي الذي أعطاه الله تعالى لرسوله ﷺ يمكن أن يُفهم "بالمقاييس العقلية التي لا يدفعها إلا مَن حُرِمَ صُورةَ العقل، واتحد بصورة الجهل من جميع الناس".[3]

وانطلاقاً من قاعدة التوفيق بين الدين – الإسلام- والفلسفة- جاءت محاولة الكندي لتفسير القرآن تفسيراً عقلياً قائماً على الفهم الفلسفي، ويرى الكندي أنه لكي يستطيع الإنسان فهم القرآن على هذا النحو لا بد له من أن يستجمع متانة الدين وقوة العقل، وأن يكون على علمٍ بما أنزل الله على رسله، وعنده خبرة عميقة في اللغة تُمَكِّنه من معرفة أسرار القرآن.

وينبغي أن نلفت النظر إلى أن الكندي قد ألف رسالةً في تثبيت الرسل- عليهم الصلاة والسلام- أشار إليها ابن أبي أصيبعة في تاريخ الحكماء.[4]

وقد عارض الكندي كذلك نظريةً كانت تُنسب إلى البراهمة أو الهنود بشكل عام على عصره، أساسها أن العقل وحده يكفي أن يكون مصدراً للمعارف، وقد انبرى الكندي للدفاع عن النبوة، ودحض كل شبهة أُثيرت ضدها؛ ومما يُذكر أنه كان

---

(١) الفلسفة الأولى ص ٨٣

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣

(٣) الإبانة عن سجود الجرم الأقصى ص ٢٤٤- ٢٤٥؛ ضمن رسائل الكندي الفلسفية- عبد الهادي أبو ريدة ١٩٥٠- ١٩٥٣

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٢١٢

لفيلسوف العرب إلمامٌ واسع بالأديان، مما يضعه بحق في مَصاف كبار علماء مقارنة الأديان، وقد خرج فيلسوفنا بنتيجةٍ من خلال دراسته للأديان وهي أن ديانات العالم كله مجمعة على القول بأن العالم صادر عن علة أولى واحدة أزلية لا يستطيع علمنا أن يعرفها بأكثر من هذا. وقد أشار ابن أبي أصيبعة أيضاً إلى رسالة الكندي "رسالة في افتراق الملل في التوحيد، وأنهم مجمعون على التوحيد، وكل قد خالف صاحبه".[١]

يقول فيلسوف العرب: إنه من الواجب على كل عاقل أن يقر بألوهية هذه العلة الأولى؛ وقد أرشدنا الله تعالى إلى السبيل عن طريق الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ليدلّوا الخلق عليها، ويُبَشّرون بأمر الله تعالى مَنْ قَبِلَها وآمَن بها بالجنة، ويُنْذِرون مَنْ رَفضها ولم يؤمن بها بالنار والعذاب الأبدي.[٢]

****

الفارابي (ت: ٣٣٩ هـ):

في البداية نقول إن الفارابي كان يُطلق عليه فيلسوف المسلمين، وتتسم فلسفته بشكل عام بالنزعة التوفيقية بين الآراء وبين المذاهب المختلفة، وهذه النزعة تتجلى بوضوح في كتابه "الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس".

ولم يهمل الفارابي في فلسفته الإلهية والأخلاقية أن ينص على أهمية الوحي، سواءً من الناحية المعرفية أم الناحية السلوكية، وهو وإن رفع من قيمة العقل ودوره في تحصيل المعرفة، وفي الحكم على الأشياء لم يُعْطه وحده مسئولية توجيه الإنسانية. وهذا في حد ذاته نوع من أنواع التوفيق بين الدين والفلسفة، ولا بد من مراعاة أن الفلاسفة المسلمين مهما كان تعمقهم في الفلسفة فإنهم ظلوا متمسكين بالدين لم يعلن أحدهم، مهما كان تعصبه للفلسفة انهيار الدين أمام العقل، بل لقد اعتبر فلاسفة الإسلام بشكل عام أن الركيزة الأساسية التي تعتمد عليها الفلسفة الإسلامية هي الدين؛ لأن الدين أوسع وأشمل في استيعاب حياة الناس، وأنماط تفكيرهم من الفلسفة التي هي بضاعة الخاصة والذين لا يمكن في الوقت نفسه أن

---

(١) المصدر نفسه والموضع

(٢) انظر أيضاً: ج. ب بور–تاريخ الفلسفة في الإسلام. تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٥هـ/ ١٩٣٨م ص ١١٧ – ١١٨.

يستغنوا بها عن حقائق الدين والقيم الدينية.

ابن مسكويه:

حاول عالم الأخلاق - ابن مسكويه (أبو سليمان السجستاني)؛ تلميذ الفارابي، والذي غطت شهرته النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، الرابع الهجري[١]- فيما بعد أن يوفق بين النظريات اليونانية الأخلاقية المختلفة التي استعملها في بناء مذهبه الأخلاقي، وبين أحكام الشريعة الإسلامية. وليس هنا مجال مناقشة مدى نجاحه أو إخفاقه في هذه المسألة، ولكننا نكتفي فقط بإبراز مدى عناية بعض فلاسفة المسلمين بمحاولة إزاحة الخصومات والمعارضات بين الفكر اليوناني الذي له أصل ديني، وبين الأحكام الإسلامية؛ وذلك انطلاقاً منهم بأنه لا ينبغي أن يكون هناك تعارضٌ بين الوحي الذي جاء به النبي المعصوم، وبين الفكر الذي جاء به الفيلسوف أو العالم المجتهد؛ هذا إن صح اجتهاده وتجرد هو من الأهواء المضلة، والنزعات المخلة بأصل من أصول الديانة، أو بقيمة أخلاقية.

وتأسيساً على الفكرة نفسها يقول ابن سينا في رسالته "تقسيم العلوم" على سبيل المثال: إن ما يخص شئون الإنسان الأخلاقية، فإن كتاب "الأخلاق" لأرسطو يشتمل عليه. وما يخص شئون المنزل ومعاملة الزوجة وتربية الأولاد يشتمل عليه أرونس. وما يخص الشئون السياسية وتدبير شئون الملك والمدينة فهو مذكور في كتاب أفلاطون وأرسطو في السياسة.

وما تعلق منه بالنبوة والشريعة فيشتمل عليه كتاب "النواميس". و"الناموس" عند الفلاسفة معناه "السنة، والمثال القائم، ونزول الوحي". وبهذا الجزء من الحكمة العملية تُعرف النبوة، وتُعرف حاجة الناس إليها.[٢]

---

(١) ابن النديم – الفهرست ٢٦٤، وابن أبي أصيبعة– تاريخ الحكماء ٣٢١– ٣٢٢، وانظر أيضا دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام– ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة. التأليف والترجمة والنشر ص ١٥٨ وما بعدها.

(٢) انظر: ندوة "نحو فلسفة إسلامية معاصرة"– المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٨٩ ص ١٤٧ وما بعدها.

ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م):

ويجيء ابن سينا وهو من حفظة القرآن، ومن المتوسعين في العلوم الإسلامية، فيقوم بمحاولة التوفيق هذه.[١] وفي البداية يرى ابن سينا أن التراث اليوناني صالح لتفسير التراث الإسلامي.

وقد استطاع ابن سينا أن يجمع، في محاولة للتوفيق بين الدين والفلسفة، بين صفات المحرّك الأول عند أرسطو وبيْن الصفات الإلهية التي جاء بها الإسلام؛ ومحاولته التوفيق بين قِدم العالم عند الفلاسفة وحدوثه بالنسبة للإسلام؛ فقد قال: إن العالَم حادث بالذات، قديم بالزمان لقدم خالقه؛ وعلى هذا فإن القول بقِدم العالَم (في الزمان) لا يحول بينه وبين كونه مخلوقاً، بل وحادثاً بهذا المعنى؛ وقد قدم ابن سينا في تفسيرا جديداً لكلمات "الصنع والخلق والإبداع" وبيَّن أنها لا تُنافي القدَر الزماني.

وتأتي محاولة ابن سينا هذه للتوفيق بين المتكلمين القائلين بحدوث الزمان وخلقه من العدم بعد أن لم يكن، وبين الفلاسفة القائلين بقِدَمه؛ ويرفض هذا الفيلسوف القول بالخلق والإحداث والتكوين والصنع، ولكي يبرهن على صحة رأيه لجأ إلى لفظة "الإبداع" ليفسر بها الفعل الإلهي، مع أن كلمة "خلق"، "خالق" من الكلمات القرآنية، فكما أن "البديع" اسم من أسماء الله تعالى، فإن "الخالق والمصور والبارئ" أيضاً من أسمائه تعالى. ولا ينبغي أن نأخذ اسماً في المسألة المشتركة ونركز عليه دون الأسماء الأخرى.

ولكي نوضح رأي ابن سينا في تحديد معنى كلمة "إبداع" نورد هذه الفقرة من كتابه "الإشارات": "والإبداع هو أن يكون من الشيء وجود لغيره، متعلق به فقط، دون متوسط أو آلة أو زمان، وما يتقدمه عدمٌ زمانيٌّ، لم يستغن عن متوسط؛ فالإبداع أعلى مرتبة من التكوين والإحداث"[٢].

وتعني كلمة "تكوين" عند ابن سينا الوجود المادي الصادر عن شيءٍ والمؤلف من

---

(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء جـ٣ـ ص ٣ وما بعدها.

(٢) ابن سينا – الإشارات ١١٦/١

العناصر الفاسدة. وأما "الإحداث" فمعناها أن يكون من الشيء وجود زماني خاص بالموجودات الطبيعية التي تخضع للتسخير. [1]

والحل الذي ارتضاه ابن سينا للتوفيق بين الفلاسفة وعلماء الكلام في مسألة طبيعة العالم هو أن القول بالإبداع لا ينفي القول بقدم العالم، فالعالم إذن قديم بقدم العلة الأولى، أي الذات الإلهية. وإذن فالله تعالى في فلسفة ابن سينا يتقدم على العالم لا بالزمان بل بالذات والشرف والطبع والمعلولية. وعنده أنه لا يجوز تأخر وجود العالم عن الله تعالى تأخراً زمانياً. وذلك لأنه لو وُجد الله ثم وُجد العالَم لكان بيْن الوجودين زمانٌ فيه عدمٌ، وهذا يستدعينا أن نسأل عن السبب المرجح للشروع في الخلق بعد الامتناع عنه. ويتعلق بهذا أيضا ضرورة القول بتغير الإرادة الإلهية تبعاً لخلق الكون في زمان. وهنا فقد وضع ابن سينا نفسه وفلسفته في إطار ضيق يصعب الخروج منه؛ مع أن أقوال ابن سينا مثل أقوال غيره من الفلاسفة ليست نهائية ولا قطعية شأنها في ذلك شأن أعمال العقل الأخرى.

وقد ردّ الإمام الغزالي على ابن سينا وعلى القائلين بقدم العالم، وأصحاب محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، وبيَّن نقاط ضعفهم وتهافتهم. وليس من أغراض هذا الكتاب أن يتتبع هذه المسألة أكثر من ذلك.

وتمشياً مع منهج التوفيق بين الدين والفلسفة اجتهد الشيخ الرئيس في تفسير معنى "المعجزة" بما لا يتنافى مع مبدأ "الْعِلِّيَّة" فوَفق بذلك بينهما. وبيّن أن الدعاء الذي جاءت النصوص بإثبات أثره لا يتنافى مع سبق القدَر بتقدير ما هو، وما سوف يكون إلى يوم القيامة؛ ونضيف إلى هذا القول أن الدعاء من التقدير أيضاً، وهو على مثال أن تغيب الشمس إذا دخل الليل، أو حصول البرد مع دخول الشتاء، وسقوط المطر إذا تهيأت أسبابه الطبيعية.

ويرى حمودة غرابة أن ابن سينا قد نجح في التوفيق بين فكرة القِدم الأرسطية، وبين عقيدة الخَلْق الإسلامية؛ كما استطاع أن يجمع بين الدين والفلسفة في

---

(١) ابن سينا — الرسالة النيروزية ضمن مجموعة رسائل ابن سينا ص ١٣٧، وانظر أيضا سامي نصر لطف: نماذج فلسفة الإسلاميين ج١ ص ٢٢٣ — ٢٢٥.

الصفات. ونجح كذلك، اعتماداً على هذه الفكرة في الربط بين الله وخلقه برباطٍ وثيقٍ عجز عن القول به أفلاطون وأرسطو. فالله عِلّةٌ للعالَم وُجد بوجوده، وهو دائم بدوامه (لحين يقضي الله تعالى بزواله وينهيه). وبذلك استطاع الفيلسوف المسلم أن يجعل وجود العالم مرتبطاً بوجود الله تعالى، ومترتباً عليه ومتصلاً به.

وبذلك خرج ابن سينا بالعالَم عن كونه عالَمَ مُثُل أو عالم ظلال كما قال أفلاطون، أو أنه عالَم تتمثل صلته بخالقه تعالى في صلة العشق أو المحبة كما ذهب إليه أرسطو؛ وهو ما ينتهي فيه الأمر إلى الفصل بين الله وبين الكون، على عكس ما جاء به الإسلام، فالله تعالى هو الخالق المسيطر على كل مخلوقاته، والقاهر فوق عباده، يحيط علمُه بكل ما يجري في ملكه، جزئياً كان أو كلياً؛ وإنكار أي علاقة بينهما غير علاقة العشق والمحبة، والتي لا يمكن تفسيرها، قد مثلت معضلة فلسفية وكلامية على مدار تاريخ العقل البشري. وقد فسرتها الأفلاطونية الحديثة من خلال نظرية الفيض والتي تعني أن العالَم قد فاض عن الأول وهو الله تعالى)، وهذه النظرية، وإن جعلت الله- تعالى- علةً لخلق الكون، فإنها لا تستطيع أن تتخلص من احتمال تتضمّنه هذه الفلسفة، وهو أن العالم جزءٌ من الله، وهذا راجع إلى كون الأفلاطونيةَ الحديثة لم تستطع أن تفرق بين "الواجبية" و"العِلِيَّة" أو تحدد لنا الخصائص التي تقتضيها هذه العلة. والله تعالى ليس كمثله شيء؛ وكل ما هو حادث فمخلوق، وكل مخلوق له بداية ونهاية، ولا يشترك ألبتة في صفة من الصفات مع الله الأول والآخر والظاهر والباطن؛ والله تعالى لا يَحِلّ في شيء ولا يَحِلّ فيه شيء؛ لا تنقسم ذاته تعالى، ولا تتمدد ولا تفيض ولا تتحول ولا تنتقل.[1]

وقد بنى إخوان الصفا فلسفتهم الطائفية على نظرية الفيض هذه، وعلى مقولات فلاسفة اليونان، وإذا كنا لا نستطيع أن نتوسع في تتبع أثر ابن سينا في التوفيق بين الدين والفلسفة.[2] فإننا لا بد أن نلفت النظر إلى أن ابن سينا قد وقع في خطأٍ جسيم عندما سلّم للعقل قياده، وقال مع الفلاسفة باستحالة البعث الجسماني، وما يترتب عليه من نعيمٍ أو جحيمٍ حِسِّيَّيْن؛ وذلك انطلاقاً من مقولةٍ

---

(١) للتوسع في النـزعة التوفيقية في فلسفة ابن سينا، انظر: حمودة غرابة- ابن سينا بين الدين والفلسفة- ص ١٢٢ وما بعدها

(٢) المصدر نفسه.

خاطئة، وهي أن الجسد الإنساني يفنى بالموت، والإنسان لن يكون في حاجة إليه في العالم الآخر، فالجسم بمثابة الآلة التي تساعد الإنسان على الوصول إلى هذا العالَم، أما بعد أن يصل إليه الإنسان فلن تكون له حاجة إليه بعد ذلك. وقد اعتبر ابن سينا كلَّ ما جاء في القرآن من آياتٍ دالة على البعث الجسماني، والنعيم والعذاب الحسيين رموزاً تَوَصَّل من خلالها النبي إلى إقناع العامة. وأما تعذيب الله للعصاة على هذا النحو فإنه محال على الله- تعالى- وغير لائق بجلاله وعظمته وكبريائه من ثواب وعقاب. ومن أخطاء ابن سينا أنه اعتبر البعث الجسماني، وما يترتب عليه من حسابٍ ومن ثواب وعقاب من أقوال المتكلمة[1]؛ وهذه مجازفة لا يسامح عليها، فإن الكلام عن البعث مبثوث في القرآن الكريم كله، وهو من أصول الإيمان.

وقد جعل ابنُ سينا العقلَ وحده هو الطريق إلى السعادة الروحانية وأن السعادة البدنية فإنه لا يفي بوصفها إلا الوحي والشريعة، ولا تصح إلا بالنبوة التي صحت بالعقل، ووجبت بالدليل وهي- يعني النبوة- متممة للعقل[2]، وهذا تصريحٌ منه بأن النبوة لا العقل هي التي تتولى إثبات البعث المادي بعبارة أخرى إن دليل البعث الجسماني إقناعي، ودليل البعث الروحاني عقلي برهاني، كما بينته تفصيلاً، وبالأدلة من رسائلهم.

وفي هذه القرينة ينبغي أن نتذكر أن والدَ ابن سينا وأخاه كانا من المتأثرين بالطائفة الإسماعيلية، يقول: "وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين، ويُعد من الإسماعيلية. وقد سمع منهم ذِكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم وكذلك أخي. وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأُدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي، وابتدءوا يدعونني أيضاً إليه، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند".[3] وبالتالي فإن ابن سينا يمكن أن يكون قد تأثر هو الآخر على نحو ما بآراء الإسماعيلية وبإخوان الصفا.

---

(١) انظر: المصدر نفسه ١٦٦- ١٦٧

(٢) أبحاث ندوة: نحو فلسفة إسلامية معاصرة- المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص ١٤٩

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/٣

ابن رشد (٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م):

استكمالاً لموضوع التوفيق بين الدين والفلسفة الذي يمثل الشريان التاجي في رسائل إخوان الصفا، فإننا لا يمكن أن نغفل الفيلسوف الأندلسي الكبير القاضي أبا الوليد ابن رشد؛ فإنه أول فيلسوف يخصص كتباً بذاتها في التوفيق بين الدين والفلسفة، ويحاول أن يُقَرِّبَ بينهما، فقد ألّف ابن رشد كتابه: "فَصْل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"[١]، وكتاب "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة"، وكتاب "تهافت التهافت" الذي تولى فيه الردَّ على كتاب الإمام الغزالي "تهافت الفلاسفة"، وعلى المتكلمين في هجومهم على الفلاسفة، ودافع فيه عن الفلسفة المشائية، وقد انطلق ابن رشد في فلسفته التوفيقية من إعجابٍ راسخٍ بأرسطو جعله يرى فيه الإنسان الأكمل والمفكر الأعظم الذي وصل إلى الحق الذي لا يشوبه باطل، ومن إيمانٍ بالإسلام لا يتزعزع كذلك؛ ولكن قد يؤخذ على الفيلسوف الفقيه العظيم أنه أعطى لأرسطو عصمة الأنبياء أو قريباً منها؛ مع أن الآراء الأرسطية ينبغي أن تكون موضع الرد والقبول، وليس الاعتقاد والتسليم، لأنها ليست وحياً معصوماً.

وقد وُفِّق ابن رشد في تحديد موقف الشريعة من الفلسفة والمنطق؛ أما بالنسبة للمنطق فهو يرى أنه ما دام الإسلام قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه، وهذا هو القياس أو التحصيل بالقياس فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي، وهذا النحو من النظر دعا إليه الشرع وحث عليه.[٢]

ويقرر ابن رشد أنه ليس من البدعة في شيء أن نستعين بعلوم الغير، وإن كان هذا الغير غير مشارك لنا في الملة. وأما الإمام الغزالي فيقول: أما المنطقيات فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً أو إثباتاً، بل هو نظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها... الخ.[٣]

---

(١) الطبعة الخامسة بتحقيق ألبيرنصري نادر- بيروت - دار المشرق

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨- ٢٩

(٣) المنقذ من الضلال ص ١٩٨

ويرى الإمام الغزالي: أن الخطورة التي تتمثل في علم المنطق، تكمن في أن كل من يستحسنه ويراه واضحاً قد يظن أن كل ما يصدر عن الفلاسفة مؤيد كذلك بالبراهين. فيقبل منهم ثمة ما هو ضد الدين، ولا يقرّه الشرع من أقوالهم.(١)

يقول ابن رشد: "وإذا تقرر هذا كله، وكنا نعتقد معشر المسلمين أن شريعتنا هذه الإلهية حق، وأنها هي التي نبهت عل هذه السعادة، ودعت إليها، التي هي المعرفة بالله (عز وجل) وبمخلوقاته، وإن ذلك متقرر عند كل مسلم من الطريق الذي اقتضته جبلته وطبيعته من التصديق. وذلك أن طباع الناس متفاضلة في التصديق: فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية. وذلك أنه لما كانت شريعتنا هذه الإلهية قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث عَمّ التصديق بها كل إنسان، إلا من يجحدها عناداً بلسانه، أو لم تتقرر عنده طرق الدعاء فيها إلى الله تعالى لإغفاله ذلك من نفسه. ولذلك خصّ (ﷺ) بالبعث إلى "الأحمر والأسود"، أعني لتضمّن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى. وذلك صريح في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[النحل: ١٢٥].

وإذا كانت هذه الشرائع حقاً وداعيةً إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإنّا معشرَ المسلمين، نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع. فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له؛ وإذا كان هذا هكذا، فإن أدى النظر البرهاني إلى نحو ما من المعرفة بموجودٍ ما، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سُكت عنه في الشرع أو عرّف به. فإن كان مما قد سُكِت عنه فلا تعارض هناك، وهو بمنزلة ما سُكِت عنه من الأحكام، فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي؛ وإذا كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقاً لما أدى إليه البرهان فيه

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٩٩

أو مخالفاً. فإن كان موافقاً، فلا قول هناك. وإن كان مخالفاً، طلب هناك تأويله.

ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخلّ في ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز- من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عُدّدت في تعريف أصناف الكلام المجازي".[1]

وفي تأكيد جواز الاجتهاد في البرهانيات قياساً على جواز الاجتهاد في الفقهيات يقول ابن رشد: "وإذا كان الفقيه يفعل هذا في كثير من الأحكام الشرعية، فكم بالحري أن يفعل ذلك صاحب العلم بالبرهان؟ فإن الفقيه إنما عنده قياس ظنّي، والعارف عنده قياس يقيني. ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي. وهذه القضية لا يشك فيها مسلم، ولا يرتاب بها مؤمن. وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه، وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول. بل نقول إنه ما من منطوق به في الشرع مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان، إلا إذا اعتبر الشرع، وتُصُفِّحت سائر أجزائه، وُجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل أو يقارب أن يشهد.

ولهذا المعنى أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تُحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تُخْرج كلها من ظاهرها بالتأويل. واختلفوا في المُؤوّل منها من غير المؤول: فالأشعريون مثلاً يتأولون آية الاستواء، وحديث النزول، والحنابلة تحمل ذلك على ظاهره.

والسبب في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف فِطَر الناس وتباين قرائحهم في التصديق؛ والسبب في ورود الظواهر المتعارضة فيه هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينها. فإلى هذا المعنى وردت الإشارة بقوله :﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ

(١) ابن رشد – فصل المقال، ص ٣٤- ٣٥

ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران: من الآية ٧] .[1]

وفي ردّ ابن رشدٍ على الإمام الغزالي في القول بأن الفلاسفة ينفون عن الله العلم بالجزئيات، يقول ابن رشد إن: "أبا حامد قد غلط على الحكماء المشّائين[2] فيما نسب إليهم من أنهم يقولون إنه تقدس وتعالى لا يعلم الجزئيات أصلاً. بل يرون أنه تعالى يعلمها بعلمٍ غير متجانس لعلمنا بها؛ وذلك أن عِلمنا معلوم للمعلوم به، فهو محدث بحدوثه ومتغير بتغيره؛ وعلم الله سبحانه بالوجود على مقابل هذا، فإنه علّة للمعلوم الذي هو الموجود. فمن شبّه العلمين أحدهما بالآخر فقد جعل ذوات المتقابلات وخواصها واحدة، وذلك غاية الجهل. فاسم العلم إذا قيل على العلم المحدث والقديم فهو مقول باشتراك الاسم المحض، كما يقال كثير من الأسماء على المتقابلات، مثل "الجلل" المقول على العظيم والصغير، و"الصريم" المقول على الضوء والظلمة. ولهذا ليس ههنا حدّ يشمل العلمين جميعاً كما توهمه المتكلمون من أهل زماننا. وقد أفردنا في هذه المسألة قولا حرّكنا إليه بعض أصحابنا.

وكيف يتوهم على المشائين أنهم يقولون إنه سبحانه لا يعلم بالعلم القديم الجزئيات؟ وهم يرون أن الرؤيا الصادقة تتضمن الإنذارات بالجزئيات الحادثة في الزمان المستقبل، وإن ذلك العلم المنذر يحصل للإنسان في النوم من قِبَل العلم الأزلي المدبّر للكل والمستولي عليه؟ وليس يرون أنه لا يعلم الجزئيات فقط على النحو الذي نعلمه نحن، بل ولا الكليات، فإن الكليات المعلومة عندنا معلولة أيضاً عن طبيعة الموجود؛ والأمر في ذلك بالعكس. ولذلك ما قد أدى إليه البرهان أن ذلك العلم مُنَزه عن أن يوصَف بـ"كلي" أو "جزئي"، فلا معنى للاختلاف في هذه المسألة، أعني في تكفيرهم أو لا تكفيرهم.[3]

وهو يرى أن القول بقِدَم العالم أو حدوثه ينبغي أن يُحمل على الاجتهاد،

---

(١) المصدر نفسه: ص ٣٥- ٣٦

(٢) الحكماء المشّاءون : تلامذة أرسطو، سُموا بذلك لأن أرسطو كان يدرس لهم وهو يمشي في حديقة مدرسته

(٣) ابن رشد – فصل المقال: ٣٩- ٤٠

فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها، ولا يكفر البعض الآخر، وفي القرآن آيات تفيد وجود عالم غير العالم ولا بد من تأويلها فعلى سبيل المثال الآيات الواردة في [هود: ٧، إبراهيم: ١٤، فصلت: ١١][1]

ويبين لنا ابن رشد ميزان التوفيق بين الشريعة والفلسفة، فيقول: "فيجب على من أراد أن يرفع هذه البدعة من الشريعة أن يعمد إلى الكتاب العزيز، فيلتقط منه الاستدلالات الموجودة في شيء مما كلفنا اعتقاده، ويجتهد في نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئاً إلا إذا كان التأويل ظاهرا بنفسه، أعني ظهوراً مشتركاً للجميع، فإن الأقاويل الموضوعة في الشرع لتعليم الناس إذا تُؤملت يشبه أن يبلغ من نصرتها إلى حد لا يخرج عن ظاهرها ما هو منها ليس على ظاهره إلا من كان من أهل البرهان. وهذه الخاصة ليست توجد لغيرها من الأقاويل. فإن الأقاويل الشرعية المصرح بها في الكتاب العزيز للجميع لها ثلاث خواص دلت على الإعجاز: إحداها: أنه لا يوجد أتم إقناعاً وتصديقاً للجميع منها؛ والثانية: أنها تقبل النصرة بطبعها إلى أن تنتهي إلى حد لا يقف على التأويل فيها- إن كانت مما فيها تأويل- إلا أهل البرهان. والثالثة: أنها تتضمن التنبيه لأهل الحق على التأويل الحق.

وهذا ليس يوجد لا في مذاهب الأشعرية ولا في مذاهب المعتزلة: أعني أن تأويلاتهم لا تقبل النصرة ولا تتضمن التنبيه على الحق، ولا هي حق؛ ولهذا كثرت البدع. وبودنا لو تفرغنا لهذا المقصد وقدرنا عليه، وإن أنسأ (أطال) الله في العمر فسنثبت فيه قدر ما يسر لنا منه، فعسى أن يكون ذلك مبدأ لمن يأتي بعد؛ فإن النفس مما تخلل هذه الشريعة من الأهواء الفاسدة والاعتقادات المحرفة في غاية الحزن والتألم، وبخاصة ما عرض لها من ذلك من قبل من ينسب نفسه إلى الحكمة. فإن الأذية من الصديق هي أشد أذية من العدو، أعني أن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة، فالأذية ممن يُنسب إليها هي أشد الأذية- مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة، وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة. وقد آذاها أيضاً كثير من الأصدقاء الجهال ممن ينسبون أنفسهم إليها، وهي الفرق الموجودة فيها. والله يسدد الكل ويوفق الجميع لمحبته ويجمع قلوبهم على تقواه

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١- ٤٣

ويرفع عنهم البغض والشنآن بفضله وبرحمته. وقد رفع الله كثيراً من هذه الشرور والجهالات والمسالك المضلات بهذا الأمر الغالب، وطرق به إلى كثير من الخيرات وبخاصة على الصنف الذين سلكوا مسلك النظر ورغبوا في معرفة الحق. وذلك أنه دعا الجمهور من معرفة الله إلى طريق وسط ارتفع عن حضيض المقلدين وانحط عن تشغيب المتكلمين، ونبه الخواص على وجوب النظر التام في أصل الشريعة".[1]

ولمزيد الإيضاح نقول إن شروط صحة الآلة التي نستخدمها في عمل أي شيء ليس منها أن يكون صانعها مسلماً أو غير مسلم؛ ثم إن العلم بالموجودات يحتاج إلى الزمن الطويل، وتداول الفحص عنها من شخص لآخر ومن جيل لجيل، واحداً بعد واحدٍ، وأن يستعين في ذلك المتأخرُ بالمتقدم، كما هو الحال بالنسبةً للعلوم التجريبية والاكتشافات والاختراعات، فإن إنساناً واحداً مهما بلغ علمه وذكاؤه، ومهما طال عمره لا يمكن أن يستقل بمعرفة مقادير الأجرام السماوية وأشكالها وأبعادها، ولا بمعرفة قدر الشمس من الأرض وغير ذلك من مقادير الكواكب؛ بل لو قيل لشخص ما: إن الشمس أعظم من الأرض بنحو مائة وخمسين ضعفاً أو ستين، لَعَدّ هذا القولَ جنوناً من قائله. وهذا شيء قد قام به البرهان في علم الهيئة قياماً لا يشك فيه من هو من أصحاب ذلك العلم.

والشيء نفسه يقال بالنسبة للفقه، فإن إنساناً واحداً لا يمكن أن يلم بأصول الفقه، ومذاهب الفقهاء، واختلافاتهم في جميع الأعصار و الأمصار؛ وإذا كان من الصعب أن يلم الإنسان بمفرده بأصول الصنائع ومبادئها العلمية والعملية، فكيف بصناعة الصنائع، وهي الحكمة؟.

ويرى ابن رشد أن الأجْدر من الوجهة الشرعية أن يتعاطى النظر والفلسفة مَنْ هو أهلٌ لذلك، يعني مَن جَمَعَ أمرين أحدهما ذكاء الفطرة، والثاني العدالة الشرعية والفضيلة العلمية والخلقية. وهكذا فإن ابن رشد يوجب على المشتغل بالفلسفة أو بالفكر بشكل عام ألاّ يخرج عن أحكام الشريعة، وأن يكون متسلحاً بالأخلاق الفاضلة، محبّاً للإنسانية، وليس كارهاً لها أو متربصاً بها[2]؛ وإذن فابن رشد لا

---

(١) المصدر نفسه: ص ٦٥- ٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦- ٢٧

يقول بعلمنة الفلسفة، أو بِفَصْل الدين عن الفكر الإنساني. وفي هذه القرينة ننوه بما قاله الفارابي في المدينة الفاضلة من أن السعادة لا تنال إلا بالتعاون، وبخاصة التعاون الفكري بين الناس، يقول: "فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال الذي لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين".[1]

ويرى ابن رشد أن الفلسفة ليست معيبة بذاتها، وإنما بالغرض الذي لَحِقَها، وهو تناول أهل الأهواء والشهوات لها ومُعِيبِي النظر لها.[2] والفلسفة عنده ليست غاية في ذاتها، بل هي وسيلة لتحقيق مصالح الإنسان الدينية والسياسية، وهي ليست مضادة للدين، وإنما هي مساعدة له أو متضافرة معه. وقد رأينا كيف ركز فيلسوف الأندلس على ضرورة الإيمان من خلال البرهان العقلي الذي يطالب به الدين نفسه؛ ومع ذلك فإن أبا الوليد لم يقل بإحلال الإيمان المبني على العقل، والحجة والدليل محل الإيمان بالوحي، كما نادى به فيما بعد أوجست كومت الذي ظل يطالب بوضع "نظام اجتماعي جديد" وبضرورة "إعادة النظام العقلي".[3]

ولكنه مما يلاحظ بوضوح أن الفلسفة اليونانية قد وَجدت بين المسلمين بيئة أكثر خصباً من البيئة التي وُلدت فيها، ولم تجد هذه الفلسفة بين المفكرين المسلمين ما وجدته من نقدٍ ومعارضة بين فلاسفة اليونان، بل على العكس فقد وجدت ما يشبه التقديس من قِبَل فلاسفة المسلمين بصورة عامة، مما نتج عنه رفض العلماء والفقهاء لها، هذا من جانب؛ ومن جانبٍ آخر قلة، إن لم يكن انعدام، الدراسة النقدية للفلسفة مما ساعد على جمود الفكر الفلسفي عند المسلمين في الأجيال اللاحقة. وهذا هو السبب الحقيقي، لا غيره، في ضمور النزعة الفلسفية، والفكر العقلي عند المسلمين شيئاً فشيئاً، واستمر هذا الضمور ينمو حتى انتقلنا من دور التقديس الفلسفي للفلسفة اليونانية إلى دور المقلدين للفلسفة الغربية، هذا على الرغم من سَبْقنا في هذا المجال المهم من هذا النشاط الإنساني. وقد كان الفلاسفة

---

(١) عبد الواحد: في المدينة الفاضلة للفارابي- مكتبات عكاظ- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م- ص ٤٤.

(٢) ابن رشد- فصل المقال: ٣٠- ٣٣.

(٣) انظر: محمد حسين هيكل- الإيمان والفلسفة والمعرفة- القاهرة- النهضة المصرية ١٩٦٤م ص ٤٤، ٦٠

المسلمون العظام، من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، من أقدر العلماء على توسيع مجال الفلسفة، واستحداث فلسفات جديدة.

وعلى أية حال، ومهما يكن الأمر، فإن مفكري الإسلام قد أبدوا اهتماماً بالغاً بالفلسفة اليونانية، فأحاطوها بكل عناية ورعاية، وطوروا منها، وشرحوها ووطؤوها بعد أن قد تُرجمت إلى العربية، وهذا في حد ذاته يدل دلالة واضحة على تقدير المسلمين للتراث الإنساني وللعقلية الإنسانية أياً كان موطنها، فهم لم يعادوها، ولو عادوها لأبادوها، لا سيما إذا عرفنا أن فلاسفة المسلمين الذين تبحروا في الفلسفة اليونانية كانوا من حفظة القرآن الكريم، ومن الفقهاء والصوفية، ومن الراسخين في العلوم الإسلامية بفروعها المختلفة.

المبحث الثالث

الرسائل: قراءة نقدية تحليلية

في فقرة مهمة من مقدمة الرسائل يقول إخوان الصفا: "هذه فِهْرِسْت رسائل إخوان الصفا وخِلّان الوفا، وأهل العدل، وأبناء الحمد، بِجُمَل معانيها وماهِيّة أغراضهم فيها، وهى اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم وغرائب الحِكم وطرائف الأدب، وحقائق المعاني، عن كلام الخُلَصاء الصوفية، صان الله قدرهم، وحرسهم حيث كانوا في البلاد. وهى مقسومة على أربع أقسام: فمنها رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية. فالرسائل الرياضية التعليمية أربع عشرة رسالة: الرسالة الأولى منها في "العدد" وماهيته وكميته وكيفية خواصه. والغرض المراد من هذه الرسالة هو رياضة أنفس المتعلمين للفلسفة، المؤثرين للحكمة، الناظرين في حقائق الأشياء، الباحثين عن علل الموجودات بأسرها. وفيها بيان أن صورة العدد في النفوس مطابق لصور الموجودات في الهيولي، وهي أنموذج من العالم الأعلى، وبمعرفته يتدرج المرتاض على سائر الرياضيات والطبيعيات. وإن علم العدد جذر العلوم، وعنصر الحكمة، ومبدأ المعارف، وإِسْطِقِس (بمعنى الأصل وهو اسم يوناني مُعَرّب، وهي أربعة: الماء والأرض والهواء والنار) المعاني".[1]

من هذه الفقرة يتبين عدة أمور: منها أن الرسائل قد كُتبت جُملةً واحدةً، أو على الأقل فإنها قد ظهرت فى وقت واحدٍ، وكأنها كِتاب قائم بذاته؛ هذا على الرغم من أنها تحتوي على رسائل كثيرة وأنّها تتضمن إشارات إلى فترات زمنية متباعدة.

يضاف إلى ذلك أن الطريقة المتخلخلة التى كُتبت بها الرسائل، وكذلك تداخل موضوعاتها تدل على أنها قد كُتبت في أوقات مُختلفة بواسطة كُتّابٍ مُختلفِين. ومِما تجدر الإشارة إليه أن التسمية- أعني "إخوان الصفا وخلان الوفا"- هى

---

(١) الرسائل: ٢١/١

التسمية التى أطلقها الإخوان على جماعتهم، هذا مع أن الرسائل تحمل العديد من الأوصاف الأخرى التى ألحقها إخوان الصفا على أنفسهم، على سبيل المثال أهل العدل وأبناء الحمد ... الخ.

وقد حَدَّد كُتَّاب الرسائل عدد رسائلهم باثنتين وخمسين رسالةً، ألحقوا بها فيما بعد الرسالة الجامعة؛ وقد ذكروا فى الرسالة التاسعة من العلوم الناموسية والشرعية فى كيفية أنواع السياسات وكمياتها- وهى الرسالة الخمسون من مجموع رسائلهم- أن الرسالة الجامعة، وهى غير الاثنتين والخمسين رسالةً، إنما لَخصوا فيها مُجمل ما جاء في رسائلهم؛ وذلك حتى يتسنى لمن لم يستطع أن يَحوز الرسائل كاملة أن يعرف بصورة مختصرة ما تشتمل عليه هذه الرسائل من خلال هذه الرسالة الجامعة.[1]

وقد ضَمّن الإخوانُ رسائلهم كل ما شاع فى عصرهم من علوم الدين، والفلسفة، والأدب، والحِكَم، والتصوف، والنوادر.

بدأ إخوانُ الصفا رسائلهم بالكلام فى الرياضيات، ثم في العلوم الطبيعية، والعلوم النفسانية العقلية، ثم العلوم الشرعية، والإلهيات. وهذا الترتيب للموضوعات ليس ترتيباً عشوائياً، ولا هو في الوقت نفسه ترتيبٌ مبني على أساس خطة محكمة، أو منهج محدد؛ بل إنه تقسيمٌ بحسب المذهب الفلسفي الذي أخذت الجماعة نفسها به؛ وبحسب الرؤية العقلية التي نظر بها إخوان الصفا إلى الأشياء.

لقد كان من المتوقع أن يبدأ إخوان الصفا بالإلهيات، ثم الشرعيات، ثم بالعلوم والأدب؛ وهذا الترتيب هو الذي كان يقتضيه الأمر لجماعةٍ نَسبت نفسها إلى الإسلام، وأَكْثرت من الكلام عن الديانات وعن التطور الروحي للبشرية، وتكلمت عن النبوات، وأصول العقائد والشرائع والأخلاق.

وقد كان ينبغي أن يبدءوا رسائلهم بالكلام فى الوحي؛ وذلك لأن الوحي هو أول ما عَرَف الإنسانُ من علم، كما أنه- أي الوحي- هو الذي عَرَّفَ الإنسانَ بالله، ثم عرفه بنفسه، ثم بالكون من حوله، ثم بالحياة الآخرة، وما يتبعها من موت

---

(١) المصدر نفسه: ٤/ ٢٥٠

وبعث، وحساب، وثواب وعقاب، وجنة ونار؛ لكن يبدو أن الجماعة كانت متأثرة جداً بالفلسفة وبحياة الفلاسفة، فآثروا لذلك أن يبدءوا رسائلهم بطريقة فلسفية، ربما لأنهم رأوا أن هذا المدخل أوفق فى جذبِ أكبر عددٍ من الأتباع إليهم، من المسلمين المتأثرين بالفلسفة ومن جميع أهل الملل الأخرى، وربما فعل الإخوان ذلك أيضاً للتعمية عن مذهبهم الفكري ومعتقداتهم الطائفية الخاصة.

وفي التعليل لاختيار إخوان الصفا ترتيب رسائلهم على هذا النحو يقولون: "الرسالة الأولى منها في "العدد" وماهيته وكميته وكيفية خواصه. والغرض المراد من هذه الرسالة هو رياضة أنفس المتعلمين للفلسفة، المُؤْثِرين للحكمة، الناظرين في حقائق الأشياء، الباحثين عن علل الموجودات بأسرها. وفيها بيان أن صورة العدد في النفوس مطابق لصور الموجودات في الهيولي، وهي أنموذج من العالم الأعلى، وبمعرفته يتدرج المرتاض إلى سائر الرياضيات والطبيعيات. وإن علم العدد جذر العلوم، وعنصر الحكمة، ومبدأ المعارف، وإسْطِقس (أصل) المعاني".[1]

ومن الجدير بالتنبيه عليه هنا أن المتأخرين من الفلاسفة قد خالفوا الأوائل في أكثر المسائل، إذ أن الأوائل قد حصروا مسائلهم في الطبيعيات والإلهيات، يعنى في الكلام عن الباري، والكلام عن العالم، ثم زادوا فيها الرياضيات، وقالوا إن العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: علم "ما"، وعلم "كيف"، وعلم "كم"، فالعلم الذي يبحث في ماهيات "حقيقة" الأشياء أو طبيعتها" سموه العلم الإلهي؛ والعلم الذي يبحث في كيفيات الأشياء سموه العلم الطبيعي؛ والعلم الذي يُطلب فيه معرفة الأشياء سموه بالعلم الرياضي سواءً كانت الكميات مجردةً عن المادة، أو كانت مخالطة لها، أو متصلةً بها، ثم جاء أرسطو فأضاف إلى تلك العلوم علمَ المنطق.[2] وقد تكلم إخوان الصفا عن المنطق "أيساغوجي" في الرسالة العاشرة من الرسائل الرياضية التعليمية.

ويعني إخوان الصفا بالرياضة، الرياضة بنوعيها العقلية، والبدنية؛ والتي

---

(١) المصدر نفسه : ٢١/١

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ٤/ ٢٦

تكتسب عن طريق تعلم المهن والحرف، ومعرفة أسرار الجسم ووظائف أعضائه، وأما الرياضة الروحانية فتحصل عن طريق تهذيب الأخلاق واكتساب القيم، والالتزام بالآداب، والطرق الحكمية في الحياة.

من قراءة العنوان يتبين أن الرسائل ليست من عمل كاتب واحد؛ وإنما هي من عمل مجموعةٍ من الكتَّاب "رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء"، إذ أن هذا العنوان يعني بوضوحٍ أن الرسائل لمجموعة من الكُتَّاب، وليست لكاتب واحد، اللهم إلا إذا افترضنا أن كاتباً واحداً عكف على كتابتها، ولكنه أعطاها هذا العنوان الجَمْعِي باعتبار أنها رسالة أو رسائل مُوَجَّهة!) إلى "إخوان الصفا وخلاّن الوفاء" لتكون لهم بمثابة المصدر والدستور والمنهج الذي تسير عليه، وتلتزم به، وتتجمع حوله، وتستغني به عن مطالعة الكتب الأخرى؛ وقد كان هذا المنهج أشد عوناً لإخوان الصفا على سرية دعوتهم، وعلى إحكام السيطرة على أتباعهم والانفراد بهم دون المجتمع؛ لذلك جاءت الرسائل جامعةً لكل علوم العصر ومعارفه، فقد جاء فى فهرست الرسائل: "هذه فِهْرِسْت رسائل إخوان الصفا وخِلاّن الوفا، وأهل العدل، وأبناء الحمد، بِجُمَل معانيها وماهِيّة أغراضهم فيها، وهى اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم وغرائب الحِكم وطرائف الأدب، وحقائق المعاني، عن كلام الخُلَصاء الصوفية، صان الله قدرهم، وحرسهم حيث كانوا في البلاد. وهى مقسومة على أربعة أقسام: فمنها رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية."[1]

ثم يضيف إخوان الصفا: "فأما الآراء الفاسدة فقد بيناها في رسالة لنا، وأما كيفية الخروج من الجهالات المتراكمة، فقد بيناها في إحدى وخمسين رسالة عملناها في فنون العلوم وغرائب الحِكَم وطرائف الآداب"[2]؛ ومضى كاتب الرسائل أو كُتَّابها في ذكر موضوعات الرسائل تفصيلاً.

وتشتمل الرسائل على ما يمكن أن تشتمل عليه موسوعة علمية، أو كتاب

---

(١) الرسائل: ١/ ٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ١/ ٣٦١.

موسوعي. فقد اشتملت على الرياضة التعليمية المصممة لرياضة أنفس المتعلمين للفلسفة التربوية المؤثرين للحكمة أو تدريبهم؛ كما اشتملت على الهندسة، وبيان ماهيتها، وكمية أنواعها، وكيفية موضوعاتها، والغرض منها؛ والنجوم وتركيب الأفلاك وصفة البروج وسير الكواكب والوقوف على تأثيرها فى هذا العالم وبالذات فى الإنسان والغرض من دراستها، كما اهتمت الرسائل بالموسيقى كمدخل إلى علم صناعة التأليف، يعني بين النغمات والألحان الموزونة التي لها تأثيرات في نفوس المستمعين لها؛ ولتأثير الأدوية والأشربة والترياقات في الأجسام الحيوانية، وبيان أن للأفلاك في حركاتها ودورانها واحتكاك بعضها ببعض نغماتٍ وألحاناً كنفحات أوتار العيدان على سبيل المثال.

ويبني إخوان الصفا حركة خلق الإنسان وتكوينه وميلاده وشخصيته وسعيه وكسبه وميوله ونوازعه بحسب تأثير النجوم؛ والطبيعة عندهم متحركة أصلاً عن آلة فلكية.[1] وينبغي ألا يُفهم من ذلك أن إخوان الصفا يعتقدون فى قوةٍ للفلك تُؤثِّر بذاتها في الأشياء؛ بل إن الفَلَكَ عندهم مخلوقٌ من خلق الله، قادرٌ بقدرته تعالى، مُسَيَّرٌ بأمره، بلا مشيئة منه ولا اختيار له.

وجرياً على عادة إخوان الصفا فى عرض الغرض من كل علم فقد ذكروا الغرض من معرفة الموسيقى والاستماع إليها، والاستمتاع بها؛ وهذا الغرض عندهم خلقي أخروي، وهو التشوق إلى عالم الكمال وتمام الانسجام.

وتكلم إخوان الصفا في الرسالة الخامسة عن علم الجغرافيا وصورة الأرض، وبيان أنها كروية فى شكلها، وبما عليها من الجبال والبحار والبرارى والأنهار والمدن والقرى، وأن الأرضَ حيةٌ، تشبه صورةَ حيوانٍ تامٍ عابدٍ لله تعالى، بجميع أعضائها وأجزائها وظاهرها، وباطنها، وكيفية تخطيطها وتقديرها ومسالكها وممالكها.

ونصت الرسائل على أن الغرض من الكلام عن الأرض ليس هو مجرد تحصيل العلم أو الانتفاع به فى الجانب المادى منه فقط؛ بل هو، بالإضافة إلى ذلك، للتنبيه على علةِ ورود النفس إلى هذا العالم، وكيفية اتحادها، وعلة ارتباطها بغيرها،

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٣٠٧، ٣/ ٥٣٣.

واستعمالها الحواس، واستنباطها للقياس، والتنبيه على خلاصها، والحث على النظر والتفكر فيما نصب الله تعالى لنا من الدلالات، وأرانا من الآيات التي في الآفاق والأنفس، حتى يتبين للناظر أنه الحق فيتمسك به، ويزدلف إليه، ويتوكل في أحواله عليه؛ فيستعد للرحلة، والتزود إلى الدار الآخرة قبل الممات وفناء العمر، وتقارب الأجل وفوت الأمل ووجدان الحسرة والندامة".[1]

وقد ذكر إخوان الصفا أن الأرض هي مركز العالم، كما أن البيت الحرام بمكة هو مركز الأرض. واضح من هذا العرض المختصر للرسائل أن إخوان الصفا قد سبقوا إلى القول بكروية الأرض؛ ولكنهم أضافوا إلى ذلك أن الأرض ليست كروية فى شكلها الخارجى فقط؛ بل بكل ما عليها من جبال وبحار وأنهار وغير ذلك. وقد كتب ابن حزم الأندلسي فصلاً كاملاً في كتابه "الفِصَل في الملل والأهواء والنحَل" عن كروية الأرض، وقد جعل السلوك الإنساني والأخلاق كروية كذلك.[2]

نذكر مرةً أخرى بأنه من العنوان يتضح أن للإخوان غرضاً ومنهجاً من وراء كتابة الرسائل، يعني إنّها رسائل موجهة، لها خطة محددة ولها غرض معروف. وإطلاق لفظ الرسائل على الأعمال العلمية له تاريخ عند العلماء، قبل إخوان الصفا، وعلى عصرهم.

وليس من قصدنا أن نتوسع في دراسة هذه الرسائل هنا بطريقة مستفيضة ومستقصية؛ ولكننا سوف نكتفي باستعراض الموضوعات التي تكلم فيها إخوان الصفا في رسائلهم مع إبراز العلاقات بينها، والخلفيات التاريخية التي تقف من ورائها، والأغراض التي تؤدي إليها، عن طريق التفكيك، ثم إعادة التجميع حتى يتضح الأمر جلياً؛ وقد أشرنا فيما سبق إلى اعتقاد إخوان الصفا في أن الأرض كالحيوان التام، أي التام في هيئته وتركيب أعضائه، وفي وظيفته وأدائه؛ واتساق هذا الكلام مع ما ذكره الله تعالى في القرآن عن الأرض فيه حياة ومنة الحياة،

---

(١) انظر الرسائل: ١/٢٣،

(٢) انظر ابن حزم – الأخلاق والسير– و د. محمد أبو ليلة – الحث على الفضيلة ط١ لندن ١٤١١هـ/١٩٩٠م؛ وانظر أيضا: ابن حزم– الفِصَل في الملل والأهواء والنحل– القاهرة– مطبعة صبيح ١٩٦٤م– ١ / ٥

كمخلوق عابد لله تعالى، خاضع له عز وجل.

يقول الله تعالى عن الأرض: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٥-٦]، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

وفي الرسالة السادسة يتكلم إخوان الصفا في موضوع: "النسب العددية والهندسية، والتأليفية، وكمية أنواعها، وكيفية ترتيبها"، ثم عن الغرض منها، والغرض هو معرفة أسرار المخلوقات، وخفياتها، وحقائقها وبواطن الحكم ومعانيها، وعلى أنها على الرغم من تباينها وتنافر طباعها تقوم على نسب متعادلة متناغمة وأن بقاءها أو فناءها مرتبط بقيام هذه النسب المتعادلة أو اضمحلالها والنسبة عندهم على ثلاثة أنواع: كمية ويقال لها نسبة عددية، وكيفية ويقال لها نسبة هندسية، وكمية وكيفية معاً ويقال لها نسبة تأليفية أو توفيقية وموسيقية، وهم يقولون بأنه: "قد اتفقت الأنبياء والفلاسفة بأن الله عز وجل، الذي لا شريك له ولا شبيه له، واحد بالحقيقة من جميع الوجوه، وأن كل ما سواه من جميع الموجودات مثنوية مؤلفة ومركبة؛ وذلك أن الله لما أراد إيجاد العالم الجسماني اخترع أولاً الأصلين وهما الهيولي[1]، والصورة ثم خلق منها الجسم المطلق، وجعل

(١) هيولي Hyle كلمة يونانية الأصل، وتعني المادة الأولى، وهو كل ما يقبل الصورة؛ ويرجع القول بالهيولي إلى أرسطو، وقد أخذ بها المدرسيون Scholastic في القرون الوسطى. "المعجم الفلسفي ص ١٧٣، ٢٠٨.

بعض الأجسام يعنى الأركان على الطبائع الأربع التي هى الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، والأركان هى النار والهواء والماء والأرض. ثم خلق من هذه الأركان جميع ما على وجه الأرض من الحيوان والنبات والمعادن. واعلم أن هذه الأركان متفاوتات القوى، متضادات الطبائع، مختلفات الصور، متباينات الأماكن، متعاديات متنافرات، لا تجتمع إلا بتأليف المؤلف لها. والتأليف متى لا يكون على النسبة لم يمتزج ولم يتحد".[1]

وفى التعليق على النص السابق نقول إن مذهب اثنينية الخلق عند إخوان الصفا يرجع في أصله إلى القرآن، يقول تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

ومضى كُتَّاب إخوان الصفا يطبقون قاعدة الاثنينية أو الزوجة في المخلوقات على أصوات النغم الموسيقية أو الطبقات، وعلى علم العروض والشعر، وحروف الكتابة، وعلى أصباغ المصورين، مختلفة الألوان، متضادة الشعاع؛ وعلى أعضاء الإنسان ومفاصلة، وعلى عقاقير الطب وأدويتها. ثم طبقوها على أشكال الحيوان والنبات وهيئاتها وألوانها وطعومها وروائحها إلى حسب تركيب أجزاء الأركان الأربعة ... ونسبة مقادير أجزائها، وقرب بعضها من بعض. وبهذه النسب تتأثر البِنَى (جمع بِنْيَة)، والنفوس والصور والأمزجة[2].

الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفا وتدور حول "الصنائع العلمية النظرية وكمية أقسامها وكيفية مراتبها، وإيضاح طرائقها ومذاهبها"؛ والغرض منها معرفة أجناس العلوم وأنواع الحكم، وبيان أغراضها وحقائقها، وتمهيد السبيل إلى طلبها، والفوز بها، والعلم هو أساس الدين والصنائع والأخلاق والمعاملات.

الرسالة الثامنة في الصنائع العملية والمهنية وتعديد أجناس الصنائع العملية والْحِرَف؛ والغرض منها هو تنبيه نفوس الغافلين على معرفة جواهرها التي تؤثر

---

(١) الرسائل ١/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢) انظر المصدر نفسه ص ٢٤٥

فيهم، وتساعدهم على استنباط الصنائع كلها وما به تقوم حياتهم.

الرسالة التاسعة في بيان اختلاف الأخلاق، وأسباب اختلافها، وأنواعها، ونكت من آداب الأنبياء وسننهم، وزُبَد من أخلاق الحكماء وسِيَرهم. وهذه رسالة مهمة في الكلام عن القِيَم والأخلاق وتهذيب النفوس وإصلاح الفرد والمجتمع. والعلم والأخلاق يُمَثّلان قاعدة المجتمع، وبهما معاً يتم الوصول إلى البقاء الدائم، والسرور المقيم، وتكمل السعادة في الدنيا والآخرة.

ترتكز نظرية الأخلاق في فكر إخوان الصفا على الثابت والمتغير. فالأخلاق ثابتة، وليست نسبية ولا متغيرة، وإنما يتغير الإنسان في موقفه منها. والأخلاق عندهم تتصل بمبادئ الكائنات وعلة الموجودات، وهي راجعة في الأصل إلى شهوة البقاء، وكراهية الفناء. وهذا هو الأصل والقانون لجميع شهوات النفوس المركوزة في جِبِلّتِها (لأن الأخلاق منها القبيح ومنها المليح)، وإن هذه الأخلاق المركوزة في الجبلة الإنسانية أصولٌ وقوانين لجميع أفعال النفس وصنائعها ومعارفها ومتعرفاتها.[1]

ويرى إخوان الصفا أن الإنسان يتأثر بالبيئة المحيطة به، وأن العناصر الطبيعية التي يعيش في وسطها تؤثر فيه وكذلك الصحبة والجوار، وإنه لكي يتخلص من سيطرة الطبيعة عليه، ولكي يخرج من قبضتها إلى عالم الحرية، عالم السعي الحر، ولكي يترقى إلى الأفضل لا بد وأن يجتهد في العمل، ويسعى دائما للحصول على الأفضل. وأن يتخير أصدقاءه ومعارفه. وقد خلَقنا الله تعالى على نحو تتعاون فيه أعضاؤنا وأحاسيسنا على جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها؛ وكذلك سخر الله لنا الطبيعة، وجعل عناصرها متعاونةً معنا كذلك. يقولون: "الطبيعة هي خادمة للنفس ومقدمة لها، وأن النفس خادمة للعقل ومقدمة له، وأن العقل خادم للناموس ومقدمة له؛ وذلك أن الطبيعة إذا أصلت خلقاً وركزته في الجبلة، جاءت النفس بالاختيار، فأظهرته وبينته، ثم جاء العقل بالفكر والروية فتممه وكمَّله، ثم جاء

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٣١٦ - ٣١٧

الناموس بالأمر والنهي فسَوّاه وقوّمه وعدّله...".[1]

ولإخوان الصفا ملحظ طيب في تفسيرهم للفوارق بين الناس، يقولون: "فاعلم يا أخي أن من نعم الله وإحسانه وإكرامه ما يخص به خواصٌ من عبيده بِحَسب اجتهادهم وسعيهم وحسن معاملتهم، ويحرمه قوما آخرين عقوبة لهم، إذ كان سعيهم واجتهادهم ومعاملتهم بخلاف سعي أولئك واجتهادهم، فهذا الباب من عدله وإنصافه بين خلقه، إذ كان الإحسان إليهم والنِّعم التي هي من قِبَله تفضلاً عليهم تعمُّهم كلهم والتي يستحقونها بحسب سعيهم، ويَستأهِلونَها باجتهادهم لا يساوي بينهم فيها، إذ لَم يكونوا متساوين في العمل."[2]

ويقولون: إن الله لم يرسل الرسل والأنبياء بما هو فوق طاقة الأنبياء أو فوق طاقة المدعوين، وإن الله تدرج معهم في الدعوة إلى الدين على لسان النبيين، وأنه تعالى إنما كلَّفهم ليبتليهم بالأحكام، وليجعلها لهم في الوقت نفسه عللاً وأسباباً لِيُرقِّيهم فيها وينقلهم بها حالاً بعد حال إلى أن يبَلِّغَهم إلى أتم حالاتهم وأكمل غاياتِهم.[3]

ويضيفون قولهم: "بأن كل علم وأدب لا يؤدي صاحبه إلى طلب الآخرة، ولا يعينه على الوصول إليها فهو وبالٌ على صاحبه وحجة عليه يوم القيامة.."[4]

ويعوِّل إخوان الصفا على التربية في تقويم السلوك وتثبيت العوائد الصالحة وطرد العادات السيئة، يقولون: "واعلم بأن العادات الجارية بالمداومة فيها، تقوّي الأخلاق المشاكلة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها، والدرس لها، والمذاكرة فيها يقوّي الحذق بها والرسوخ فيها؛ وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدُّؤوب فيها يقوّي الحذق والأستاذية فيها، وهكذا جميع الأخلاق والسجايا..."[5]

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٣١٩

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٣٤٣- ٣٤٤

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٥

(٤) المصدر نفسه: ٣٤٩

(٥) المصدر نفسه: ٣٠٧

يقول كُتّاب الرسائل بالإضافة إلى ما سقناه: "الأمور الطبيعية محيطة بنا ومحتوية على نفوسنا كإحاطة الرحم بالجنين، وكإحاطة قشرة البيضة بمحلها (صفرتها)، كل ذلك حرص من الطبيعة على تتميمها وتكميلها، وصيانتها من الآفات العارضة، إلى أجل معلوم، فإذا جاء وقت الخروج بعد تتميم البنية، وتكميل الصورة؛ فالجنين حينئذ هو الذى يحرك أعضاءه، ويركض برجليه، ويضرب بيديه، حتى يخرق المشيمة، وتنقطع تلك الأوتار والرباطات، التي كانت تمسكه هناك، ويمكنه الخروج من الرحم، وكذلك أفعال الفرخ بالبيضة. فهذا قياسٌ، ودليلٌ لكل نفس تريد فراق الدنيا، والخروج من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح، وتنبيه لها على أنه ينبغي لنا أن نتحرك و نجتهد، حتى ندفع عن أنفسنا الأخلاق الطبيعية المركوزة في الجبلة المذمومة منها، المانعة للنفوس عن النهوض والخروج من عالم الكون والفساد إلى عالم الأفلاق وسعة السماوات، ومعدن الأرواح ومقر النفوس".[1]

ولأن الإنسان بعقله وحده لا يستطيع أن يصل إلى معرفة أهمية الأخلاق ومدى حاجته إليها "بعث الله النبيين والمرسلين مُؤَيَّدِين ليُعْلِموا الناسَ هذه الأوامر، ويعرفونهم هذا الخطب، وينبهونهم عليه، ويدعوهم إليه، ويرغبوهم فيه، ويحثوهم على طلبه، ويكلفوهم الاجتهاد في نيله طوعاً أو كرهاً؛ وهذه من جسيم نعم الله تعالى على عباده، وعظيم إحسانه إليهم الذى عمهم كلهم، ولم يخص أحدهم دون الآخر".[2]

وتأكيداً على دور النشأة والتربية في تأسيس مبادئ القيم والأخلاق في النفوس، يقول إخوان الصفا: "اقتضت العناية بواجب حكمة الباري، جل ثناؤه، أن ينشأ (الإنسان) نشوءً آخر، كما ذكر الله، جل ثناؤه، بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[3]، وقال: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾[5]، فبعث بلطفه أنبياءه ورسله يرغبونهم فيها، ويدلونهم على طريقها كيما يطلبوها، ويكونوا لها مستعدين قبل الورود إليها. ولكي يسهل عليهم مفارقة ما ألفوا من

(١) المصدر نفسه: ١/ ٣١٦ - ٣١٧

(٢) المصدر نفسه ص٣٤٣

(٣) [الواقعة: ٦٢]

(٤) [الواقعة: ٦١]

(٥) [العنكبوت: ٢٠]

لها مستعدين قبل الورود إليها. ولكي يسهل عليهم مفارقة ما ألفوا من الدنيا من شهواتها ولذاتها، وتخف عليهم شدائد الدنيا ومصائبها... وحذروهم أيضا التواني في طلبها كي لا يفوتهم ما وعدوا به، فإن من فاته، فقد خسر الدنيا والآخرة جميعها، وضل ضلالاً بعيداً، وحسر خسراناً مبيناً".[1]

الأخلاق عند إخوان الصفا يجب أن تكون عملية؛ تهدف إلى توطئة السبيل إلى السعادة في الدنيا والآخرة. وهى أخلاقٌ تقوم على العلم والعمل معاً؛ ولا أخلاق بدون علم، كما أن العلم بدون أخلاق مضيعةٌ ومهلكةٌ للإنسان.

يقول إخوان الصفا: "فاجتهد أن تكتسب معلومات كثيرة، تكن أفعالك كلها حِكْمِيَّةً زكية، فإنها القِنْيَةُ الروحانية، كما يجتهد أبناء الدنيا في اكتساب المال الذي هو القِنْيَة الجسدية. واعلم أنه كما أن المال يتمكن الإنسان به مما يريده من اللذات في الدنيا، وطيب العيش؛ فهكذا بالعلم تتمكن النفس من اللذات في الدار الأخرة، وبالعلم يتقرب إلى الله أبناءُ الأخرة، وبه يتفاضل بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]".[2]

ولكي يصل إخوان الصفاء بالأخلاق إلى حياة الناس وواقعهم الذى يعيشونه، ولا يكتفون بمجرد الكلام النظري، فإننا نراهم يُقدِّمون أمثلةً واقعيةً من حياة الأنبياء والزهاد والمتصوفة، كما نجدهم يَحضّون أتباعَهم دائماً على التخلق بأخلاق الأصفياء والأولياء، مُنوِّهين بطريقة أو بأخرى إلى أن الأخلاق الإسلامية أخلاق عملية، تؤدى إلى الولاية والزهادة، والسعادة في الدنيا والآخرة.

لقد توسعنا في الحديث عن الأخلاق عند إخوان الصفا، وذلك لأهميتها العقائدية والسلوكية، بل لاشتمالها على ما جاء به الإسلام، ولأن الأخلاق تُمثل نقطة الكمال في شخصية الرسول العظيم ﷺ الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]، وقوله ﷺ عن نفسه: "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ**"[3]، وفي رواية أخرى "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**"، ووصفت السيدة

---

(١) الرسائل: ١ / ٣٤١ – ٣٤٢

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٣٩٩.

(٣) انفرد به أحمد بن حنبل، عن أبي هريرة في مسنده. باب مسند المكثرين حديث رقم ٨٥٩٥.

عائشة رضى الله عنها أخلاق النبي ﷺ وقد سُئلت عنها، بقولها: "كَان خُلُقُهُ القُرآن".[1]

تأتي بعد ذلك الرسالة العاشرة لتتكلم عن "إيساغوجي" أي علم المنطق والبرهان، وما يتصل بهما. والغرض منه هو "التنبيه على ما يُقَوِّم ذات الإنسان، ويُتَمِّمُه، ويعرفه البقاء الدائم، ويعرفه الفرق بين الكلام المنطقي، والكلام اللغوي والفلسفي"، وذلك لتثقيف عقل الإنسان، وتصويب تفكيره للتوصل إلى الحقائق، وتجنب الخطأ، والزلل في التفكير وفي إصدار الأحكام الخاطئة على الأشياء أو الأفكار، كما أن علم النحو يعصم اللسان من الوقوع في الزلل عند الكلام، ويُجنبه اللحن فيه.[2]

الرسالة الحادية عشرة وتدور حول "قاطيفورياس" يعنى علم البيان عن المعقولات الكليات "Categories"؛ وتُطلَق المقولة بوجه عام على كل تصور له مفهومٌ واسعٌ، تندرج تحته الأفكار والوقائع. وعند أرسطو تُطْلق المقولة على الأجناس العشرة، التي تُكَوِّن مقولات الوجود، وهي الجوهر وأعراضه التسعة: الكيف والكم، والإضافة والمتى والأين والوضع والفعل والانفعال والملك.

وفي هذه القرينة نذكر أن "كَانْط" اعتبر المقولةَ أحدَ المعاني الكلية الأساسية للعقل الخالص، وترجع المقولة عنده إلى طبيعة الحكم في صوره المختلفة، وهي تنحصر في أربعة أنواع من حيث الحكم والكيف والإضافة والجهة، وهذا الاختلاف بين الفيلسوفين مرجعه أن أرسطو نَظَرَ إلى المقولات العشرة من ناحية الوجود بينما نظر إليها كَانْط من ناحية المعرفة. والمقولات عند كانط سابقة على المعرفة.[3]

والغرض من كلام إخوان الصفا في المقولات العشر هو البيان بأن معاني الموجودات كلها تجمعها هذه المقولات العشرة، الأجناس والأنواع والأشخاص والأمهات أي الأصول، ولأنها كما يقولون: "حدائق الآداب، وبساتين العلوم، وجنات الحكم، وفواكه النفوس، ونزه الأرواح".[4]

---

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده. باب باقي مسند الأنصار. رقم (٢٤١٣٩)، ونصه حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ زُرَارَةَ عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) فَقُلْتُ أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ".

(٢) الرسائل: ١/ ٢٤- ٢٥ .

(٣) انظر المعجم الفلسفي ص ١٩٠-١٩١

(٤) الرسائل: ١/٢٥ .

الرسالة الثانية عشرة من رسائل إخوان الصفا، وتتكلم عن "باريمانياس"، يعنى الكلام في العبارات، وأداء المعاني على حقها، والإبانة عنها، والغرض منها تبيين طرق الكلام، ومعرفة الصدق والكذب، والصواب من الخطأ.

وأما الرسالة الثالثة عشرة فيجندونها لموضوع القياس "أنولوطيقا الأولى" syllogism، الذي يسمونه "الميزان بالقسط"؛ وقد وضعه الفلاسفة ليعرفوا به الصدق من الكذب في الأقاويل، وأي شئ يكون، وكيف يكون، ومتى يكون، وأيها الصحيح، وأيها الفاسد. والقياس يستعمله علماء الكلام والفلاسفة في احتجاجاتهم ومناظراتهم؛ ولهذا السبب درسه إخوان الصفا ضمن رسائلهم.

الرسالة الرابعة عشرة وموضوعها البرهان "Demonstration" فيعده المناطقة أسمى صور الاستدلال؛ لأنه يقوم على مقدمات يقينية، وينتهي بالتالي إلى نتائج يقينية، ومعناه "استدلالٌ ينتقل فيه الذهن من قضايا مُسَلَّمَة إلى قضايا أخرى تنتج عنها ضرورة".[1]

ويعد إخوان الصفا "البرهان" "ميزان البصائر، يقيم الوزن بالقسط، ومثاقيلها (موازينها)، بداية العقول والمعارف الأولى؛ يستعملها الصيارفة الإلهيون من الحكماء الذين يعرفون به الصواب من الخطأ، والحق من الباطل، ويوضح الحق المبين، والعلم اليقين"؛ وهذا هو السبب الذى من أجله درس إخوان الصفا "البرهان" ضمن رسائلهم.

ويبنى إخوان الصفا مذهبهم على الوحي و الناموس، وعلى العقل، وما يصدر عنه من فكرٍ سليمٍ، ومنطق قويم، ويقولون في "فصل أن الحكم على الأشياء بالعقل، والحث على تَحري الصواب".

"واعلم يا أخي بأن الإنسان قادر على أن يقول خلافَ ما يعلم، ولكن لا يقدر أن يعلم خلاف ما يعقل، وذلك أنه يمكنه أن يقول: زيدٌ قائم قاعد في حال واحدة، ولكن لا يمكنه أن يعلم ذلك، لأن عقله ينكره عليه. فلما كان هذا هكذا فلا ينبغي أن ينزل بالحكم على قول القائلين، ولكن على حكم العقول.

---

(١) المعجم الفلسفي: ص ٣٣ .

واعلم يا أخي بأن أهل كل صناعة يحرصون على حِفظ أنفسهم من الخطأ والزلل في صناعتهم، وذلك أن أهل كل علم يتجنبون الخطأ، ويتحرون الصواب والحق، ويجتهدون في ذلك، فينبغي لإخواننا، أيدهم الله وإيانا بروحٍ منه، ومن يتعاطى منهم المنطق الفلسفي أن يحفظ أقاويله من التناقض من أولها إلى آخرها؛ فإن من المتكلمين من يحفظ أقاويله من التناقض في مجلس واحد أو عدة مجالس، ولكن قلَّ من يحفظ كل أقاويله من أوائلها إلى أواخرها، حتى لا يناقض بعضُها بعضاً. مثال ذلك من قال في كتاب له: إن من شأن النفس أن تتبع مزاج البدن. ثم قال في كتاب آخر: لا أدري ما النفس؟ أو مثلُ من يعتقد بأن الله عزّ وجلَّ خلق الخلق لينفعهم، ثم يقول ويعتقد بأنه لا يغفر لهم ولا يخرجهم من النار. ومثل من يعتقد بأن المكان جسمٌ أو عرَضٌ حالٌ في الجسم، ثم يعتقد أنه يبطل الجسم، ويبقى المكان فارغاً. ومثل من يقول: إن الجزء لا يتجزأ. ثم يعتقد بأن له ستّ جهات، وهو يشغل الحيز، وما شاكل ذلك من الأقاويل المتناقضة والآراء الفاسدة يعتقدها إنسان واحد في نفسه، ثم يتعاطى مع هذا المنطق الفلسفي والبرهان الحقيقي. واعلم يا أخي علما يقيناً بأن أهل كل صناعة وعلم إذا لم يكن لهم أصل صحيح في صناعتهم، منه يتفرع علمهم، وقياس مستوٍ عليه يقاس ما يعلمونه، مثل صناعة العدد كما بينا قبل، فإنه لا يمكنه أن يتحرز فيه من الخطأ، ولا أن يتجنب فيه من الباطل، لأن الأصل إذا كان خطأ فالفروع عليه تدور. واعلم بأن من لا يحس بالتناقض في أقاويله، فكيف يوثق به في آرائه واعتقاده، وكيف يؤمن عليه أنه غير معتقد آراءً متناقضة، ويكون فيها مخالفاً لنفسه ولا يدري، وكيف يُرجى منه الوفاق مع غيره، وهو مخالف لنفسه، ومناقض لاعتقاده، وجاهل في معلوماته؟".[1]

ومما يلاحظ في هذا النص أن إخوان الصفا يشيرون إلى كُتُبٍ كانت موجودةً على عصرهم، لم يحددوا لنا عناوينها، ولا أسماءَ مُؤلِّفيها، حتى نرجع إليها، وربما كان ذلك منسجماً مع طريقتهم التي التزموها في الكتابة والدعوة إلى مذهبهم، أعني الاهتمام بالإشارة إلى الفكرة دون المؤلف؛ حسماً لمادة الخلاف ومنعاً للدخول فى

---

(١) الرسائل: ١/ ٤٢٦ - ٤٢٧ .

نزاعٍ مع أصحاب المقالات والمذاهب الأخرى، على أنه يمكننا على الأقل تحديد بعضِ أصحاب هذه الآراء بالرجوع إلى كُتب الفِرَق، كما يتضح من مقدمة الدكتور محمد أبو ليلة على هذا الكتاب.

وفي هذه القرينة ننوه بأن ابن تيمية يخالف فى إعطاء منطق أرسطو تلك القيمة التى تصل إلى حد العصمة والتقديس كما بينه في كتابه "نقض المنطق". يقول على سبيل المثال: "فإذا كانت صناعتهم (أي المناطقة) بين معلومٍ لا يحتاج فيها إلى القياس المنطقي، وبين ما لا يمكنهم أن يستعملوا فيه القياس المنطقي كان عديم الفائدة في علومهم، بل كان فيه من شغل القلب عن العلوم والأعمال النافعة ما ضرّ كثيراً من الناس، كما سدّ على كثير منهم طريق العلم وأوقعهم في أودية الضلال والجهل، فما الظن بغير علومهم التي لا تحد للأولين والآخرين. وأيضاً لا تجد أحداً من أهل الأرض حقق علماً من العلوم وصار إماماً فيه مستعيناً بصناعة المنطق، لا من العلوم الدينية ولا من غيرها".[1]

ويضرب ابن تيمية مثلاً على ذلك بالأطباء والحُسّاب، والكُتّاب فإنهم أتقنوا صناعتهم وحققوها دون الاعتماد على المنطق، ويضيف قائلاً: "إنه قد أُلّفت في الإسلام علومٌ كثيرةٌ كالنحو والعروض والفقه وأصوله... الخ وليس في أئمة هذه الفنون من كان يلتفت إلى المنطق، بل أغلبهم كانوا قبل أن يُعَرَّب هذا المنطق اليوناني".[2]

ويرى شيخ الإسلام أن المنطق فيه ما قد يستفيد ببعضه أهل الكفر والضلال والتقليد غير أنه قد ابتعد بهؤلاء عن العقائد الصحيحة وجعل بعضهم مداهنين لعوامهم، مضلين لهم عن سبيل الله، منافقين زنادقة، لا يقرون بحق ولا بباطل، بل يتركون الحق كما تركوا الباطل.[3]

ويضيف: "فأما أن يكون المنطق وقّفهم على حقٍّ يهتدون به، فهذا لا يقع بالمنطق. ففي الجملة ما يحصل به لبعض الناس من شحذ ذهن، أو رجوع عن باطل أو تعبير

---

(١) ابن تيمية– نقض المنطق– تحقيق محمد حامد الفقي– القاهرة– مكتبة السنة المحمدية ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م ص ١٦٨– ١٦٩

(٢) المصدر نفسه : ١٦٨

(٣) المصدر نفسه: ١٦٩– ١٧٠

عن حق، فإنما هو لكونه (أي الإنسان) كان في أسوأ حال، لا لما في صناعة المنطق من الكمال."[1]

ويقول إن صناعة المنطق: "وضعها معلمهم الأول أرسطو صاحب التعاليم التي لمبتدعة الصابئة يزن بها ما كان هو وأمثاله يتكلمون فيه من حكمتهم وفلسفتهم التي هي غاية كمالهم. وهي قسمان: نظرية وعملية..".[2]

يتضح من هذه النصوص أن ابن تيمية لا يمانع في أن صناعة المنطق تحتوي على بعض الفوائد إلا أنه يرفض مبالغة إخوان الصفا وبعض علماء المسلمين في تقدير قيمة هذا العلم..

بعد أن أتم إخوان الصفا الكلام عن الرسائل الرياضية التعليمية الفلسفية، انتقلوا للحديث عن الرسائل الجسمانية الطبيعية، وهى سبع عشرة رسالة. وهى كالتالي:

الرسالة الأولى: في "الهيولي والصورة وماهيتهما، وتعريف الزمان والمكان والحركة؛ والغرض منها تحديد ماهية الأشياء، وأغراضها عن طريق التعريف الدقيق، وتسمى هذه الرسالة بسمع الكيان، لأن موضوعها أول ما يسمعه المتعلمون، وتسمى أيضاً السمع أو السماع الطبيعي، وهو ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة، قال الجواليقى فى "المعرَّب": إن كلمة "هيولي" سريانية.

الرسالة الثانية: "في السماء والعالم وبيان كيفية أطباق السماوات، وكيفية تركيب الأفلاك، وماهية العرش، وماهية الكرسي الواسع، وتسيير كل ذلك بأمرٍ من الله تعالى".

الرسالة الثالثة: "الكون والفساد" وتبحث في ماهية الصور المقومة للأشياء، وكيفية استحالة الأشياء بعضها إلى بعض باختلاف كيفياتها؛ وقد سبق أن تكلم إخوان الصفا عن النسب وفعلها في الأشياء، وقد أشرنا إلى ذلك في هذا الملخص.

الرسالة الرابعة: في الآثار العلوية، ويتكلمون فيها عن الجو وما يترتب علية من

(١) المصدر نفسه : ١٦٩

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٠ – ١٧١

حوادث وتغييرات.

الرسالة الخامسة: وموضوعها المعادن والجواهر، وكيفية تكوينها، وعلة اختلاف جواهرها.

الرسالة السادسة: ويُبحث فيها في ماهية الطبيعة، وكيفية عملها في الأركان الأربعة "الماء والهواء والنار والأرض" وما يتولد منها من حيوان ونبات ومعادن، وفي الفرق بين العقل الإرادي والعقل الفكري والشوقي، وبين الضروري والطبيعي والقهري منها.

الرسالة السابعة: وتتكلم في أجناس النبات، وما تنطوي عليه من أسرار ومعاجز، وتنوعٍ واختلافٍ في الشكل واللون والطعم والرائحة، وفي المصالح والمنافع، وعن صلة النبات بالمعادن والحيوان.

الرسالة الثامنة: وموضوعها "أصناف الحيوان"، وعجائب هياكلها وغرائب أحوالها، وفي أنواع الحيوان وظائفه وسلوكه، وتأثير ذلك على الإنسان بالخير والشر.

الرسالة التاسعة: وتدور حول "تركيب الجسد" وبأنه في ذاته عالم صغير، وأن بنية الإنسان تشبه مدينة فاضلة، وأن نفسه تشبه ملكاً في تلك المدينة، وبأن الإنسان هو أشرف المخلوقات، وأن النفس الإنسانية هى خليفة الله في أرضه، والإنسان حاكم بين خلق الله تعالى سائساً لبريته، مستعملاً لعالمه السفلي مدة من الزمان، فإذا انتقل صار زينة لعالمه العلوي، وحافظاً لذاته الوجودي إلى الأبد، وأن الإنسان يعرف ربه إذا عرف نفسه.

الرسالة العاشرة: وهى مخصصة للكلام عن "الحاس والمحسوس"، يعنى كيف تُدْرِك الحواسُ محسوساتِها، وتتصل بها بواسطة القوة الحاسة، وعن طريق الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التي انبعثت منها قوى الحواس الظاهرة[1]، ومقصد إخوان الصفا من البحث في تركيب الإنسان أعضائه ووظائفه، وبدائع صنعه تدليل على وجود الصانع وقوته وحكمته ودوام تدبيره وعنايته.

وامتداداً لهذا البحث تأتي الرسالة الحادية عشرة لتتكلم عن مسقط النطفة،

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٩، ٣٠

وكيفية رباط النفس بها وتأثرها في مراحلها وأطوارها المختلفة، بحركة الفلك، ثم بقابليتها عند التهيؤ بالفعل لقبول الأخلاق والأعمال والعلوم والآداب والحكم والآراء. وكان ينبغي، لو جاز لنا أن نُعَدِّل في خطة إخوان الصفا، أن تأتي هذه الرسالة في الترتيب قبل الرسالة السابقة عليها؛ إذ إن مسقط النطفة في الرحم، وتكَوُّن الجنين، ثم ولادته ونشوؤه، يسبق بلا شك، في الترتيب الإيجادي أو الإنشائي، وجود الحواس وكيفية تعاملها مع المحسوسات.

والشيء نفسه يقال بالنسبة للرسالة الثانية عشرة، وموضوعها "في معنى قول الحكماء إن الإنسان عالم صغير"، إذ كان يمكن دمجها مع الرسالة التاسعة "ترتيب الجسد" ويصح أن يكون العنوان في هذه الحالة "تركيب الجسد ومعنى قول الحكماء إن الإنسان عالم صغير". وعلى أي حال فمجال هذه الرسالة "الثانية عشر" الكون وهو العالم الكبير الذي يشبهه الإنسان، وهو العالم الصغير الذى يؤدى معنى العالم الكبير، ويعبر عن جملته، كما أنه هو المخصوص بثمرته، إن هيكل الإنسان عند إخوان الصفا مُماثل لصورة العالم الكبير الجسماني، وأن قواه النفسية والسارية في بنية هيكله، مماثلة لأحوال الخلائق الروحانيين من الملائكة والجن والشياطين وأرواح الحيوانات كلها؛ فإن الإنسان مختصر من العالمين الروحاني والجسماني جميعاً، مهيأً مجبولٌ من سُوس (أي العُث أو الدود الذى يأكل الحب)، هو في الحقيقة خلاصة هذا العالم وثمرته وزبدته، وكدر ذلك العالم وتفالته (خثارته، وهو ما رسب تحت الشيء من كدورته، كخثارة الزيت مثلاً).

والإنسان جوهر آخر المعاني الجسمانية، وأول المعاني الروحانية فهو كالحد المتاخم للعالمين. ويعطي إخوانُ الصفا مثلاً على ذلك بالزاوية التي يوجد ذاتها متوسطة بين المتجزئ، ثم النقطة جامعة لحاليهما، يعنى البسيط والمركب والنبوة التي هى ممتدة إلى الروحانيين (الملائكة) بخط، وإلى الجسمانيين (الرسل البشر) بخط، ثم الوحي جامع بين طرفيهما، والإلهام حاو لحديها.

والغرض الذى حدده إخوان الصفا من هذه الرسالة هو البحث في الأنفس البسيطة، قبل أن تتشخص، واتصالها بالأجسام الجزئية والأشخاص الحسية، وعلة

اتصالها مدة، وحال مفارقتها؛ وذلك لكي يعي الإنسان هويته "his Identity"، يعني حقيقة ذاته من حيث تميزه عن غيره وكونه هو هو؛ ثم ليعرف إنيته Thisness، أي وجوده الفردي المتعَيِّن، والذي هو مقابل الماهية؛ وأنه مجموعٌ فيه معاني الموجودات كلها، فهو كالكل، ومحيط بالجميع؛ فإن ذلك سينبهه ويساعده على الصواب، وتجنب الخطأ، وأن ينتهز فرصة وجوده في هذا العالم، فيفضل الخير ويقتني الفضائل ويحتويها، إذ لذلك أنشأه منشئه، وهو الله تعالى، فيعيده ويبديه، ويديمه ويبقيه، وهو يبليه ويشفيه، ويهديه لينجيه، فيفوز بالبقاء والنعيم المقيم.

وهكذا لاحظ إخوان الصفا الربط بين الإنسان، والبيئة التي خُلق منها، وعاش فيها وغُذِّي، وترعرع من موادها، كما ابتلي فيها بالأعمال والكسوب، ثم بالموت والحساب والعقاب؛ فالإنسان إذن جزءٌ من الكون، والكون في الوقت نفسه تمثيل مختصر ومعجز للإنسان، فالإنسان ليس جسماً غريباً، يعمل في وسط غريب؛ بل هو جسم حي، منه خُلق، وفيه يحيا، وفيه يموت، ومنه يخرج إلى العالم الآخر.

يتقرر من هذا الكلام إيمان إخوان الصفا بوحدة الوجود، أو وحدة الموجودات، إذا أردنا التعبير الأدق؛ وأما بالنسبة لله تعالى فهو سبحانه خالق هذه المواد المتحدة، وهو موجدها ومُشكِّلها ومكيِّفها وموظِّفها، وهو بعيد عنها، لا يتحد بها، ولا ينفصل عنها بعلمه وتدبيره: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [الشورى: ١١- ١٢].

ولأهمية هذه الرسالة، من الضروري أن نلقي عليها مزيداً من الضوء. تتحدث الرسالة عن الإنسان، الذى هو موضوع الخلافة على الأرض، والذي هو محل التكاليف الشرعية، والمعنيُّ بالخطاب الإلهي والمثاب والمعاقب على جميع أقواله وأفعاله في هذه الحياة الدنيا.

تكلم القرآن عن الإنسان باعتباره مخلوقاً لله، تكلم عنه من جهة الأصل والنشأة الأولى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ [العلق: ١-٢].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢: ١٤].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الروم: ٢٠].

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ١-٢].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥: ٧].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٤: ١٠].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ

بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج: ١٩: ٤١].

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧: ١٩].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٢٨: ٣٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩: ١١].

إذن فمراحل خلق الإنسان وأطوارها في القرآن هي الصلصال، والطين، ثم النطفة، ثم الروح، كما ورد في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

"الإنسان" مشتق من "أنس" وهو ظهور الشيء، وكل شيء مخالف له، طريقه التوحش؛ و"الإنس" خلاف الجن، سُمي كذلك لظهوره، وسُمي الجن كذلك لاجتنانه وخفائه عن الأعين؛ يقال آنست الشيء إذا رأيته. ومنه قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن

جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩][1]. ويقال "أَنِس" أي لقي الأناسي، فلا مثل له ولا سِيّ، قال الطرما:

كل مستأنس إلى الموت قد خا ... ض إليه بالسيف كل مَخاض[2]

وقال شاعر آخر:

إذا غاب عنها بَعْلُها لم أكن لها ... زَؤوراً ولم تأنس إلَيّ كلابُها

أي لا أزورها فى غيبة زوجها، إعظاما للحرمة، واتقاء للشبهات، ودفعاً للإغراء والإغواء.

والأنس ضدُّ الوحشة أو التوحش، وَلِي بِهِ أنس، وأنسة. يقال: "إذا جاء الليل استأنس كل وَحْشي، واستوحش كل إنسيّ"؛ و"أنوس" ضده عقور؛ ربما سُمي الإنسان بهذا الاسم لأنه بطبعه يحب أن يأنس بغيره، ويميل إلى بني جنسه؛ والإنسان- كما قيل- مدني بالطبع.[3]

والإنسانية "Humanism" جملة الصفات التي تميز الإنسان، أو جملة أفراد النوع البشرى التي تتجلى فيها هذه الصفات؛ وهى من وجهة نظر "أوجست كونت" تؤلف في مجموعها كائناً جماعياً أو اجتماعياً يتطور مع الزمن والإنسانية عند "كانط" هى هدف الأخلاق وأساس فكرة الواجب.[4]

وعند محيي الدين بن عربى أن سبب إطلاق اسم "الإنسان" على هذا المخلوق المكرم يكمن في أنه أنس (أي رأى) الرتبة الكمالية.

ولأن كُتّاب رسائل إخوان الصفا ينزعون منزعاً صوفياً، ويميلون إلى الغوص على المعاني الباطنة حَسُنَ أن نعرف نظرة الصوفية إلى الإنسان. وسوف نركزها هنا حتى نعرف بوضوح مفهوم الإنسانية عند الصوفية.

نكتفي بأخذ ابن عربي كمثال للنظرة الصوفية إلى الإنسان؛ يرى ابن عربى أن

---

(١) ابن فارس . معجم مقاييس اللغة. مادة "أنس".

(٢) ديوانه ص ٢٨٠

(٣) الزمخشري- أساس البلاغة ١٧، ١٨ .

(٤) المعجم الفلسفي ٢٥٦

المرتبة الإنسانية واحدة لا غير؛ يقول: "إن حقيقة الإنسان واحدة يجمعها آدم عليه السلام إذ هو مجموع الذرية"[1] يعني أن آدم كان يحمل جراثيم ذريته إلى يوم القيامة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢- ١٧٣].

وكلُّ مَنْ يَحمل الصفات الإنسانية يُسَمى إنساناً سواءً تحقق بالمرتبة الإنسانية أم لم يتحقق، فلفظ "إنسان" يطلق على الإنسان الكامل المتمكن من رتبه الإنسانية، والإنسان الحيوان، أي المتجرد من المعاني الإنسانية، والذي يطلق عليه إنسان لمجرد التشابه.

يقول ابن عربى: "الإنسان الكامل، وإنما قلنا الكامل، لأن الإنسان قد يطلق على المشبه به في الصورة؛ كما تقول: زيدٌ إنسانٌ، وفي عمرو: إنه إنسانٌ، وإن كان زيدٌ قد ظهرت فيه الحقائق الإلهية، وما ظهرت في عمرو؛ فعمرو على الحقيقة حيوان في شكل إنسان".[2]

وفى الوجود، من وجهة نظر ابن عربى، ثلاثةُ أناس، الإنسانُ الأول الكل الأقدم (آدم!)، والإنسانُ العالم، والإنسانُ الآدمي.[3]

وإذن فالإنسان ليس حيواناً ناطقاً، كما يقول أرسطو؛ وذلك لأن النطق سمةٌ تشترك فيها الجمادات وأجزاء الكون كله، وكلٌّ له لغةٌ خاصةٌ به. يقول ابن عربى متفقاً مع إخوان الصفا في هذا الصدد: "فالكل (الجماد والنبات والحيوان)، عند أهل الكشف، حيوان ناطق، بل حي ناطق، غير أن هذا المزاج الخاص يسمى إنساناً لا غير بالصورة، ووقع التفاضل بين الخلائق في المزاج (تركيب العناصر والصفات بنسب) ... قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولفظ

---

(١) بلغة الغواص ص ٢٠

(٢) الفتوحات المكية ٢ / ٢٩٦، وسعاد الحكيم المعجم الصوفي ص ١٥٣.

(٣) فتوحات ٣ / ٢٣١.

"شيء" نكرة، ولا يُسَبِّح إلا حيّ عاقل عالِم بِمُسَبِّحِه؛ وقد ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **"الْمُؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَى صَوْتِهِ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ وَشَاهِدُ الصَّلَاةِ يُكْتَبُ لَهُ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ حَسَنَةً وَيُكَفَّرُ عَنْهُ مَا بَيْنَهُمَا"**[1]

ونضيف أن الذرية المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢]، والتي قبضها الله من ظهور بني آدم، واستخرجها منهم كأمثال الذّر، في الميثاق الأول، كانت ناطقةً واعيةً؛ وقد أخذ الله على بنى آدم الميثاق قبل إيجاد أجسامهم.[2]

وقد مَثّل هذا الميثاق الأول حجر الأساس في فكر الإمام الجنيد الذي ظل يعمل من أجل أن يعود بالإنسان من خلال التربية، والترقية، والتخلية، والتحلية إلى هذه الحالة التي كان عليها منذ أن أخذ الله العهد عليه وهو في طور الذر.[3]

يقول الجنيد: "إن معنى الإنسانية هو الخلافة عن الله تعالى، وإن الخلافة عن الله مرتبةٌ تشمل الولاية والنبوة والرسالة والإمامة والأمر والملك، فالكمال الإنساني بكمال هذه المراتب، وهو مركوز في الإنسان بالقوة منذ آدم إلى آخر مولود ..."[4]

والإنسان الحيوان عند ابن عربى هو من أفراد الجنس البشرى جمع حقائق العالم (المادية) فقط، فكان صورةً له، كما رأينا عند إخوان الصفا، مع مراعاة وجود بعض الاختلافات في التفاصيل بينهم وبين ابن عربى؛ ولكن الإنسان الكامل، وهو مقابل الإنسان الحيوان والمسيطر عليه، قد أضاف إلى مجموع حقائق العالم (المادية) مجموع حقائق الحق، وكان مِن ثَمّ على الصورتين، صورة العالم، وصورة الحق. يعنى في الصفات لا في الذات.

يقول: "وإن الإنسان الكامل يخالف الإنسان الحيوان في الحكم، فإن الإنسان

---

(١) الحديث: رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة وابن ماجة في السنن. (الفتوحات المكية ١/٢٤١، والمعجم الصوفيّ ص١٥٣).

(٢) فتوحات ١/١٣٥ و ٢/٣٨٨ و ٤/٥٨ والمعجم الصوفي ١١٢٨ .

(٣) انظر رسالة الجنيد . على حسن عبد القادر . والنقل عن : سعاد الحكيم . المعجم الصوفي ١١٢٨.

(٤) بلغة الغواص ص٥٤، والمعجم ص١٥٤ .

الحيوان يرزق رزق الحيوان، وهو للكامل وزيادة، فإن للكامل رزقاً إلهياً لا يناله الإنسان الحيوان، وهو ما يتغذى به من علوم الفكر، الذى لا يكون للإنسان الحيوان، والكشف والذوق والفكر الصحيح ...".[1]

ويقول: "وبالإنسانية والخلافة صحت له (أي للإنسان) على الكمال. فإن الإنسان الحيوان ليس بخليفة عندنا، وليس المخصوص لها أيضاً الذكورية فقط، فكلاً منّا إذن في صورة الكامل من الرجال والنساء".[2]

"فظاهر الإنسان خلقٌ، وباطنه حق، وهذا هو الإنسان الكامل المطلوب، وما عدا هذا فهو الإنسان الحيواني، ورتبة الإنسان الحيواني من الإنسان الكامل رتبة خلق النسناس من الإنسان الحيواني"[3]؛ "فالإنسان الحيواني من جملة الحشرات فإذا كَمُل (أي بالدين والعلم والأدب) فهو الخليفة".[4]

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن ابن عربى استعمل لفظة "النسخة الظاهرة" و"النسخة الباطنة" و"صورة" و"مختصر العالم" و"مختصر الحق والعالم الصورة الجامعة الكاملة"و"المختصر الشريف" كلها بمعنى واحد دلل بها على الإنسان بجانبه المادي وجانبه الروحاني.[5]

وينبغي أن نلاحظ أيضا أن الرزق الذى أشار إليه ابن عربي في أحد النصوص التي أوردناها لا يكون رزقاً عنده إلا إذا تحول إلى المرزوق وانتفع به بالفعل، والرزق عنده نوعان: رزق محسوس للجسوم، ورزقٌ معنوي للأرواح.[6]

ونعود إلى رسائل إخوان الصفا للنظر في الرسالة الثالثة عشرة، ويتكلم فيها إخوان الصفا عن كيفية بث الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية والأجسام الطبيعية، وهي تدور حول التطور الطبيعي والروحاني للإنسان على هذه الأرض

---

(١) الفتوحات المكية ٣٥٧/٢.

(٢) عقلة المستوفز ص ٤٦ والمعجم ١٥٦.

(٣) فتوحات ٢٩٦/٣.

(٤) معجم ١٥٧.

(٥) المصدر نفسه : ١٠٥٨.

(٦) انظر بلغة الغواص ٢١، والنقل عن المعجم الصوفي ٥٣٢ .

حتى يصل بنفسه إلى رتبة الملائكة ومنازل الروحانيين ويحُصل السعادة عند خلع المادة عن نفسه وبلوغ الإرادة.

الرسالة الرابعة عشر من رسائل إخوان الصفا، وهى من الجسمانيات الطبيعيات، ورقمها الثامنة والعشرون من الرسائل، وعنوانها "في بيان طاقة الإنسان فى المعارف، وإلى أي حد هو، ومدى مبلغه من العلوم، وإلى أي غاية ينتهي، وأي شرف (يمكنه أن) يرتقي"، وغرضهم من هذه الدراسة هو التنبيه على معرفة الله، والركون إليه فى كل الأحوال عن طريق العلم به، ومعرفة مخلوقاته، ومنها الإنسان نفسه، وهو أهمها، وأيضا في نسبية المعرفة الإنسانية.

وهذه الرسالة تأتى عقب كلامهم في بيان كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية، وبالتالي فقد حسن أن يأتي الكلام عن العلم والمعرفة بعد ذلك، والعلم له القيمة الأولى والعظمى في الإسلام بل هو قيمة القيم كلها. وقد جاء ذِكْر فضل العلم والعلماء، والحثّ على تحصيل العلم، وعلى التدبر والتفكر والبحث والنظر في آيات كثيرة في القرآن الكريم، وكذلك في أحاديث النبى ﷺ.

العلم يرتبط بروح الإنسان وعقله، فالله تعالى قد خلق آدم أبا البشر من تراب، وصوَّره في أحسن تقويم، وأحكم بنيته، ثم نفخ فيه من روحه؛ فصار ذلك الجسد الترابي بتلك الروح الشريفة حياً عالماً قادراً، اكتملت فيه معاني الإنسانية، التي سبق أن تكلم فيها إخوان الصفا، وقد دعمناها بكلام محيي الدين بن عربى فى مفهوم الإنسانية.

يبني إخوان الصفا دعوتهم على العلم، وكثيراً ما نجدهم ينصحون أتباعهم بالاجتهاد في طلبه، وبعدم معاداة أي علم من العلوم مهما كان، وهذه هى القاعدة الإسلامية فى النظر إلى العلم بشكل عام؛ ولكن إخوان الصفا قد خرجوا عن قاعدة الإسلام عندما حثُّوا على تعلّم علومٍ غيرِ نافعة، كالسحر وتأثير النجوم، على سبيل المثال، وعلى تعلّم التأويل الباطني، الذى يُخرج صاحبه عن الإسلام، كما أنهم ساوَوا بين الدين والفلسفة في بعض أقوالهم، وادعائهم أن معرفة شتى الكواكب يُمكّن من

معرفة الغيب، وما يجرى فى النفس وفى العالم؛[1] ومثل هذه الدعاوَى لا يقرها الإسلام.

وفَضّل الله تعالى آدم بالعلم على بعض الملائكة لا عليهم كلهم وأمرهم بالسجود له من أجل تلك الروح الشريفة التي نفخ فيه لا من أجل الجسد الترابي ،هكذا يذهب إخوان الصفا.[2]

وقبل أن نمضي في عرض كلام إخوان الصفا، في هذا الموضوع بخاصة، ينبغي أن نبين أن النص القرآني لم يقطع بأن بعض الملائكة، وليسوا كلهم، كانوا هم الذين سجدوا لآدم، أو أن السجود كان بسبب الروح الشريفة التي نُفخت في الجسد الترابي؛ فالله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]؛ فالملائكة قد أُمروا كلهم بالسجود، بدليل توجه الخطاب لعموم الملائكة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الأعراف: ١١] وهذه الآية كآية البقرة، الخطاب فيها شامل لجميع الملائكة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٢٨: ٣٥].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ

---

(١) الرسائل ٣/ ٣٦٦، ٣٨٠

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ١٨

وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧١-٧٨].

هذه الآيات فيها دلالةٌ واضحة على أن السجود قد وقع من جميع الملائكة لآدم، وآدم هو مجموع الجسد والروح معاً.

في التعليق على آية سورة الحجر، يقول ابن عطية: وقوله: ﴿كلهم أجمعون﴾ هو عند سيبويه، تأكيدٌ بعد تأكيدٍ، يتضمن الآخر ما تضمن الأول؛ وقال غيره: ﴿كلهم﴾ لو وقف عليه لصلحت للاستثناء، وصلحت على معنى المبالغة، مع أن البعض لم يسجد، وهذا كما يقول القائل: "كل الناس يعرف كذا"، وهو يريد أن المذكور أمر مشتهر، فلما قال: ﴿أجمعون﴾ رفع الاحتمال في أن يبقى منهم أحد؛ واقتضى الكلام أن جميعهم سجد، وقال المبرد: لو وقف على ﴿كلهم﴾ لاحتمل أن يكون سجودهم في مواطن كثيرة، فلما قال: ﴿أجمعون﴾ دل على أنهم سجدوا في موضع واحد.(1)

يقول إخوان الصفا إن الإنسان إنما يأكل ويشرب وينام من أجل الجسد، ويتحرك ويحس ويتكلم ويعلم بالنفس الشريفة التي من أمر الله... وإن العلم غذاء للنفس وحياة لها، كما أن الطعام وجميع المتناولات غذاء وشراب للجسد وحياة له. ويقولون إن العلم بالأشياء بعضه طبيعي غريزي مثل ما يدرك بالحواس، ومثل ما في أوائل العقول؛ وبعضه تعليمي مكتسب مثل الرياضيات والآداب، وما يأتي به الناموس، فمن الناس من لا يرغب في التعلم والتأدب، بل يتكلم على ما تدركه الحواس أو ما في قرائح العقول، ومنهم من يرغب في التعلم والتأدب، لكن من الناس من لا يقبل من العلم إلا ما يتصور في نفسه أو يقوم عليه برهان هندسي أو منطقي، ومنهم طائفة لا تقبل إلا ما يدل عليه قول الشاعر؛ وطائفة لا تقبل إلا برواية وخبر، ومنهم طائفة لا تقبل إلا بالاحتجاج والجدل، ومنهم من يرضى بالتقليد ويقنع بذلك.(2)

---

(1) ابن عطية . المحرر الوجيز. ٨ / ٣٠٩-٣١٠

(2) رسائل ٣ /١٩

جاء في شعرٍ يُنْسب إلى الإمام علي، كرم الله وجهه، أجمل فيه هذه المعاني وسبق إليها:

رأيت العقل عقلين مطبوع ومسموع
ولا ينفع مسمـوع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع[1]

يقول الإمام الغزالي في هذا المجال أيضاً: إن العاقل الكامل تقْوى فيه القُوى الباطنة على القوى الظاهرة، ويستحقر لذات القوى الحسية عند لذات القوى العقلية والوهمية؛ والناقص تقوى فيه القوى الحسية على القوى العقلية والوهمية، ولذلك إذا خيّر المرء بين الحلو الدسم وبين الاستيلاء على الأعداء ونيل أسباب الرياسة والعلا؛ فإن كان المخيّر ساقط الهمة، ميت القلب، خامد القوى الباطنة، اختار الهريسة والحلاوة عليه؛ وإن كان المخير عالي الهمة، رزين العقل استحقر لذة المطعوم بالإضافة إلى ما ينال من لذة الرياسة والغلبة على الأعداء. ونعني بالساقط الهمة الناقص في نفسه الذي ماتت قواه الباطنة أو لم يتم بعد حياتها كالصبي، فإن قواه الباطنة بعد لم تخرج من القوة إلى الفعل".[2]

ومما يُحسب لإخوان الصفا أنهم طبقوا الوسطية حتى في العلوم والمعارف، فمهما كان العالِم من الراسخين، فإن علمه لا يزال في محيط الوسطية. فالإنسان عندهم متوسط في كل شيء، في حجمه وهيئته وعمره وعقله وعلمه وعمله وفي قوته وضعفه. والإنسان غير محيط بالأشياء كلها، ومن الموجودات ما هو أشرف منه كالملائكة المقربين وما هو أدون منه كالبهائم.[3]

والعقول متفاوتة في معلوماتها وإدراكاتها. وليس للإنسان أن يتجاوز علمَه، فَيَحكم على شيء لم يصل إليه علمُه. يقول إخوان الصفا إن: "في الناس طائفة من العقلاء لَمّا تفكروا في حدوث العالم، وبَحثوا عن العلة الموجبة لكونه، بعد أن لم يكن، لم يعرفوها، ولم يتصوروا في عقولهم بدء كون العالم، فدعاهم جهلهم عند ذلك إلى

---

(١) انظر الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين ١ /١٠٢

(٢) الغزالي – مقاصد الفلاسفة– القاهرة – المطبعة المحمودية– التجارية – ١٩٣٦، ص ٨٩– ٩٠.

(٣) الرسائل ٣ / ٢٠ – ٢١

القول بقدم العالم".[1] فإخوان الصفا إذن يعارضون بعض الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

وإبطال قول بعض الفلاسفة بقدم العالم هو أول موضوعات كتاب تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي، الذى كتبه في الرَّدِّ عليهم، وفى تفنيد آرائهم في إطار خطته العامة، في إبطال الأقوال والآراء والمقالات، التي تعارض أصلاً من أصول الإسلام من قريبٍ أو من بعيدٍ.

يقول الإمام الغزالي: "اختلف الفلاسفة في قِدَم العالم، فالذي استقر عليه رأيُ جماهيرهم المتقدمين والمتأخرين، القول بقدمه، وأنه لم يزل موجوداً مع الله تعالى، ومعلولاً له، ومساوقاً له، غير مُتأخر عنه بالزمان، مساوقةَ المعلول للعلة، ومساوقةَ النور للشمس، وأن تقدم البارئ عليه كتقدم العلة على المعلول، وهو تقدمٌ بالذات والرتبة، لا بالزمان؛ وحُكي عن أفلاطن أنه قال: العالم مكون ومُحدَث، ثم منهم من أوَّل كلامه، وأبَى أن يكون حدوث العالم معتقداً له. وذهب جالينوس في آخر عمره في الكتاب الذى سماه "ما يعتقده جالينوس رأيا" إلى التوقف في هذه المسألة. وأنه لا يدرى العالم قديم أو محدث؟ وربما دل على أنه لا يمكن أن يعرف، وأن ذلك ليس لقصورٍ فيه، بل لاستعصاء هذه المسألة في نفسها على العقول، ولكن هذا كالشاذ في مذهبهم، وإنما مذهب جميعهم أنه قديم، وأنه بالجملة لا يُتصور أن يَصدر حادث من قَديم بغير واسطة أصلاً".[2]

وتكلم الغزالي كذلك في كتابه "المنقذ من الضلال" عن دعوى قِدَم العالَم، وعَدَّ من أخطاء الفلاسفة، التي كَفَّرهم بسببها، القول بقدم العالم، وفي زعمهم أن الله تعالى لا يحيط علماً بالجزيئات الحادثة، وإنكارهم بعث الأجساد وحشرها.[3]

وإذا كان من خطتنا أن نتناول هذه المسألة- أعني قدم العالم- في إطار المساحة المناسبة لهذا البحث، فإننا نترك للقارئ أن يراجع بنفسه أدلة الإمام الغزالي ضد الفلاسفة في كتابيه التهافت والمنقذ. غير أنه من اللازم أن نشير إلى رد القاضي أبي الوليد ابن رشد (ت: ٥٩٥هـ)، وردُّنا أيضا لن يكون مسهباً، وإنما على سبيل الإيجاز،

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ١٩، وانظر : البيان والتبيين للجاحظ وفضل العلم لابن عبد البر وابن حيان.

(٢) تهافت الفلاسفة — الإمام الغزالي ص ٨٨ — ٨٩

(٣) الغزالي. المنقذ من الضلال ص ١٨٢ وما بعدها بتحقيقنا — طبعة واشنطن ١٩٩٩م

ومما يهمنا في رد ابن رشد على الإمام الغزالي، هو تشكيكه في أكثر الأدلة التي ساقها حجة الإسلام؛ يقول في مقدمته: "وبعد حمد الله الواجب، والصلاة على جميع رسله وأنبيائه، فإن الغرض في هذا القول، أن نبين مراتب الأقاويل المثبتة في كتاب التهافت لأبى حامد، في التصديق والإقناع، وتصور أكثرها عن رتبة اليقين والبرهان."(١)

إننا لو وضعنا هذه الفقرة بإزاء الهدف الذى حدده الإمام الغزالي لنفسه في التهافت، في مناقشته لآراء الفلاسفة، لأدركنا أن ابن رشد، على الرغم من تحوطه في صياغة اعتراضه، لم يعر هدف الإمام الغزالي، ومدخله إلى الفلسفة حقهما من النظر والاعتبار.

فحُجةُ الإسلام ركز على اختبار أدلة الفلاسفة، لا على آرائهم فحسب، وأنه غربلها واقتصر منها على إيراد ما وقع في النفس، مما يجوزَ أن ينهض مشككا لفحول النظار، فإن تشكيكَ الضعفاء بأدنى خيالٍ ممكنٌ."(٢)

والخلاف بين الفلاسفة وبين سائر الفِرَق ينحصر من وجهة نظر الغزالي في ثلاثة أقسام:

- قسم يتعلق النزاع فيه بلفظٍ مجرد، كتسميتهم صانع العالم جوهراً، إلا أنه لم يشغل نفسه بالبحث في مثل هذه الألفاظ
- القسم الثاني ما لا يصدم مذهبُهم فيه أصلاً من أصول الدين، وهذا القسم من المتروكات كذلك.
- القسم الثالث وهو ما اتخذه الغزالي موضوعاً لنقد الفلاسفة وإظهار تهافتهم، ويتحدد هذا القسم في كل ما صادم فيه الفلاسفة أصلاً من أصول الدين، كحدوث العالم، وحشر الأجساد، وإثبات النبوات.

وكما لاحظ الدكتور سليمان دنيا محقق التهافت، في تعليقه على هذه الفقرة، فإن الإمام الغزالي قد أعلن بهذا توجهه بالنقد إلى ما يعارض أصلاً من أصول الدين، لا ما يعارض نصاً من نصوصه؛ وذلك لأن النص عبارة قابلة للتأويل،

---

(١) تهافت التهافت ١ / ٥٩

(٢) المصدر نفسه ص ٨٩

ومذهب الغزالي، كما قرره هو نفسه، في الموضع المشار إليه، أن النص إذا خالف صريح العقل وجب تأويله، وإن كان صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول بحال.

ولو أن الغزالي التزم بهذا المنهج- يعني النزاع مع الفلاسفة فيما عارض أصلا من أصول الديانة- لكان قد وفّى وأقسط، ولكن يبدو من مجرد مراجعة عناوين الكتاب، أنه ناقش الفلاسفة في أشياء بعيدة عن مجال المنظور الذى حدده، على سبيل المثال لقد طرح الإمام هذه العناوين: "المسألة الرابعة في تعجيزهم عن إثبات الصانع"، وهذا يعني اعتراف الفلاسفة بوجود الصانع للعالم، ومعنى هذا أنهم لا ينكرون هذا الأصل، حتى ينازعهم الغزالي فيه وهكذا. إلا أنه على الرغم من وجاهة هذا الاعتراض فإنه يمكن أن نقول إن الحجة دينية وفكرية، فأبو حامد كان لديه، ولا بد من الأسباب ما جعله يعتبر هذا الخروج الظاهري على خطته يتصل بصميم موضوعه، وهو أن الفلاسفة تكلموا في أشياء هي من صميم الرسالة والوحي، وأنهم عاجزون بحكم فلسفتهم عن تقديم براهين عقلية لإثبات وجود الصانع، وأنهم لم يعتمدوا أدلة الوحي فعارضوا بذلك أصلاً من أصول الدين أو حاموا حوله.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الغزالي قد دخل على الفلسفة، وهو متسلح بأدواتها، راسخ في مسائلها، فهو يكرر أنه لم يقصد إلا التشكيك في أدلة الفلاسفة، الذين استغنوا بها عن أدلة الوحي، بل ربما ارتفعوا في دعواهم درجات على حساب الأدلة القرآنية.

يقول حجة الإسلام: "فإن قيل: فقد عوَّلتم في جميع الاعتراضات على مقابلة الإشكالات بالإشكالات، ولم تحلوا ما أوردوه من الإشكالات. قلنا: المعارضة فساد الكلام لا محالة، وينحل وجه الإشكال في تقدير المعارضة والمطالبة، ونحن لم نلتزم في هذا الكتاب إلا تكرير مذهبهم وتقريره، والتغبير في وجه أدلتهم، بما يبين تهافتهم، ولم نتطرق للذب (الدفاع) عن مذهب معين، فلم نَخرج لذلك عن مقصود الكتاب، ولا نستقصي القول في الأدلة الدالة على الحدوث، إذ غرضنا إبطال دعواهم معرفة القدم، وأما إثبات المذهب الحق فسنُصَنّف فيه كتاباً بعد الفراغ من هذا، إن ساعد التوفيق إن شاء الله، ونسميه "قواعد العقائد"، ونعتني فيه بالإثبات، كما اعتنينا في

هذا الكتاب بالهدم."[1]

وقد أكد الإمام الغزالي هذا المعنى في كتابه "المنقذ من الضلال"، إذ أنه قد وَجّه نقده الشديد فيه إلى الفلاسفة، والإسماعيلية، وإلى أدعياء التصوف، وإلى عوام المسلمين، وجَهَلَتِهم الذين كانوا يرفضون الحقائق العلمية، ظناً منهم أنّها تصادم حقائق الدين، وربما رفض بعضهم الحقيقة لمجرد كونِها وردت في ثنايا كتاب يختلط فيه الحق بالباطل، كرسائل إخوان الصفا.[2]

والغزالي يتكلم، ليس من موقع الفيلسوف فقط، وإنما من موقع الداعية والمصلح الإسلامي كذلك، والمصلح إنما يراقب حركة المجتمع ويتابع أحواله عن كثب، حتى يتسنى له العمل على الحفاظ على السلامة الدينية والفكرية والاجتماعية لِهذا المجتمع، وتحصينه ضد الأخطار التي تتهدده، والتيارات التي تحاول أن تعصف به وتطمس هويته؛ كما ذكر الدكتور أبو ليلة عند كلامه عن منهج حجة الإسلام في تقديمه لكتاب "المنقذ من الضلال".

ننتقل الآن لننظر في الرسالة الخامسة عشرة، وموضوعها "ماهية الموت والحياة"، وهى الرسالة التاسعة والعشرون من رسائلهم، بحسب التقسيم العام، واختيار إخوان الصفا في وضع هذه الرسالة بهذا الترتيب يدل على وعيهم بوحدة الموضوع، واتصال الرسائل بعضها ببعض، على الرغم من كثرتها، وتعدد موضوعاتها، وتنوعها إذ إنهم بعد أن تكلموا عن مدى طاقة الإنسان العقلية المعرفية، وبيان الغرض من النواميس الشرعية النبوية، والعلوم الحكمية الحقيقية، وهو تهذيب النفس، ودعوة الخلق إلى الله تعالى، اتّجهوا إلى الحديث عن الموت والحياة، وذلك لأن الإنسان كما وُلد سيموت ويبعث ويحاسب، والإخوان كعادتِهم يُحيلون إلى رسائل سابقة أو رسائل لاحقة ليحافظوا على الوحدة الموضوعية لهذه الرسائل ويحققوا الهدف منها، وهو كسب الأتباع والسيطرة عليهم من خلال خط فكري موصول، وخطة تعليمية واضحة سهلة.

وفى هذه الرسائل تكلموا عن النفس الكلية والأنفس الجزئية التي هي قوى

---

(١) التهافت ص ١٢٣، وتهافت التهافت ٥٩/١؛ ونلفت النظر إلى أن الإمام الغزالي قد ألف كتاب "قواعد العقائد" بالفعل، وهو من أربعة فصول، وقد ضمنه كتابه إحياء علوم الدين.

(٢) المنقذ من الضلال ص ٢٠٨- ٢٠٩.

منبثقة عن النفس الكلية في الأجسام الجزئية، التي تحت فلك القمر.[1]

ومعتمد بحوثهم في هذه الرسالة أن الإنسان عالم صغير، والعالم إنسانٌ كبير، وأن علم الإنسان بجوهر النفس وأحوالها، أشرف من علمه بجوهر الجسم وأحواله.

ويقولون إن الحيوانات كلها تكره الموت، وتحب الحياة، ثم إنهم يذمون الحياة عند تنغيص العيش، ويحبون الموت عند الشدائد؛ ولذلك فقد انتدب إخوان الصفا أنفسهم للكلام عن ماهية الموت، وماهية الحياة، وسبب كراهية الناس للموت، ومحبتهم للحياة، وما هى الحكمة في خلقهما.

ومما تكلموا عنه في هذه الرسالة أيضاً تركيب الجسد، ومنافع الأعراض، ومن الملاحظ أن كلامهم في الحياة والموت يدور في فلك كلام الفلاسفة مع الصبغة الدعوية.

الرسالة السادسة عشر في خاصية اللذات، وفي حكمة الحياة والموت وماهيتهما، وهم يتكلمون في هذه الرسالة عن اللذات الجسمانية واللذات الروحانية، وكذلك عن الآلام بنوعيها، وعن علة اختصاص النفوس الحيوانية بالآلام والأوجاع.[2]

الرسالة السابعة عشر عن "الجسمانيات الطبيعيات"، وهى الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل إخوان الصفا؛ وتقع في الجزء الثالث الصفحات (٨٤: ١٧٧)، ويتكلمون فيها عن أسباب اختلاف اللغات، والكلام، والأصوات، ورسوم الخطوط والكتابات، وربط ذلك بكيفية مبادئ المذاهب، واعتقادات الآراء والديانات، وأصل تكوينها، وتطورها واختلاف أهلها منها، وآراءهم ومنهاجهم، أمةً مع أمة، وقرناً مع قرن، وهم لا يفتؤون يكررون أن جسم الإنسان هو العالم بأسره، وأن القوة النفسانية التي كانت ساكنة في حظيرة القدس في روضة الأنس، تتقلّب في إشراقات القوة العلوية، دبت في الإنسان شرف، وصار قابلاً للعلم، وعندهم أن الصورة العقلية التي تبدو للنفس، إنما هي آثار العقل الكلي في النفس الكلي، بقبولها منه، وكونها بالقرب منه، وهم يقولون: إن الأصوات والنغمات والحركات التي هى أعراض تحدث من حركة الأجسام الحيوانية وغير الحيوانية، إنما تظهر وتبرز بحسب بروز تلك الأصوات في ذلك العالم- أي عالم الأفلاك- ويشيرون إلى ما قيل في أن

---

(١) الرسائل ٣ /٣٥

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٥٣- ٨٣ ، وانظر أيضا رسالة ابن طفيل حي بن يقظان ص ٣٣-٥٧

فيثاغورث سمع بصفاء جوهره وذكاء قلبه نغمات حركات الأفلاك، وأصوات حركات الكواكب، وأوضاع ألحانها المطربة؛ وهو أول من تكلم في هذا العلم من الحكماء. والفرق بين الأصوات والنغمات، يرجع عندهم إلى صفاء الهيولي وكدرها بالنسبة للأشخاص.(١) كما أن الصوت عبارة عن قرعٌ يحدث من الهواء، إذا صدمت الأجسام بعضها بعضا، فتحدث بين ذينك الجسمين حركة عَرَضية تسمى صوتاً.(٢)

وإخوان الصفا ينظرون دائماً، من خلال الأصوات والحركات، إلى قدرة الله تعالى، فأصوات الإنسان وأصوات الرعد والصواعق والسحاب وزمجرة الرياح وغيرها كلها تتضمن أدلة واضحة على وجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وحكمته وتدبيره.(٣)

ويقولون إن الغرض من الكلام هو تأدية المعنى، وكل كلام لا معنى له، لا فائدة للسامع منه ولا للمتكلم به كذلك. وكل معنى لا يمكن أن يُعبرَّ عنه بلفظٍ ما، في لغةٍ ما، فلا سبيل إلى معرفته، وكل حيوان ناطق لا يحسن أن يعبر عما في نفسه، فهو كالعدم الزائل والجماد الصامت.(٤)

وعندهم كذلك أن المعاني في الكلام كالأرواح، وألفاظها أجساد لها، فلا سبيل إلى قيام الأرواح إلا بالأجساد.(٥) ولإخوان الصفا آراءً في اللغات يمكن أن تُكَوّن نظرية متكاملة، وإن لم تكن آراؤهم كلها خالصة من دون الفلاسفة والعلماء، وهم دائماً يربطون بين الإنسان وحركة الفلك؛ ويرون كذلك أن الاختلاف بين البشر في اللغات راجعٌ إلى اختلاف البيئات واختلاف البِنَى (أي تركيب الأجساد) والأمزجة واختلاف مَخارج الحروف كذلك.(٦) وعندهم أن لكل صوتٍ روحانيةً تختص به، خلاف الأصوات الأخرى. يقولون: "فإن الهواء، من شَرَفِ جوهره، ولطافةِ عنصره، يحمل كل صوت بهيئته وصيغته، ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض، فيفسد

---

(١) رسائل ٣ /٩٣- ٩٤

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٥

(٣) المصدر نفسه ص١٠٠- ١٠١

(٤) المصدر نفسه: ٣ /١٠٩

(٥) المصدر نفسه: ٣ / ١٠٩

(٦) المصدر نفسه: ص ١١٨، ١٢٤

هيئاتها، إلى أن يبلغها إلى أقصى غايتها، عند القوة السامعة لتؤديها إلى القوة المفكرة. ذلك تقدير العزيز العليم الذى جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون".[١]

ثم ينتقل إخوان الصفا إلى الحديث عن الأمور النفسانية العقلية، وهى تشتمل على عشر رسائل، ويتكلمون فيها عن المبادئ العقلية، على رأي "فيثاغورس" (الرسالة الأولى)، ثم على رأي "إخوان الصفاء وخلان الوفاء" (الرسالة الثانية)[٢] وعن العالَم باعتباره إنساناً كبيراً، ذا نفس وروح، حي، عالم، طائع لبارئه، خَلَقَه ربُّه يومَ خَلَقَه تاماً كاملاً، وأن كل الخلائق داخلون فيه، وهو جملتهم، وليس خارج العالم شيء آخر، لا خلاء (فراغ أو امتداد موهوم) ولا ملاء (أي جسم يملأ المكان) إلى آخر ذلك.

وكتعليق لازم على هذا الكلام، نشير إلى أن الغزالي قد نقد الفلاسفة في قولهم: إن السماء مطيعةٌ للّه بحركتها، ومتقربة إليه، لأن كل حركة بالإرادة فهي لغرض، إذ لا يتصور أن يصدر الفعل والحركة من حيوان، إلا إذا كان الفعل أولى به من الترك، وإلا فلو استوى الفعل والترك لما تصور الفعل؛ ثم التقرب إلى اللّه تعالى، ليس معناه طلب الرضا والحذر من السخط، فإن اللّه تعالى يتقدس عن السخط والرضا، وإن أطلقت هذه الألفاظ على عناصر الكون فإنها تكون على سبيل المجاز، يُكنَى بها عن إرادة العقاب، وإرادة الثواب، ولا يجوز أن يكون التقرب بطلب القرب منه في المكان، فإنه محال.[٣]

ويقول في موضوع آخر: "فدل ذلك على أن هذه (أي الأقوال) خيالات، لا حاصل لها، وأن أسرار ملكوت السماوات لا يطلع عليها بأمثال هذه التخيلات، وإنما يُطْلِع اللّه عليها أنبياءه وأولياءه، على سبيل الإلهام، لا على سبيل الاستدلال، ولذلك عجز الفلاسفة من عند آخرهم، عن بيان السبب في جهة الحركة واختيارها".[٤]

---

(١) المصدر نفسه : ٣/ ١٢٥

(٢) المصدر نفسه: ١٧٨، ٣٨٤

(٣) تهافت الفلاسفة ص٢٢٢

(٤) المصدر السابق ص٢٢٤، وانظر: ابن رشد- تلخيص كتاب النفس- تحقيق الفرد. ل. لبرس- القاهرة ١٩٩٤ ص ١ وما بعدها.

وفي الخاتمة نقول إن الرسائل تعتبر كنزاً أو مستودعاً لشتى علوم العصر الذي عاش فيه إخوان الصفا، سواءً أكانت علوماً إسلامية، أم غير إسلامية، وضعوها كلها في سياق ديني وإسلامي قصدوا به مخاطبة المسلمين وغير المسلمين، ودعوتهم جميعاً للدخول في جماعتهم، وتبني رسالتهم الطائفية والتي هي الدعوة الإسماعيلية بعينها كما بيناه بوضوح في هذا الكتاب.

المبحث الرابع

التأويل الباطني لآيات القرآن الكريم ولألفاظ اللغة في رسائل إخوان الصفا

تمهيد:

"التأويل" هو قاعدة دعوة إخوان الصفا وطريقتهم؛ وهو الأصل الذي قامت عليه فرقة الإسماعيلية، وجميع فِرَق الباطنية، كما جاء في مقدمة الدكتور أبو ليلة؛ فإنها تتجمع حوله وتلتقي عنده. وقبل أن نتكلم عن تأويلات إخوان الصفا الفاسدة لنصوص الشريعة، ينبغي أن نعرف ما هو التأويل أولاً! وعلى جهة الاختصار.

"التأويل" لغةً مشتق من الأوْل. أي الرجوع إلى الأصل، ومنه "آلَ إليه الأمر"، أي رجع واستقر، و"الْمَوْئِل" الموضع الذى يُرجع إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: ٥٨] أي ملجأ يفرون إليه. و"التأويل" ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علماً كان أو فعلا؛ ففي العلم نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧]؛ وفى الفعل كقول الشاعر، وهو عبدة بن الطيب:

وللأحبةِ أيامٌ تُذكرها وللنّوى قبل يوم البَيْن تأويل[1]

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي يوم يأتي بيانه عمليا وتتبين الغاية المقصودة منه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] أي رد الأمور المتنازع فيها إلى الله تعالى، يعني إلى كتابه؛ وإلى رسوله ﷺ أي إلى سنته، فهذا خيرٌ لكم وأجمل عاقبة، وأحمد مآلاً، أو أحسن معنى يراد من القول.

و"الأوْل" السياسة التي تراعى فيها العواقب، والمداخل والمخارج؛ ومن كلام عمر

---

(١) المفضليات

بن الخطاب: أَلْنا وإيل علينا.[1] وإذا ضممنا هذا المعنى الأخير إلى معنى الأول المشار إليه، أفادت كلمة "تأويل" أيضاً معنى سياسة النص ومعالجته، ليفيد معنى يتغياه أو يتوهمه المؤول.

و"التأويل" عند الأصوليين، قيل: إنه مرادف لمعنى كلمة "تفسير"، وقيل: هو الظن بالمراد، والتفسير القطع به؛ فاللفظ المجمل إذا لحقه البيان بدليل ظَنّيٍّ كخبر الواحد، يُسمى "مُؤَوَّلاً"، وإذا لحقه البيان بدليل قطعي يسمى مُفسراً، وقيل هو أخص من التفسير.[2]

تقوم دعوة إخوان الصفا وكذلك فلسفتهم على التأويل، شأنهم في ذلك شأن الفرقة الإسماعيلية، وشأن أخواتهم وعلاّتهم من فرق الباطنية بشكل عام.

إذ يعتقد جميعهم بأن للقرآن وللشريعة بشكل عام ظاهراً وباطناً، ويقولون إن من أقبل على ظاهر الشريعة دون باطنها كان ذو جسم بغير روح، ناقص الآلة؛ وإن من يُقبل على العلوم والآراء العقلية وهو متغافل عن إقامة الظواهر الشرعية والسنن التكليفية، فهو كروح بعدت عن جسدها، وفارقت مسكنها الساتر لصورتها، فيوشك أن تنكشف سوأته، وتنتهك في العالم عورته إذ خرج بصورته المجردة في غير أوانها، ونطق بالحكمة في غير زمانها، ولم يعمل بموجبها، وأمر غيره بما لم يفعله، فذلك الذي قد قدم عقله".[3]

وبعد أن أوضحنا معنى التأويل ومفهومه، نتناول الآن تأويلات إخوان الصفا للقرآن وللنصوص الشرعية بشكل عام وبقدر ما يتسع له المقام.

يؤول إخوان الصفا "شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ" في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] بأنهم أهل الآراء الفاسدة الظاهرة، التي أَلِفُوها وأنسوا بها؛ وشياطين الجن هم أهل الآراء الفاسدة الباطنة التي أسروها واستجنوا بها.

(١) انظر نثر الدر، وأمثال أبي عبيدة ص١٠٦، والراغب. مفردات ٩٩

(٢) التهانوي- كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ١٢٨ .

(٣) رسالة جامعة الجامعة ص ٩٣ – ٩٤؛ وهم يستعملون كلمة "تأويل" كثيراً، على سبيل المثال: "انظر جامعة الجامعة ص ١٣٥"، وهم يستعملون مثل هذه العبارة: فكل من غلب هواه على عقله، فهو إبليس وكل من أطاع المصدر نفسه الغضبية أدخلته في الحمية الجاهلية، ومن غضب للباطل فهو شيطان. وإن كان من أهل القول بظاهر التكيف من أمور التنزيل. (ص ١٥٩).

ويؤولون كذلك العبارة القرآنية على هذا النحو: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] وهم في سنخ من أصل الباطنية. وقد ألف محمد بن أحمد النسفي داعية أهل ما وراء النهر كتاب "المحصول في التأويل"، كما صنف لهم أبو يعقوب السجزلي المعروف ببندانة كتاب "أساس الدعوة"، وكتاب "تأويل الشريعة"،وكتاب "كشف الأسرار".[1]

وهم يؤولون لفظة "إخوان" بأنهم إخوان هؤلاء الشياطين وأتباعهم وتلامذتهم وشيعتهم الذين يقتفون آثارهم ويسلكون مناهجهم.

كما يؤولون قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هكذا: أن المغضوب عليهم هم: "الذين انقطعوا عن ظواهر النواميس الإلهية، والفرائض الشرعية، ووقفت قوتهم عن الالتزام بالخصائل الدينية، والتوحيد حين أَمَرَتْهم الأنبياءُ بإقامتها والعمل بموجبها على حقيقتها، ومعرفة حقائقها، وحذروهم من تركها وإهمالها، إذا حضرت أوقاتها، والضالون هم الذين ضلوا عن حقائقها، وجهلوا علومها؛ وأما الواقفون على الصراط المستقيم الذين لا هم بمغضوب عليهم ولا ضالين، وهم الذين اتبعوا الأنبياء على سننهم، وتعلقوا بمن خلفوه من بعدهم من أهلهم، وأصحابهم الذين تركوهم لهداية الأمم من بعدهم فهم بهم مؤمنون، وإليهم منقادون ولأمرهم تابعون، يعملون من الظواهر بما يأمرونهم به، ويقيمون ما أقاموه لهم منها، ويتحققون من العلوم ما ألقوا إليهم من حقائقها".[2]

وأكثر تأويلات إخوان الصفا ينصب على آيات المبدأ والمعاد، وقد أجملوا الكلام فيها، في الرسائل؛ ولكنهم فَصّلوا الكلام في المبدأ والمعاد في "رسالة جامعة الجامعة" وصرحوا فيها بما لَمحوا به في الرسائل الأخرى.

إنهم يؤولون معنى "ٱلْحَآقَّةُ" التي هي من أسماء يوم القيامة، بالتحقيق، أي تحقيق العلم الذي أخبرت به الأنبياء، ودلت عليه الحكماء، وصَدّق به العلماء المؤمنون، وكَذب به الجهال الكافرون، وأما "ٱلْوَاقِعَةُ" وهى من أسماء يوم القيامة أيضاً، فهي عندهم وقوع القول على المكذبين بالتكذيب لهم، وإفساد ما كانوا

---

(١) الفرق بين الفرق ١٦٧، وانظر مصطفى غالب : تاريخ الإسماعيلية ص ٢٣٦.

(٢) رسالة جامعة الجامعة ص ٩٤، ٩٥ .

يعتقدونه من الآراء السخيفة، والمذاهب المختلفة عن الحق، الحائدين بزخارفهم عن طريق أهل الصدق.

والآزفة في قوله تعالى:﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾[النجم: ٥٧] يؤولونها على أنها من الأزوف وهو الروح والزوال من مكان إلى مكان، يقال: أزف الوقت، أي حان واقترب، والأزوف: رفع كل شيء، ووضع غيره في محله، أزف: بمعنى عجل، والآزفة: يوم القيامة، سميت بذلك لقربها، وسرعة قدومها، وإن استعجل مداها.(١)

وينبغي أن نلاحظ كيف استعمل إخوان الصفا كلمة "أزف" بمعنى انتقال الشيء من مكان إلى مكان، وذلك للوصول إلى غرضهم؛ وهذا المعنى الذي قصدوه بالذات لم نجده في أيٍّ من المعاجم التي بين أيدينا، وحتى لو وُجد لكان أبعد المعانى المحتملة للكلمة، ولمعنى قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ بوجهٍ خاص فمعنى "أزف" كما في مفردات ألفاظ القرآن: "الأزف" ضيق الوقت، ومعنى "أزفت الساعة" أي دنت؛ كما أشرنا إليه من قبل.(٢)

وفى "أساس البلاغة" للزمخشري، أزف الرحيل: دنا وعجل؛ ويقال: ساءني أزوف، وأزف رحيلهم، وأشتى بنو فلان فتأزفوا، إذا تدانوا.

وتستعمل هذه الكلمة مجازاً بمعنى الضيق، يقال: في عيشه أَزَفٌ، أي ضيق، ورجل متأزف قصير لتقارب خلقه(٣)، حتى إن الكلمة في استعمالها المجازى لا تساعد إخوان الصفا في تأيد المعنى الذي قصدوه؛ ولكي يتضح ما قلناه في تعليقنا على مفهومهم لكلمة "آزفة"، ننظر في هذا الكلام الذي ذكروه بعد تعريفهم للكلمة.

"الآزفة" رفع كل شئ، ووضع غيره في محله، والرواح به، يكون في ذلك اليوم بإزالة المذاهب السخيفة والاعتقادات الرديئة والهيئات الضالة المضلة، ونقل أهلها إلى الهوان والعذاب والذل المقيم. ولذلك قال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ واقتراب الساعة هو المسارعة لمجازاة الأنفس، وانشقاق القمر هو زوال أمور الدنيا، إذ كان القمر هو المتولي تدبير عالم الكون والفساد، وبانشقاقه تبطل هذه الحركة".(٤)

---

(١) رسالة جامعة الجامعة ١٠٧، وابن منظور ٥٠٤/٩

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٥

(٣) المصدر السابق: ص ٩

(٤) ص١٠٧ – ١٠٨

هذا الكلام يقصد منه أن مجيء يوم القيامة، يعنى النقلة من مكان إلى مكان، في هذه الدنيا لا في غيرها؛ ونقل الناس إلى الهوان والعذاب إنما يكون في هذه الدنيا لا في عالم آخر كذلك، وهذا هو مفهوم اليوم الآخر عندهم. ومعنى مجيء يوم القيامة مرة أخرى من وجهة نظر الإخوان: إزالة المذاهب السخيفة والاعتقادات الرديئة يعنى مذاهب خصومهم واعتقاداتهم. وبعبارةٍ أخرى فإن معنى "العالم الآخر" هو عالم ينتصر فيه إخوان الصفا على خصومهم وهو في هذه الدنيا لا غير.

وأما قولهم: إن انشقاق القمر هو زوال أمور الدنيا، فمعناه أن أمور الدنيا هي التي ستزول وتتبدل، ولا زوال للدنيا بعينها، وأما إسناد تدبير عالم الكون والفساد إلى القمر فهو شئٌ لا يقبل لا ديناً ولا عقلاً؛ فالقمر مملوك مدَبَّرٌ لله، لا يملك من أمر نفسه شيئاً، شأن سائر الكائنات الأخرى؛ فالله تعالى يقول: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٩- ٤٠].

وهم يزعمون أن معنى عَرْض أعمال العباد على الله تعالى أنها تُعرض على أصحابها ليعرفوها ويقفوا عليها، أما الله تعالى فهو محيطٌ بها كلها؛ فكيف تُعرض عليه![1]

وهم بهذا يخالفون صريح القرآن والسنة وإجماع المسلمين، وعرض الأعمال على الله تعالى، لا يعني عدم علم الله عز وجل بها، وإنما معناه ظهور المشهد، وحضور الخلق وأعمالهم، وثبوت الحكم والقضاء. ومن المقرر بين المسلمين أن أعمال العباد تُعرض على الله تعالى، ولا مانع أن تعرض على أصحابها، بالإضافة إلى ذلك. يقول تعالى على سبيل المثال: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨]، فالعرض بنص هذه الآية يكون على الله تعالى؛ ويقول عز وجلّ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: "أي تعرضون على عالم السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم الظاهر والسرائر

---

(١) رسالة جامعة الجامعة ص ١٠٩

والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فأنه أخف عليكم في الحساب غداً، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾".

وروى الإمام أحمد عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **"يُعْرَض الناس يوم القيامة ثلاث عَرْضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله".**[1]

وهم يؤولون آية: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤] بظهور ما كان كامناً في قبره، مُغَطّى بستره، فيبدوا المستور ويظهر المكنون.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] عندهم هو خروج ما كانت تُخفيه صدور المؤمنين، وتحتوي عليه قلوبُهم من المعارف الحقيقية، التي لا يقدرون على إظهارها، وإقامة الحجج بها لما كانوا يَخافونه على أنفسهم من مهانة الكافرين لهم، وقدرتهم عليهم في دار الدنيا، فعند ذلك يُحَصَّل ما في صدورهم، وما في نفوسهم الزكية من أنوار وإيمان؛ وكذلك يُحصل ما كان في صدور الذين كفروا من التخيلات الفاسدة والأوهام الردية ... الخ.

وهم يَعْنُون بهذا أن تحصيل ما في الصدور يكون في الدنيا، وأن بعثرة ما في القبور معناها كشف الأسرار، وإزالة الحجب في الدنيا، وهم يستشهدون على ذلك بآياتٍ لا تنطبق إلا على هذه الحياة الدنيا.[2]

و"ليلة القدر" عندهم ليست هي الليلة التي نزل فيها القرآن؛ وهي إحدى العشر الأواخر من رمضان؛ وإنما هي ليلةُ تقدير ما يقع في ذلك اليوم من أمر الآخرة "التي هي أول دور الكشف، وآخر دور الستر، ووضع الأشياء في مواضعها".[3]

وهم يقولون بوضوح إنه في القيامة الكبرى تنشق الأفلاك، وفى يوم القيامة الوسطى تفيض الأرزاق على أهلها.

ويقولون في معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾

---

(١) ابن كثير ٣ / ٥٤٣

(٢) انظر على سبيل المثال [الكهف: ١٠٤]

(٣) رسالة جامعة الجامعة ص ١١٠

[المرسلات: ٣٠] أن المراد بعالم الأجسام ذي الطول، والعرض، والعمق[1]، وهم يقولون بعد ذلك: "فاجتهد يا أخي في معرفة هذه المرامي والرموز التي ظهرت في كتب الأنبياء عليهم السلام، لعل نفسك تنتبه من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، وتحيا بروح المعارف الربانية، وتعيش بحياة العلوم الإلهية وتسلم من الآفات الطبيعية." وهم كثيراً ما يكررون هذا الكلام في رسائلهم.

وهم يؤولون قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧]

يقولون: "أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً" يعني القرآن، "فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا" يعنى حفظتها القلوب بمقاديرها من القلة والكثرة، "فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا" يعنى ما تحمل ألفاظه وظاهره معاني متشابهات، حفظتها قلوب المنافقين الزائفة، الشاكين المتحيرين، "وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ" مثل آخر يعنى الجواهر المعدنية لها زبد عند السَّيل كزبد السيل، ثم قال: "كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ" يعنى أمثال الحقائق والأباطيل، "فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ" يعني الأباطيل والشبهات تذهب فلا ينتفع بها، "وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ" يعني ألفاظ التنزيل تثبت في قلوب المؤمنين المصدقين، وتثمر الحكمة كما ذكر فقال عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾"[2]

وهذا تأويلٌ بعيدٌ، ليس عليه دليل، وليس له سند من اللغة أو الشرع؛ فالقرآن لا يمكن أن يُفسر بأنه ماءٌ لمجرد أنه نزل من السماء، وإلا لجاز أن نقول إن القرآن حديد لأن الله تعالى ذكر في القرآن أنه أنزل الحديد من السماء، وأنه ميزانٌ؛ لأن الله أنزل الميزان كذلك من السماء، ثم إن الأوصاف التي وصف الله بها الماء النازل من السماء كسيلان الوديان به طبقاً لمقادير محددة، واحتمال السيل زبداً

---

(١) الرسائل: ٢/٢١

(٢) [إبراهيم: ٢٤]، انظر الرسائل ٤ / ٧٧

رابياً...الخ؛ التي لا يمكن أن تنطبق بحال على القرآن.

يقول ابن كثير في تفسير الآية: "اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: "أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً" أي مطرا، "فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا" أي أخذ كل وادٍ بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها؛ فمنها ما يسع علما كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها، "فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًا" أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عال عليه، هذا مثل؛ وقوله: "وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ" هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة "ابتغاء حلية" أي ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدا فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه "كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ" أي إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يَثْبُت مع الماء ولا مع الذهب والفضة مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: "فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ" أي لا يُنْتَفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خَبَثُ الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: "وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ"، وهذا كقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣]، وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾".

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا...﴾ الآية، هذا مثلٌ ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: "فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ" وهو الشك، "فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ"، "وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ" وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقال العوفي: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾، يقول احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة "وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ" فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق جاءَا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق، وهكذا روي في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف.(1)

ويقول إخوان الصفا: ولما كانت صورة الحيوانات كلها ناقصة عن التمام وجب ألا يكون في ذلك الزمان شيءٌ مجال النقص، فلذلك وجب البرهان في الظهور أن الحيوان الصامت المجبوب لا يكون في ذلك الزمان [أي زمان البعث والحشر وسكنى الملكوت]، وأنه [أي الجسم] يفنى ويضمحل ويغيب حتى لا يُرى، ويكون العالم [أي العالم الآخر بحسب تأويلهم] كله صورة الإنسانية التي هي أحسن الصور، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

فعند ذلك يكون الإنسان بنفسه الشريفة الروحانية اللطيفة مَلَكًا مستغنيا عن الحيوان الصامت، وغير محتاج إليه... إذن فلا بقاء للحيوان في يوم القيامة، ولا وجود له بالنوع الذي هو عليه الآن؛ وهم يصرون على إبطال النعيم الحسي، ويقولون "فإنه بالفضائل تتخلى النفس عن الطبيعة دفعةً واحدة، وترجع إلى التعلق بالعقل،

---

(١) ابن كثير ٢ / ٢٧٦ وما بعدها. واللمنة ما تلبد من الحشائش واختلط من أبعار الإبل والطين، واللّمْنة المكان القريب من الدار، ويُجمع على دِمَن، ومنه حديث الرسول ﷺ: "إياكم وخضراء الدّمن"، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: "المرأة الحسناء في المنبت السوء" وشبه المرأة بما ينبت في الدمن من الكلأ تراه العين جميلا وهو في المرعى منتن الأصل سام. (لسان العرب ١٣/ ١٥٨)

لا يشوبها كدر، ولا يتعلق بها علق من الطبيعة، ولا عائق يعوقها، لتقبل منه (أي الله، أو الفعل الفَعّال عندهم) الفيض الكلى، والجود المحض، فيكون عند ذلك لها من اللذات، والنعمة، والبهجة، والسرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

وقد قرر إخوان الصفا من قبل أنه لا وجود عندئذ لأشخاص الأبالسة والشياطين من الجن والإنس. فهم إذن يتكلمون عن جنةٍ أرضية يتخيلونها، لا وجود لها في الواقع، ولا يمكن أن توجد. وهم بهذا يلتقون مع منكري البعث والنعيم الحسي ومنكري الدار الآخرة في الجملة.

وواضح من هذا أنهم يتكلمون عن عقائد غير إسلامية، يلبسونها ثوب الإسلام، ويستشهدون عليها خطأً بآياتٍ من القرآن، وهنا لا بد أن ننبه على أن استشهادهم بآية التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ على أن العالم كله يصير في صورة الإنسانية القويمة، وأن الإنسان يصير بنفسه الشريفة الروحانية ملكا مستغنيا عن الجسم وغير محتاج إليه، تأويلٌ فاسدٌ لا محل له من الدين ولا مسوغ له من العقل. فالإشارة في آية التين خاصة بصورة الإنسان أي صورته الجسدية التي خلقها الله في أحسن تقويم، والتقويم لا يكون إلا لهيئة وصورة جسمانية.[1]

هذا بينما يقرر إخوان الصفا أن البعث والنشور والحساب والعقاب هو أساس رسائلهم، والغرض منها في الوقت نفسه؛ فإنهم يبطلون البعث الجسماني والنعيم الجسماني في الآخرة، ويؤولون الآيات القرآنية الخاصة بالبعث وما يلحق به وفق مذهبهم الفاسد.

يقولون عند الكلام في العلوم الناموسية والشرعية في الآراء والديانات، وهى الرسالة الثانية والأربعون من رسائلهم: "وأما المؤمنون فهم مقرون بمواعيده، منتظرون لها، ولكن من الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة، ربما ترد على قلوب المقرين سلوك وحيرة وإنكار! من ذلك من يرى ويعتقد أنه لا يجازى ولا يكافأ على إحسانه وسيئاته إلا في الآخرة بعد الموت، أو يرى ويعتقد أنه لا تكون الآخرة إلا بعد خراب الأرضين والسماوات. وهذا الرأي والاعتقاد يبعد صاحبه عن طريق الآخرة

---

(١) ص١٥٨

ويقلل رغبته في تحصيل ثواب أعماله وجزاء إحسانه، ويقلل رهبته وخوفه من عقوبات سيئاته، وإليه أشار بقوله: "إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا"[1]، وبقوله (تبارك وتعالى): "أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ"[2]؛ وهكذا رأى من يعتقد أن الجنة التي وعد المتقون ليست بموجودة، وكذلك النار التي حذر الله عباده منها ليست بموجودة. ومثل هذه الآراء والاعتقادات وأمثالها تشكك معتقديها في الوعد، وتقلل رغبتهم فيه. هكذا حكمهم في الوعيد والرهبة منه."[3]

وعدّوا من الآراء الفاسدة "رأى من يرى ويعتقد أن الله الرحيم الرءوف الحنان يعذب الكفار والعصاة في خندق في النار غيظاً عليهم وحنقاً، وكلما أحرقت أجسادهم وصارت فَحْمًا ورمادًا، عادت فيها الرطوبة والدم لتحرق مرة ثانية....، وهذا الرأي يسيء ظن صاحبه بربه، ويعتقد فيه قلة الرحمة، وشدة القساوة- تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً".[4]

وهذا الكلام يناقض ما جاء في القرآن الكريم تماماً، وينقض ما اتفق عليه جميع المسلمين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، والآية لا تحتمل التأويل في أن العذاب في الآخرة حسي وكذلك النعيم.

وأما زعمهم في أن تعذيب الناس بالنار فيه قساوة، وهو مناف لرحمة الله تعالى، فهو مناف أيضا لكلام الله تعالى في القرآن، فعلى سبيل المثال، يقول تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]. ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾ [غافر: ٣]. ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٨٤].

---

(١) [المعارج: ٦- ٧]

(٢) [فصلت: ٤٤]

(٣) الرسائل: ٣/٥٢٧

(٤) المصدر نفسه: ٤/٥٢٧، ٥٢٨

جاء في الخبر أن معاذ بن جبل﷛ قال: "**تبدل الجلود في ساعة مائة مرة**"، فقال عمر﷛: هكذا سمعت رسول الله ﷺ- يعني أنه قاله. الخبر رواه ابن أبي حاتم.

وورد أنه: "**لو وُضع جبلٌ في بطن العاصي الذي يعذب لَوَسِعه، فإذا أكلت النار جلودهم، بُدِّلَت جلودًا غيرها**". قاله الربيع بن أنس.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: "**يعظم أهل النار في النار، حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام وإن غلظ جلده سبعون ذراعا وإن ضِرسه مثل أُحُد**".[1]

وجاء في "تنزيه القرآن عن المطاعن" للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي (ت: ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) ردٌّ على اعتراض محتمل حول هذه الآية، وهو "أن ذلك يوجب تعذيب من لم يذنب، أو تعذيب بعض من العاصي لم يكن بعضاً له في حال الذنب، ويوجب أيضًا أن يصير الواحد من أهل النار على الأيام في نهاية العظم، بأن يُخلق له جلدٌ حالاً بعد حال، وكل ذلك لا يحس. وجوابنا أن المراد بهذا التنزيل أنه تعالى يغير ذلك الجلد عن صورة الاحتراق إلى صورة الصحة، فيقال إنه بدل، وإن كان الجلد ثانياً هو الذي كان أولاً، كما يقال في الماء إنه قد تغير أو تبدل إذا صار ملحاً بعد أن كان عذبًا.

وقد قيل إن الله تعالى يَخلق جلداً بعد جلد، ولا يوجب ذلك فساداً؛ لأن المعذَّب هو العاصي دون أبعاضه، ويصح عندنا أن يُعظم الله تعالى جسد أهل النار، على ما رُوى في الخبر، ويعذبون، وهذا كما يذم ويلعن الكافر، وإن صار بعد كفره سميناً، ولا يؤدى إلى العظم الذي ينكر، فإنه تعالى كما يخلق جلداً بعد جلد، يفنى ذلك حالاً بعد حال، لذلك قال تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] فجعل ذلك عذابا لهم لا للجلد".[2]

إن كلام إخوان الصفا بالنسبة لتعذيب العصاة يُظْهر بلا شكٍّ تأثرهم بالنصرانية، على الرغم من أنه قد ورد في الأناجيل ما يفيد وقوع النعيم والعذاب الحسِّيين في الآخرة، كما في قصة أليعاذر- الذي رأى أهل الجنة يتنعمون فطلب

---

(١) ابن كثير ١ / ٤٠٤- ٤٠٥ ، والحديث تفرد به أحمد من هذا الوجه

(٢) القاضي عبد الجبار . تنـزيه القرآن عن المطاعن . ص٩٩

منهم بلّ أصبع ماء ليذهب ظمأه.[1]

وينبغي أن يكون معلوما ديناً وعقلا، أن رحمةَ الله تعالى واسعةٌ، تشمل جميع الخلائق، وعدله واسع أيضا يشمل جميع الخلق، والثواب والعقاب يرتبطان بأفعال العباد وبالحرية الإنسانية وبالتكاليف. وإذا كان الله تعالى خلق العباد مختلفين، ولم يجبرهم على فعل المعاصي بل أمهلهم واستعجلهم التوبة والأوبة، فكيف يُسوي بينهم يوم القيامة فيثيب الجميع، ولا يعذب العاصين، هذا لو وقع يكون هو عين القسوة، وعين الظلم، وما ربك بظلام للعبيد.

ومما عده إخوان الصفا خطأً من الآراء الفاسدة اعتقاد المسلمين "بأن أهل الجنة أجسادهم لَحْمية، وأجسامهم طبيعية مثل أجساد أبناء الدنيا، قابلة للتغيير والاستحالة، متعرضة للآفات. فإذا تأمل ما وصف الله تعالى في صفات أهل الجنة لا يمسهم فيها نصبٌ، ولا يذوقون فيها الموت إلا الموتةَ الأولى، وأنهم خالدون وما شاكل هذه الأوصاف المذكورة في القرآن التي لا تليق بالأجساد اللحمية والأجساد الطبيعية"، ثم يقولون: "إنه لا يليق بالعقلاء فضلاً عن الحكماء أن يعتقدوا مثل هذه الآراء، ويرون أنها أجدر بالنساء والجهّال والصبيان وجيدة لهم، فإن هذا الرأي يليق بأفهامهم ويصلح لهم، ويقرب من عقولهم ما وعدوا به وما يوعدون من نعيم الجنان، ورهبتهم من عذاب النيران، ويزيدهم خوفاً من سوء أفعالهم فيتركونها، ويَقْوى رجاؤهم لثواب أعمالهم. "وعليكم بدين العجائز" لائق في هذا المقام، لا في مقام آخر".

وقد أخطأوا أيضاً في اعتراضهم على ما جاء في القرآن من تعذيب الكفار على النحو المفصل في كتاب الله وسنة نبيه، وأولوا ذلك على مقتضى مذهبهم، بحيث صرفوه عن معانيه الواضحة والتي هي محل إجماع أهل القبلة.

ويستمر إخوان الصفا في تزيين زعمهم، فيقولون بأن الإنسان الذي رزقه الله قليلاً من التمييز والعقل والفهم، ونظر في علوم الحكمة (يعنى الفلسفة) فإن هذا الرأي لا يصلح له، ولا يليق به، لأنه إذا عرضه على عقله أنكره عليه، فيقع عند ذلك في شكٍّ وحيرة وسوء ظن وتخيلات فاسدة. وأسوأ الناس مذهباً وأشنعهم رأياً عندهم من يعتقد أمراً، ويكون عقله مُنْكراً عليه، ونفسه مرتابة، وظنه سيئاً بربه؛ ويستشهدون

---

(١) انظر ابن حزم. الفِصَل ٢/ ١٠٣- ١٠٤

على سوء الظن بالله في هذا الصدد بقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣]، فهم قد أخطأوا خطأً ذريعاً، خرج بهم عن الإسلام، إذ أنكروا الوجود الحسي للإنسان في الجنة أو في النار، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإنهم قد استشهدوا بالآية التي بين أيدينا، في غير موضعها، إذ إن الظن الذي أَرْدَى أصحابَه- أي أهلكهم- هو ظنهم أن الله لا يعلم كثيراً مما كانوا يعملون، وبما نطقت به جلودهم، وشهدت عليهم بها أسماعهم وأبصارهم، كما جاء في الآيات التي سبقت هذه الآية، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[فصلت: ١٩: ٢٢].

وأما لجوء إخوان الصفا إلى العقل، وإلى الفلسفة في إنكار البعث الجسماني والنعيم الحسي فإنه تحكم مرفوض، فإن العقل لا يحكم على الغيبيات؛ لأنها واقعة خارج مداه وبعيداً عن مداره، وهي فوق قدرته وطاقته، ولكن الله سبحانه وتعالى أقدره عل الإيمان بها والتسليم لها بعد أن تسلمها من أنبياء الله. والفلاسفة ليسوا حُكَّاماً على الرسل، ولا على الوحي، والفلسفة لا يمكن أن تُلغِي الدين، ولا أن تحل محله، كما أنها لا يمكن أن تقوم بوظائفه؛ لا الفلسفة ولا العلم يمكن أن يحل محل الدين. ومشكلة إخوان الصفا أنهم يقفون بالنسبة لكثير من المسائل في مهب الريح، ولا يستطيعون أن يحسموا أمرهم، ولذلك فقد كَثُر الخُلط والتعارض في أقوالهم، والركاكة في أسلوبهم، فإنهم أحياناً ينقدون الدين بالفلسفة، وأحياناً أخرى ينقدون الفلسفة بالدين؛ فهم إذن الذين يتقلبون في الحيرة والتخيلات الفاسدة.

ومما يمكن أن يُخرج إخوان الصفا من ربقة الدِّين كذلك قولهم بفساد اعتقاد المسلمين في وجود إبليس وجنوده من الشياطين. يقولون: "ومن الآراء الفاسدة من يعتقد أن الله خلق خلقاً وربَّاه، وأنماه، وأنشأه، وسلَّطه، وقَوَّاه على عباده، متمكنا في بلاده، ثم ناصبه العداوة والبغضاء، وهو إبليس وجنوده من الشياطين،

وهم يفعلون ما يريدون على رغم منه! وهو الجاعل لهم المشيئة والإرادة والعداوة والاستطاعة وطول العمر والمهلة وسعة الرزق والنعمة. فإن صاحب هذا الرأي، إذا فكر في أمر إبليس وجنوده، وما نسب إليه من السرور، وما يعتقده من مخالفتهم لله وعداوتهم، فإنه امتلأ منهم غيظاً وحقداً عليهم، وناصبهم العداوة والبغضاء، حتى إنه لو أمكنه قتلهم كلهم، أو قدر على قطع أرزاقهم، فعل من شدة غيظه عليهم، وإذا لم يقدر على ذلك بقي، طول عمره، مغتاظاً مغتماً متألماً نفسه، معذباً قلبه، حتى إنه ربما فكر في خلق الله لهم، وتربيته إياهم، وسعة رزقه عليهم، وتمكينه لهم فيما يفعلون، وإمهاله لهم، فعاتب ربه في الضمير، وخاصمه في السر ، ويقول: لِم خلقهم، ولِم رباهم ورزقهم، ولِم مكنهم وسلّطهم، ولماذا، ولِم، وكيف؟ وما شاكل هذه الوساوس والظنون الموبقة المؤلمة لنفوس المعترضين على الله في تدبير خلقه، وإنفاذ مشيئته، وإجرائه المعلوم على ما كان في سابق علمه".[1]

ومن جهة أخرى فإن إخوان الصفا يُمجدون أنفسهم وأتباعهم، ويصورونهم بأنهم هم وحدهم على الحق، وعلى الرأي الصحيح، وأنهم المتجملون بالصبر على عباد الله، المتحملون عبء هدايتهم.

ولكي يغطوا على مزاعمهم نراهم، وفى هذا الموضع بالذات، يُغَلِّفون كلامهم بكثير من الآيات القرآنية، وما ذلك إلا للتمويه على القارئ وتضليله.

ويؤكد إخوان الصفا إصرارهم على رفض البعث الجسماني، والثواب والعقاب الحسيين في مواضع كثيرة من رسائلهم، مرةً بالتصريح الواضح، ومرةً بالتلميح الخفيف، على سبيل المثال يقولون: "واعلم يا أخي أن الأمور التي يخاف منها في العاقبة، ويرجى إليها الوصول في استعمال النواميس، نوعان اثنان: أحدهما دنيوي، والآخر أخروي. فأما الدنيوي مثل الرياسة وحسن الثناء والعز والمال ومتاع الدنيا، ما دامت النفس مقرونة مع الجسد، وما يبقى منها من الذرية والأعقاب بعد الممات؛ والأخروي هو نجاة النفس من بحر الهيولي وأسر الطبيعة، والخروج من هاوية الأجسام، وعالم الكون والفساد، التي تحت فلك القمر، والفوز بالصعود إلى ملكوت السماء، والدخول في زُمَر الملائكة، والسَّيَحان في فضاء الأفلاك، وسعة

(١) الرسائل ٣ / ٥٢٨ وما بعدها

السماوات، والتنسم من ذلك الروح والريحان، المذكور في القرآن الذي يقصر الوصف عنه إلا مختصراً كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾"[1]

وهذا القول مأخوذ من الفكر النصراني والهندوسي، حيث يعتقد النصارى والهندوس بأن الروح أو النفس تنطلق في عالم السماوات وتسيح في الملكوت، بعيداً عن قيد الجسم دون حاجة إلى الطعام أو الشراب التي اعتادت عليها في الحياة الدنيا، والعجيب أن إخوان الصفا يتناقضون مع أنفسهم، عندما يقررون أن العقل ليس مجاله الدِّين، وليس من حقه أن يُعَدّل على المُشَرّع، ويقولون: "إن كثيرا من العقلاء الذين يتعاطون الفلسفة والنظر في المعقولات، إذا فكروا بعقولهم في أحكام الناموس، وقاسوها بآرائهم وتمييزهم وفهمهم، يؤدي بهم اجتهادهم وقياسهم إلى أن يروا ويعتقدوا في كثير من أحكام الناموس أن العدل والحق والصواب في خلافه. كل ذلك لقصور فهمهم وقلة تمييزهم وعجز معرفتهم عن كنه أسرار أحكام الناموس. مثال ذلك أنهم إذا فكروا في حكم المواريث، أن للذكر مثل حظ الأنثيين، فيرون أن الصواب كان أن يكون للأنثى مثل حظ الذكرين، لأن النساء ضعفاء قلائل الحيلة في اكتساب المال، ولا يدرون ولا يبصرون أن هذا الحكم الذي حكم به الناموس سيؤول الأمر به إلى ما أشاروا إليه وأرادوه، وذلك أن الناموس لَما حكم للذكر مثل حظ الأنثيين، حكم أيضاً أن المهر في التزويج على الرجال للنساء، فهذا الحكم يؤول الأمر به إلى أن يحصل للأنثى من المال مثل حظ الذكرين".[2]

ويَعُدّ إخوانُ الصفا من الآراء والاعتقادات الفاسدة من يرى ويعتقد "أنه لا يجازى ولا يكافأ على إحسانه وسيئاته إلا في الآخرة بعد الموت، أو يرى ويعتقد أنه لا تكون الآخرة إلا بعد خراب الأرضين والسماوات."[3] وهذان الاعتقادان إنما يبعدان عن صاحبهما، طريق الآخرة، ويقللان رغبته في ثواب أعماله وجزاء إحسانه، ويقللان رهبته وخوفه من عقوبات سيئاته، وهم يستشهدون خطأً على صحة رأيهم

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٧٧- ٧٨ - [السجدة: ١٧]

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ٧٩

(٣) المصدر نفسه: ٥٢٧/٣

بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝﴾[1]، وبقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[2]. وهم يخطئون كذلك من يعتقد أن الجنة ليست موجودة، ولكنهم يعنون أن الجنة والنار موجودتان في هذا العالم الحاضر، وليس في عالم آخر؛ وهم لأجل ذلك، يؤولون آيات القيامة، وزوال هذا العالم تأويلاتٍ تتفق مع فكرهم الباطني، كما سنوضحه بالمثال فيما بعد.

ومن الجدير بالتنبيه عليه أن جماعة "جهوفا جد ويتنيسز" Johovah God Witnesses يلتقون مع إخوان الصفا في الزعم بأن الجنة موجودة على الأرض وهي في داخل هذا العالم.

عرفنا أن إخوان الصفا يهتمون في رسائلهم بمسألة المعاد والبعث، ويعتبرونها هي أساس وجود الإنسان ومعرفته بنفسه وبربه، كما أشرنا إليه آنفاً، وبالإضافة إلى ما سبق يقول إخوان الصفا في رسالة "جامعة الجامعة" في الفصل الرابع عشر منها أن المبدأ والمعاد هما الغرض "من رسائلنا كلها، وإليه المنتهى، وهو الغاية القصوى، والمنزلة العليا، والماء المعين، والعلم اليقين، والحق المبين، والصراط المستقيم... وقد رمزنا بهذا العلم الجليل، ولَوَّحنا بذكر طرف منه، ولم نورده بأجمعه، مما وقفنا عليه، ووصلنا بتوفيق الله وقدرته إليه، وقد ادخرناه لهذا المكان من رسالة "جامعة الجامعة" لنورده بإيضاح البيان، وحقائق البرهان، وإن ما قدمناه من الرسائل هي مقدمات تشير إليه وتدل عليه"[3]، وهم يوصون أتباعهم بأن يصونوا هذا العلم، وأن يعملوا فيه بموجب حق الأمانة، وألا يضعوه في غير موضعه، أو يفصحوا عنه لغير مستحقه.[4]

ويقولون أيضاً: "وهو (أي أمر المبدأ والميعاد) وإن كان ظاهر البرهان، لائح البيان، فلا يصل إليه، ولا يتمكن من الإطلاع عليه غير أهله، ومن وفقه الله لعلمه، ومن كان من غير أهله فإنه لا يعلمه ولا يقف عليه ولا يهتدي، فعند ذلك يعلن الطعن على صاحبه، ويكفر واضعه، وينسب إليه الكفر والإلحاد، ويرميه بالبهتان

---

(١) [المعارج: ٦- ٧]

(٢) [فصلت: ٤٤]

(٣) صـ ٩٦ - ٩٧

(٤) المصدر نفسه ٩٦-٩٧

والعناد".[1]

وهؤلاء المنكرون هم معدودون من حَصب جهنم، عند إخوان الصفا، يعني يشملون كل من لا يفهم المبدأ أو المعاد على منوالهم ووفق تصورهم وهؤلاء يُعتبرون خارجين عن الدين مستوجبين للعقاب في نار جهنم.[2]

ومن أجل أن يوهموا قُرّاءهم بأن آراءهم مستمدةٌ من القرآن، فإنهم قد حشدوا في رسائلهم معظم الآيات التي تتكلم عن البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب، وعن صرخات أهل الجحيم وكلامهم، وبعد أن يضع إخوانُ الصفا القارئَ أو المستمع لكلامهم في هذه البيئة القرآنية، يبدءون في تأويل الآيات على وفق الأغراض المسبقة، والتي تخرج بها عن المعاني الموضوعة إجمالاً لهذه الآيات.[3]

ويكرر إخوان الصفا القول بأن الجنة تقع في الأرض، فعلى سبيل المثال نجدهم يقولون بالإضافة إلى ما سبق ذكره: "فيومئذ يورث الأرض الذين آمنوا، يتبوءون من الجنة حيث يشاءون فنعم أجر العاملين، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم... والعرش هنا هو عرش الملكوت الذي لا تدركه صفة مخلوق، وهو علمه المحيط بالمخلوقات كلها، وهو الإبداع الأول التام عرش الله عز وجل، والملائكة هم الرؤساء العالون الباقون[4]، والرؤساء العالون الباقون هم النطقاء السبعة أصحاب الشرائع الذين جاءوا بكتبٍ سماوية، وقد أشرنا إليهم من قبل، وقد صرح بهم إخوان الصفا هنا في رسالة جامعة الجامعة.[5]، ومن الواضح أنهم ختموا كلامهم عن القيامة بكلام مختصر.[6]

ولكنهم على الرغم من هذا يسيرون على الخط نفسه، فيعطون الألفاظ الأخروية، كلما مروا بها، معاني خاصة بهم، فهم يقولون في الفصل التاسع والأربعين: "وأما معنى الجنة فهي العوالم الثمانية: أولها جنة الميراث". وهى تلك التي أشاروا إليها في الفصل الرابع والعشرين في الصفحة رقم (١٢٨)، في قرينة قوله تعالى الذي

---

(١) ص ١٠٥

(٢) ١٠٥ – ١٠٦

(٣) انظر ص ٩٨– ١٠٦

(٤) جامعة ص ١٢٨

(٥) المصدر نفسه ص ١١٣

(٦) انظر جامعة الجامعة ص١٢٨ – الفصل الرابع والعشرون

ضمنوه كلامهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤].

و"الأرض" المشار إليها هنا ليست هي أرض هذا العالم، وإنما هي أرض الجنة التي هي خارجة عنه، وهذه الآية تتفق في معناها مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ ولهذا قال أهل الجنة "نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ" أي أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

ومما ينبغي معرفته في هذا الصدد أن النبى ﷺ رأى الجنة خارج هذا العالم ووصفها لنا ليلة الإسراء والمعراج.[1]

أما وراثة الأرض التي هي في عالم الدنيا، فقد جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]

أما أرض الجنة التي سيورثها الله تعالى لعباده، فتأتى الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وإذن فمن الواضح من هذه الآيات أن الجنة ليست على هذه الأرض، ومما ينبغي ملاحظته أنه لا توجد جنة ميراث وجنة كسب، وإنما هي جنة واحدة، لها درجات مختلفة جاء ذكرها في القرآن، كما ذكرتها السنّة المطهرة بكثير من التفصيلات.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣ /٢٣٣

أما عند إخوان الصفا فجنةُ الميراث رتبةٌ، وهى الرتبة الإنسانية، ولسنا ندرى كيف تكون الجنةُ رتبةً إنسانية، والرتبة الإنسانية هبةٌ، وكلا الطرفين لا يُعرَّف قط بالطرف الآخر.

وثاني الجنات عند إخوان الصفا "جنة عدن"، وهى الرتبة الْمَلَكِية، وتكررت كلمة "جنات عدن" إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم، وفي كل هذه المواضع تأتى كلمة "جنة" بالجمع "جنات"، على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[التوبة: ٧٢]. و"جنات عدن" يعنى جنات استقرار وثبات، يقال: عَدَنَ بمكان كذا، أي استقر وثبت فيه، ومنه: المعدن التي تسمى به الجواهر المستقرة.(١)

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **"السائِبة جُبارٌ والجب جُبارٌ والمعدن جبار، وفي الركاز الخُمس"**(٢)

وثالثها: "جنة الخلد"، وهى العوالم الفلكية، وجنة الخلد هي الجنة مضافاً إليها الإشارة إلى خلود أهلها فيها، وليست هي نوعاً آخر من الجنة.

ولفظ الخلد تردد ست مرات في القرآن الكريم، مرةً مضافاً إلى العذاب، كما في قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢]، وقوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾ [السجدة: ١٤].

كما ذكرت مضافةً إلى الشجرة التي نُهي آدمُ عن الأكل منها في الجنة، يقول تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: ١٢٠].

وجاءت مضافةً إلى الجنة أيضاً في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ۝١٥﴾ [الفرقان: ١٥]؛ وقد ذُكرت بهذا الوصف في القرآن مرةً واحدة، وفى هذا الموضع لا غير.

---

(١) الراغب الأصفهاني – مفردات ألفاظ القرآن ٥٥٣

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٣/٣٥٤، والسائبة هي الدابة المرسلة في رعيها، والجب هو البئر، معنى جُبار أي هدرٌ، ويقال ذهب دمه جباراً أي هدراً، والركاز: الثروة الطبيعية تكون في باطن الأرض.

وذكرت لفظة "الخلد" مضافةً إلى "الدار الآخرة" كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[فصلت: ٢٨]

وذلك خلود أهل الجنة في الجنة، وخلود أهل النار في النار، بالصيغ التالية: "**خالد**" (مرة) [محمد: ١٥]؛ "**خالدًا**" (ثلاث مرات) [النساء: ١٤، ٩٣]؛ و[التوبة: ٦٣]؛ و"**خالدين**" (مرة واحدة) [الحشر: ١٧]؛ "**خالدون**" (خمس وعشرون مرة)؛ "**وخالدين**" (أربع وأربعون مرة)؛ و"**الخلود**" (مرة واحدة) وهو مضاف إلى "يوم" في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[ق: ٣٤]؛ و"**مخلدون**" ذكرت مرتين.

ورابعها "الجنة العالية" يقصدون- المشار إليها في قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية:١٠]، والجنة العالية هي هي الجنة الموصوفة في القرآن بالأوصاف المختلفة؛ ولكنها عند إخوان الصفا: هي العوالم الروحانية المجردة عن العوالم الجرمانية (من الجرم وهو الأصل).

وخامسها "جنة الفردوس"، وقد تكررت مرتين في القرآن الكريم، مرةً مضافاً إليها "الجنات"، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٧]، ومرةً وردت بلفظ الفردوس هكذا كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١].

و"الفردوس" قال مجاهد: هي بالرومية البستان. وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة- أي أعلاها أوسطها وأفضلها. وفى الصحيحين قال ﷺ: "**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة**" ومعنى نزلاً: أي ضيافة . أما عند إخوان الصفا فإن "جنة الفردوس" هي العوالم النفسية، وما أبعد جنتهم عن جنة المسلمين.

وسادسها: "جنة النعيم"، وهى عالم العلم. أما جنات النعيم في القرآن وأوصافها، فقد ورد ذكرها في القرآن بهذا اللفظ ست عشرة مرةً، إلا في موضع واحد منها؛ فقد وردت إشارة إلى نعيم الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]؛ أما كون "جنة النعيم" تعني عالم العِلم، فقولٌ مستهجن، وتأويلٌ فاسد للفظ القرآن.

والجنة السابعة عندهم هي "جنة الرضوان" وهى عالم العقل. ولفظة "رضوان"

وردت في القرآن في ثمانية مواضع [آل عمران: ١٥، ١٦٢، ١٧٤] ؛ [التوبة ٢١، ٧٢، ١٠٩]؛ [الحديد ٢٠، ٢٧].

وثامنها: "جنة المأوى"، وهى عالم الأمد الإلهي الذي بدت منه العوالم وإليه تعود. ولفظة "المأوى" وردت أربع مرات في القرآن، "مرة" مضافة إلى جنات: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]. ووردت "مرةً" مضافة إلى لفظة "جنة" بالمفرد كما في قوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٥]، و"مرةً" ذُكرت تعبيراً عن الجحيم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٩].

و"درجات الجنة" عند إخوان الصفا هي مراتب العلوم في كل مقام، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].(١)

وهذا الكلام صادر عن الملائكة، أي وما منا أحدٌ إلا له موضع مخصوص في السماوات، ومقام العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال الرسول ﷺ: **"ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملَك ساجد أو قائم"**. يقول ابن كثير: فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. [أخرجه الضحاك في تفسيره، ورواه ابن عساكر بنحوه وأصله في الصحاح].(٢)

وعند كلامهم في معنى "الأب والأم" في الروحانية، وفى الولادة الروحانية، يقولون: "...فأبواه (أي الإنسان) في البداية الشمس والقمر، وأبواه في ولادة الدنيا الذكر والأنثى، وأبواه عند خروجه إلى دار الآخرة (وهى الدنيا عندهم) مُعَلِّم حميد، وأستاذ رشيد يعمل في شرائع نبوته، وصنائع فلسفته، فبهذه الولادة يكون التمام، والبلوغ إلى درجة الكمال، ولذلك قال المسيح ﷺ: "من لا يولد الولادتين، ويرضع الرضاعتين، لم ير ملكوت السماوات، فاعلم ذلك أيها الأخ، وتدبره، عساك ترقى إلى درجات الأبرار...".(٣)

والذي وجدناه في إنجيل يوحنا في الإصحاح الثالث منه: "أجاب يسوع، وقال له:

---

(١) انظر جامعة الجامعة ٢٠٣

(٢) انظر ابن كثير ٣ / ٩٣، ورسالة جامعة الجامعة ٢٠٣

(٣) جامعة الجامعة ص ١٣٥

الحق الحقّ أقول لك، إن كان أحد لا يولد من فوق، لا يقدر أن يرى ملكوت الله، قال له نيقوديموس: كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ. أَلَعَلّه يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟ أجاب يسوع: الحق الحقّ أقول لك، إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله. المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح... الخ" (٣: ٦)

وفي رسالة بطرس الأولى، جاء مثل هذا المعنى: "مولودين ثانية لا من زرع يفنى، بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد. لأن كل جسد كعشب، وكل مجد إنسان كزهر عشب. العشب يبس وزهرة سقط". (١: ٢٣-٢٤)

فهذا الكلام واضح في إسقاط البعث الجسماني، وفى القول بفناء الجسم بعد الموت، وبالولادة الجديدة عن طريق الدعوة. وهذا هو الخط الذي سار عليه إخوان الصفا وقلدوه وتأولوا من أجله آيات القرآن الواضحة تأويلاً فاسداً نزولاً على فكرهم الباطني وتأييداً لمذهبهم الذي لفقوه ونسجوه من خيوط كثيرة ومتنافرة.

ومما لفت نظرنا قول إخوان الصفا في رسالتهم حول السحر والعزائم: "وقيل إن أول شجرة طلعت على وجه الأرض شجرة أصلها كهيئة الإنسان وهى مقدمة الكون الإنسانى ... وإذا كسر عودها، وجد داخلها كالصليب ... وهى شجرة معروفة، وهى تنفع في الشفاء من داء الصرع، إذا علقت على من به صرع."[١] وهذا كلام ليس عليه برهان، ولا يطمئن إليه القلب.

وفي خاتمة هذا الموضوع نجمل ما سبق أن فصلنا فيه القول بشأن تأويلات إخوان الصفا، وقد رأينا كيف أعملت الباطنية، ومنهم إخوان الصفا، أهواءها في القرآن، وأعطوا الآيات معاني ليس عليها برهان ولا هي من معاقد الإيمان، وقد جاء النهي مشدَّدًا في القول بالرأي في القرآن. عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "من قال في القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار" وقد ثبت عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه قال: "أي أرض تُقِلُّنِي، وأي سماء تظلني، إن قلت في آية من كتاب الله برأي، أو بما لا أعلم"، قاله أبو بكر لما سُئل عن الأبّ في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، ما هو؟ فقال ما قال. هذا في معنى كلمة من حيث اللغة، فما بالنا بالباطنية الذين أعطوا القرآن معاني بعيدة وأوّلوه تأويلا فاسدا.

---

(١) الرسائل ٤/ ٤٣٣

وصح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: "اتهموا الرأي على الدين، وإن الرأي منا هو الظن والتكلف".

وعن عثمان ﷺ في فُتيا أفتى بها: "إنما كان رأيا رأيته، فمن شاء أخذه ومن شاء تركه".

وعن علي ﷺ: "لو كان الدين بالرأي، لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، لكني رأيت رسول الله ﷺ يمسح على أعلاه". ومعنى كلامه: لولا النص الوارد فيه، لمسحنا برأينا أسفل الخف، لأنه أولى بالمسح، ولو فعلنا لأثبتنا الحكم بالرأي.

وعن ابن مسعود ﷺ: "سأقول فيها- أي في المسألة- بجهد رأيي، فإن كان صواباً فمن الله وحده، وان كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريء".

وعن معاذ بن جبل ﷺ في حديث يبتدع كلاما ليس من كتاب الله عز وجل، ولا من سنة رسول الله ﷺ، فإياكم وإياه، فإنه بدعة وضلالة.[1]

وقد فعل الباطنية وإخوان الصفا بالقرآن ما فعله غير المسلمين بكتبهم من التأويل الفاسد والتحريف المغرض، لقد أعملوا فيه رأيهم، وحشو تفسيراتِهم الباطلة له بالخرافات، والترّهات والعنديات والتحكمات، ودعوا من خلال ذلك إلى أنفسهم وباطلهم، ولم يدعوا بالقرآن إلى القرآن، ولا إلى الله -تعالى- الذي أنزله، ولا إلى النبي الذي بَلَّغه ﷺ؛ وجعلوا ظاهره حرفاً، وباطنه صرفاً، يصرفون به الناس عن الشريعة، بدعاوى كاذبة ومزاعم مفضوحة، واتخذوه بسفههم مطيةً لأغراضهم الطائفية، وتأوّلوه، وجعلوه طريقاً لقطع الطريق بين المسلمين والإسلام.

والله تبارك وتعالى قد قال لنبيه ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وهم قد قرءوا باسم الإمام، وقائم الزمان، والوصي، والغائب، والمنتظر، والدور؛ وباسم الفلاسفة والمنجمة؛ وباسم مَذْدك والمجوس دَعَوا إلى أنفسهم، وشَقّوا صف الأمة، وكسروا اللأْمَة، وفتحوا باب الحصن أمام خصوم الإسلام، وتعاونوا معهم في كل عصرٍ على ضرب المسلمين وكشف عوراتهم، وتسليم حريمهم، وهتك حُرماتِهم، والاعتداءِ على مقدساتهم.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ

(١) انظر ابن حزم. المحلى ٦٢/١

أَوْلِيَآءَ﴾[1]، هذا فرض من الله أن تتبع ما جاء به الرسول ﷺ لا غير؛ ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾[2]، ويقول: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝﴾[3].

وكما فعل الباطنية وإخوان الصفا مع القرآن، فعلوا كذلك مع السُّنَّة، فخرجوا بها عن معانيها ومراميها، وخبُّوا فيها وأوْضَعُوا؛ فهم على سبيل المثال قد انتحلوا حديث رسول الله ﷺ في البيعة، ووجوب لزوم الإمام وطاعته، لأنفسهم، قال ﷺ: **"من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له؛ ومن مات وليس في عنقه بيعةٌ مات ميتةً جاهلية"**[4]، وبنوا عليه أن اتّباعَهم واجبٌ، وهو أصل الدين الذي لا يصلح الإيمان إلا به، وكذبوا في ذلك وجحدوا حقَّ الدين والأمة، وبعدوا عن جادة الصواب وحادوا عن الصراط المستقيم.

---

(٢) [الأعراف: ٣]

(٣) [النحل: ٧٤]

(١) [النجم: ٢٨: ٣٠]

(٢) الحديث رواه مسلم عن زيد بن محمد عن نافع عن عبد الله بن عمر .

المبحث الخامس

معتقدات إخوان الصفا

وموقفهم من الديانات والآراء والمذاهب والمقالات

لإخوان الصفا مجموعة من المعتقدات والآراء بَثّوها في ثنايا رسائلهم؛ غير أنهم مع هذا قد أفردوا الرسالة الثالثة (الرابعة والأربعون) من رسائلهم لبيان اعتقادهم ومذهب الربانيين. وقد وضعوا هذه الرسالة في الترتيب بعد الرسالة الثانية من العلوم الناموسية والشرعية، وتدور حول ماهية الطريق إلى الله عز وجل، وهو الطريق المستقيم، وما ينبغي على الإنسان عمله لمعرفة هذا الطريق ومعرفة طريقة السير فيه والاستعدادات اللازمة لذلك.

ولأن إخوان الصفا قد خططوا لتأسيس جماعتهم ووضعوا المنهج الذي يسيرون عليه في دعوتهم، فقد بدءوا هذه الرسالة بالحديث عن الأنبياء وكيف دعوا أقوامهم، وكيف مهدوا النفوس لقبول ما جاءوا به؛ وقد قسّموا الديانات إلى قسمين رئيسين: ديانات شرعية ناموسية (إلهية سماوية)؛ وديانات فلسفية وضعية، وذهبوا إلى أن المذاهب والديانات كلها قد وضعت أساساً كالعقاقير؛ يقولون:

"والغرض من هذه الموضوعات كلها هو البيان بأن المذاهب والديانات كلها وضعت كالعقاقير والأدوية والأشربة لمرض النفوس وكسب الصحة ولطف الحيل لخلاصها من بحر الهيولي وأسر الطبيعة؛ ووصف طريق الآخرة وكيفية النجاة في المعاد من جهنم عالم الكون والفساد، والوصول إلى الجنان والفردوس عالم الأفلاك والسبع السماوات؛ وإن أكثر هذه الديانات لأقوام قد انحرفوا عن طريق النجاة، وبعدوا عن انتهاج سبيل الرشاد، فاستولى عليهم الميل والعصبية، والحمية الجاهلية، نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فضلوا ضلالا بعيدا، وما الله بظلام للعبيد".[1]

إن مهمة الأنبياء في بدء دعوتهم أنهم ذكّروا الناس ما قد نسوه من أمر الآخرة

---

(١) الرسائل: ٣٨/١– ٣٩ .

والمعاد، ونبَّهوهم من نوم الجهالة ورقدة الغفلة التي هي مرض النفوس، وأنهم صبروا عليهم وتأتوا لهم، ولم يتعجلوهم أو ييأسوا من هدايتهم، وقد كسب الأنبياءُ أتباعهم الواحدَ بعد الواحد حتى التأمت عليهم الجماعة الكبيرة التي آمنت بهم وصدقتهم واتَّبَعَتْهم، وساعدتهم بعد ذلك على نشر دعوتهم. ونلاحظ أن إخوان الصفا قد أشارت إلى عمر بن الخطاب ﷺ الذي دخل الإسلام وصار من إخوان الرسول ﷺ، ومن أكبر سفرائه بفضل دعوته ﷺ، ولم نلاحظ الروح الشيعية في كلامهم تجاه عمر ﷺ.

في هذه الرسالة على وجه التحديد نجدهم يُضَمِّنون كلامهم كثيرًا من معتقداتهم الدينية والفلسفية بطريقةٍ إشارية ورمزية. يقولون في الفصل الثاني من الرسالة نفسها:

"اعلم أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، إنّا نحن جماعة إخوان الصفا أصفياء، وأصدقاء كرام، كنا نيامًا في كهفِ أبينا آدم مدةً من الزمان تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحِدثان (الليل والنهار)، حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرق في البلاد في مملكة الناموس الأكبر، وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة في الهواء التي ذكرناها في الرسالة الثانية، وهي التي أخرج منها أبونا آدم وزوجته وذريتهما لما خدعهما عدوهما اللعين وهو إبليس، وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، واغترا بقوله وحملهما الحرص والعجلة، فبادرا وطلبا ما ليس لهما أن يتناولاه قبل استحقاقه في أوانه، فسقطت مرتبتهما وانحطت درجتهما، وانكشفت عورتهما، وأُخرِجا هما وذريتهما جميعاً (أي كم الجنة)، بعضهم لبعض عدو. وقيل لهم: اهبطوا منها ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، فيها تحيون وفيها تموتون، ومنها تخرجون يوم البعث، إذا انتبهتم من نوم الجهالة، واستيقظتم من رقدة الغفلة، إذا نفخ فيكم بالصور، فتنشق عنكم القبور، وتخرجون

من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصبٍ يوفضون"[1]

الرموز هنا تشتمل على عبارات: "كنا نياما في كهف أبينا آدم"، والمقصود منها غالبا "ظَهر آدم" حيث كانت الذرية فيه كالدَّر، راقدةً أو كامنةً تنتظر الخروج منه حيث العالم الفسيح؛ و"النوم" في النص رمزٌ للغفلة وللحركة المعقدة في عالم الظَّهر قبل الخروج إلى عالم الرحم، ولأهل الكهف سورة باسمهم في القرآن الكريم تحكي قصتهم. ووقت الميعاد هو وقت الولادة ثم الانتشار في مملكة الله- صاحب الناموس- يعنى الخروج إلى هذا العالم والعيش فيه وعمارته.

وللكهف أهمية كبيرة في الإسلام، وفى ثقافة الشعوب الأخرى كذلك؛ فهناك سورة الكهف، وهى السورة رقم ١٨ بترتيب المصحف، التي تتحدث آياتها ٩ : ٢٦؛ منها عن قصة أصحاب الكهف، وهم فتية آمنوا بربهم في وسط بيئة كافرة، ومحيط إلحادي عنيد، ففروا إلى ربهم طالبين هدايته ورحمته. استنكر هؤلاء الفتية على مجتمعهم الكفر بالله بلا دليل أو شبهة دليل يُسَوِّغ على أي نحو من الأنحاء كفرهم. دخل هؤلاء الفتية كهفاً، فوق قمة جبل، وناموا فيه ولم يستيقظوا إلا بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ وقد هيّأ الله تعالى لهم أسباب السلامة من هذا النوم الذي كان يشبه الموت فلم يُصب أجسادَهم عطبٌ، ولم يدخل عليهم حيوانٌ مفترس، ولم تتحرك في داخلهم الشهية إلى الطعام أو الشراب، فلم يشعروا بالجوع إلا بعد أن دبت فيهم الحياة وعادوا إلى معهود نشاطهم، وكان الشعور بالجوع هو الذي نبههم لعامل الوقت وللإحساس بفعل الزمن وتأثيره فيهم، وقد خرج أصحاب الكهف بعد أكثر من ثلاثة قرون بصحتهم التي كانوا عليها وعلى الهيئة نفسها التي دخلوا بها الغار، وكأنهم وُلدوا من جديد بأعمارهم وأحجامهم نفسها، أو كأنهم بُعثوا من الموت. ويقال إن أصحاب الكهف كانوا في مدينة أفسس بآسيا الوسطى.

وفي غار حراء، كان النبي ﷺ يتعبد ويعتكف قبل البعثة، ومن هذا الغار خرج النور

---

(١) الرسائل: ٤/ ١٨- ١٩. ننبه هنا أن آية سورة طه: ١٢٠، قد كتبت خطأ في رسائل إخوان الصفا؛ أو أنهم قد ذكروا الآية على سبيل التضمين قاصدين أن الشيطان أغرى آدم وحواء معاً، ولكن مع هذا كان ينبغي عليهم أن يلتزموا بنص الآية التي تذكر أن الشيطان غرر بآدم كما هو واضح من الآية: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

الإلهي وشَعَّ هدى القرآن على العالمين بالرحمة والأمن والأمان؛ وفي غار ثور حفظ الله نور محمد ﷺ وأمسكه عن أعين الكافرين الشريرة، فلم يروا رسول الله ﷺ ولا صاحبه أبا بكر رضي الله عنه، وهما مختبئان فيه حتى انحسر الشر عن رسول الله ﷺ، فخرج من الغار سالمًا يملأ الآفاق نورًا وسرورًا، وحتى تم وعد الله تعالى بالنصر لمحمد ﷺ ووصل ﷺ إلى المدينة المنورة.

وقد كان الزهاد وهداة الشعوب يلجأون إلى الكهوف للرياضة الروحية والتأملات العقلية؛ وللكهف كذلك دورٌ فعَّالٌ في إيواء الإنسان الأول وحمايته من الحيوانات المفترسة، ومن البرد القارس والحر القائظ، وذلك قبل أن يتعلم الإنسان صنعة البناء وفن المعمار. وكم ترك الإنسان من آثار عظيمة وكتابات مهمة سجل فيها حياته وأوجه نشاطه على جدران الكهوف. ومن الكهف تعلم الإنسان كيف يبني وكيف يعمر وكيف يقيم الأسوار والمخابئ. يحتمي فيها من تداعي الحيوانات عليه، ويتقي فيها بأس عوادي الطبيعة.

وقد أضاف إخوان الصفا الكهف إلى آدم لأنه كان أول من سكن الكهف واحتمى فيه من تداعي الحيوانات ووثوبها. "والنوم في الكهف مدة من الزمان، ومعاناة تقلب تصاريف الزمان ونوائب الدهر حتى حلول ميعاد الظهور والانتشار في البلاد والجهات في مملكة الخالق الأعظم".

وفي النوم كذلك رمز إلى الغيبة، سواء غيبة الإمام ثم ظهوره أو ظهور الداعين إلى الله تعالى والقائمين على تبليغ دعوته؛ فإخوان الصفا كانوا يعيشون في كهفٍ كأصحاب الكهف، تحسبهم أيقاظاً وهم رقودٌ، لأنهم يُخفون دعوتهم ويستترون عن الأعين خوفًا من بطش الطغاة أو غلبة الطغام (الجهلة).

وهذه الرموز والإشارات في مجموعها دلالة على تأثير الفرقة الإسماعيلية على فكر إخوان الصفا إن لم يكن إخوان الصفا هم الإسماعيليون أنفسهم.

والجنة المعلقة في الهواء التي كان يسكنها آدم عليه السلام وطرد منها بسبب الخطيئة العارضة هي "عالم الأرواح" الذي تكلم عنه إخوان الصفا في الرسالة الثانية، الرسالة

الخامسة عشر من رسائلهم.[1]

وهم بهذا يلمحون بأن البعث روحاني، وأن الجنة هي عالم للأرواح، مجردة عن الأشباح؛ وسوف نرى أن لهم كلامًا صريحًا في ذلك في موضعه من هذا الكتاب. ومما يرتبط بنظرتهم في طبيعة البعث الروحاني نفيهم للنعيم والعذاب الحسيين في الدار الآخرة؛ فهم يعتقدون "أن النفس بمجردها لا تلحقها الآلام والأمراض والأسقام والجوع والعطش والحر والبرد والهموم والأحزان ونوائب الحدثان، لأن هذه كلها تعرض لها من أجل مقارنتها للجسد، لأن الجسد جسم قابل للآفات والفساد والاستحالة والتغيير؛ فأما النفس فجوهرة روحانية، ليس لها من هذه الآفات شيء".[2]

ويفهم من هذا أن الجسد يفنى بموت صاحبه، وأن الذي يبقى فقط إنما هو الروح أو النفس، وأن النفس لا تجري عليها العوارض، ولا تلم بها الآفات التي تعرض للجسم. وبهذا يتفق إخوان الصفا مع النصارى في قولهم بالبعث الروحاني، وبالنعيم والشقاء الحِسِّيَيْن فحسب كما ذكرنا سابقاً.

وأما زَعْمُ إخوان الصفا بأن الجنة معلقة في الهواء فليس عليه دليل؛ وقد اختلف العلماء في تحديد طبيعة الجنة التي طُرد منها آدم وحواء، وفي تحديد موضوعها؛ هل هي جنة المأوى أم جنة أخرى، هل هي في السماء، أم في الأرض، وهذه النقطة تستحق بعض البسط بدرجة تتناسب مع حجم موضوع هذا الكتاب.

أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أنه خلقَ آدم من تراب، وقد مر هذا التراب بعدة مراحل وأطوار حتى كان منه جسم آدم عليه السلام ثم خلقت حواء من بعض هذا الجسم، ولما تمت صورة آدم على أحسن شكل وأجمل صورة، نفخ الله تعالى فيه من روحه فتحرك ودبت فيه الحياة والقوة، قوة الإدراك والتمييز، وصار بشرًا سويًّا بالأمر الإلهي ﴿كن فيكون﴾، ولم يمر آدم ولا مرت حواء بمرحلة طفولة وشباب، بل شَبَّا قويين فتيين، ولم يطلبا العلم بالعقل أو الدربة والمران؛ بل إنهما عُلِّمَا ذلك من

---

(١) انظر: الرسائل: ٤/١٨؛ ١/٥ وما بعدها وص ٢١.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٢.

الله تعالى تلقينًا ووحيًا، كما ورد في محاضرة للدكتور محمد أبو ليلة بجمعية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ١١: ٢٥].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٢٦: ٣٣].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١].

ولأن الله تعالى قد خلق آدم من طين الأرض، ولم يخلقه من نور كالملائكة. ظن الملائكة أنه سوف يكون مخلوقًا أرضيًّا عاصيًا بحكم الطبيعة والجبلة التي نشأ عليها، ولم يفطنوا لسرٍّ ما أودعه الله تعالى فيه من روحه، إذ أن الله تبارك وتعالى لم يأمر الملائكة أن تسجد للصورة المسواة بيده عز وجل وإنما أمرهم بسجود الإعظام والإقرار لطلاقة القدرة الإلهية عندما سوى الإنسان ونفخ فيه من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩].

وقد كان خلقُ آدم محنةً للملائكة ولإبليس؛ فأما الملائكة فقالوا ترتيبًا على كلام الله تعالى لما قال لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، ويبدو أن سؤالهم كان للاستفسار، وكان تنبؤهم بما سيجري من شر على يد أبناء آدم إما أنه كان باجتهادٍ واستنباطٍ منهم لما عرفوه من طبيعة آدم المخالفة لطبيعتهم، وإما لأن الله تعالى أخبرهم بذلك ولكنه طوى عنا ذكره لحكمةٍ يعلمها، وترك لنا أن نفهمه من فحوى الخطاب ومواقع السؤال والجواب؛ ولذلك لما أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم، إعظامًا لخلق الله تعالى، وإذعانا لأمره عز وجل وعبادة له سجدوا جميعا بلا استثناءٍ ولا طلب تعليل.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣١: ٣٤].

أما إبليس فقد تكبر، وقاس وقارن واغتر، فصار أول من تكبر، وأول من قَاسَ، وأول من اغتر، وأول غرور يُغَرر بغيره، ولم يكن لإبليس مخرج أو عودة من هذه الصفات المرذولة، ومن هذا العناد الطاغي؛ بل صار ملعونًا مطرودًا متوعَّدًا، لا يقلع أبدًا عن عداوته لآدم وحسده له ولبنيه إلى يوم القيامة.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ١١: ٢٥].

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ

ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٣٢: ٤٤].

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء: ٦١: ٦٦]

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٧١: ٨٥].

ونلاحظ من هذه الآيات مجتمعة أن آدم عليه السلام قد كرمه الله تعالى بالخلق، وبالتسوية والنفخ ثم بالخلافة عنه، وبإسجاد الملائكة له، وأكرمه الله تعالى كذلك بإدخاله هو وزوجه الجنة.

وحتى عندما أهبط الله تعالى آدم وحواء من الجنة، أهبطهما بكرامة وبوعد منه بضمان الحياة الكريمة لهما على الأرض، وبالعودة إلى الجنة من خلال العمل الصالح وطاعة الله تعالى؛ كما عرفهما بعداوة إبليس لهما ولذريتهما وحسده إياهم؛ كما جاء في محاضرة الدكتور أبو ليلة المشار إليها سلفاً.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٥: ٣٧].

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢- ٢٣].

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٤].

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢١: ١٢٣].

وبرَّأ الله تعالى آدم من قصد الذنب، ومن النية فيه يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أمَّا خطاب الله تعالى لإبليس فقد جاء بالغضب واللعن والطرد له: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨]، ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

[الأعراف: ١٣]، ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الحجر: ٣٤- ٣٥]؛ وقد وصف اللهُ تعالى إبليسَ بالكذب وبالغرور والتغرير ووصفه كذلك بالكبر، يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ۝ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝﴾ [طه: ١١٦: ١٢٠].

فإبليس كاذبٌ مدَّعٍ، وهكذا كل من اتَّبعه وعَمِل بما يُرضيه فكاذب مدَّعٍ ومغرور: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝﴾ [الأعراف: ٢٠: ٢٤].

ونأتي إلى الجنة التي كان فيها آدم، والمشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]؛ فإن معنى لفظة "اسكن" أن آدم وقت الخطاب لم يكن في الجنة، ومعناها أيضًا أن الجنة كانت مُعَدَّة بالفعل؛ ويُفهم من كلمة "اسكن" الإقامة المؤقتة التي تنتهي بالخروج منها والتحول عنها بحسب إرادة المالك، وهو الله تعالى وربما انتهز إبليس هذه الكلمة ففهم منها أن آدم عليه السلام سيخرج من الجنة المشار إليها فقال له: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾ [الأعراف:

٢٠: ٢٢]، ففتح إبليس بذلك على آدم وحواء باب الخوف من الموت والفقر.

ولفظة "الجنة" في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ مُعَرَّفة بالألف واللام، لا تفيد العموم، ولا المعهود اللفظي، وإنما تعود على معهود ذهني ابتدأ الله تعالى بتعريفه لآدم، وهذا المعنى هو المستقر في الأذهان شرعًا من جنة المأوى أو جنة الخلد؛ كما يستفاد من حديث الشفاعة، وأحاديث أخرى أن هذه الجنة هي جنة المأوى التي وُعِد بها المتقون، والتي وردت أوصافها في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية الشريفة.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"ثم قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]"**.

عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"ثم إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء"**.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"ثم إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم"**. قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: **"بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين"**.

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"ثم إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا"**.[2]

وسُمِّيت الْجنة كذلك إما لأنها تُشبه جنة الأرض تقريبًا لها إلى أذهاننا، وإما لأنّها مُجْتَنَّة أو مَخفية عنا بعينها، معروفةٌ لنا بأوصافها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ

(١) السجدة: ١٧

(٢) انظر: صحيح مسلم. بيروت. ت: محمد فؤاد عبد الباقي "كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها" ٤/ ٢١٧٤ وما بعدها، وانظر: صحيح البخاري- بيروت- دار ابن كثير اليمامة ١٤٠٧/ ١٩٨٧ ت. د مصطفى البغا ٣/ ١١٨٣ وما بعدها .

لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].[1]

وقال جمهور كبير من العلماء إن جنة آدم كانت مخلوقة له، وليست هي جنة المأوى؛ وذلك لأن الله نهى آدم أن يأكل من تلك الشجرة، ولأن آدم نام فيها، وأُخرج منها، ودخل عليه الشيطان فيها، وفيها عصى الشيطان ربه وأبى وتكبر، وكذب وغرّر بآدم، وفيها عصى آدم ربه فغوى؛ وهذه الصفات والأفعال لا تتفق مع طبيعة جنة المأوى. وهذا القول محكي عن أبي بن كعب، وابن عباس، ووهب بن منبه، وسفيان بن عيينة، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضى قرطبة، وغيرهم على ما نقله المفسرون، وابن كثير، والقرطبي وابن عطية والرازي، وابن حزم، وابن قتيبة.

وحكى عن هذا الفريق من العلماء، وعن أبى القاسم الراغب والماوردى في تفسيره فقال: "واختلف في الجنة التي أُسْكِناها، يعنى آدم وحواء، على قولين: أحدهما: أنها جنة الخلد، والثاني: أنها جنةٌ أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التي جعلها (الله) دار جزاء؛ ومن قال بهذا (الرأي) اختلفوا على قولين: أحدهما: أنها في السماء، لأنه أهبطهما منها، وهذا قول الحسن، ويعزى مثله إلى أبي على الجبائى المعتزلى؛ والثاني: أنها في الأرض، لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن القرب من الشجرة التي نُهيا عنها دون غيرها من الثمار؛ وكان ذلك بعد أمر إبليس بالسجود لأدم."[2]

وقد حكى الرازى قولاً رابعًا في ذلك، وهو التوقف عن القطع بمكان الجنة، والذين قالوا إن مكان الجنة في السماء استدلوا على رأيهم بأن كلمة "اهبطوا" تدل لغويًا على النُزول من عَل، يعنى من السماء إلى الأرض. لكن بعض العلماء ضعَّفوا هذا الرأي باللجوء إلى اللغة، وإلى لغة القرآن بوجهٍ خاص، فقالوا إن الهبوط لا يستدعى النزول من مكان عالٍ إلى مكانٍ منخفض، وإنما قد يعنى الهبوط من منزلةٍ أو من مكانٍ إلى مكان أفضلَ منه، واستَشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾[هود: ٤٨]، وإنما كان نوح في

---

(١) انظر الراغب الأصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٠٤.

(٢) ابن كثير. قصص الأنبياء ص ١٩.

السفينة حين استقر على الجودي، وانحسر الماء على وجه الأرض، وظهرت له معالمها، فأمر أن يهبط إليها ومن معه، حيث البركة ستعمُّه، والأمن سيشمله هو ومن معه في الأرض كما شمله كل ذلك في السفينة؛ والطوفان يغمر الأرض، ومن هذا قول الله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، بل قال الله تعالى في شأن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، فإن كلمة "اهبط" أو "اهبطوا" أو "يهبط" لا تدل على النزول من مكان، وإنما تحول من مكان لمكان، أو أن ذلك كان هبوطاً معنوياً بمعنى الخشوع.

يتصل بهذا ويؤكد وجهة النظر هذه قول البعض إن لفظة الجنة استعملت في القرآن في غير معنى "جنة الخلد" كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٣٩-٤٠]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ١٧: ٣٢]، فالجنة المقصودة هنا، كما يُفهم من السياق، هي البستان أو الحديقة.

بعد أن سُقنا هذه الآراء الاجتهادية نقول إن الجنة التي كان فيها آدم هي الجنة الموصوفة في القرآن بقوله عزوجل: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وأن آدم سكن هذه الجنة حقيقةً، وأكل من ثمارها، وشاهد جمالها السرمدي الخالد عياناً، وهي هي تلك الجنة التي رآها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، التي يقول الله فيها: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٤- ١٥]، فإذا كان رسول الله ﷺ رأى الجنة بقدرة الله تعالى وهو على حاله من البشرية، فلماذا نستبعد على آدم وحواء أن يكونا سكناها بأمر الله تعالى، وهما على حالهما من البشرية، ولا مانع من أن يدخل الشيطان هذه الجنة على أي نحو يعلمه الله، لإجراء القدر؛ ولكي يتم ابتلاء آدم، ثم إخراجه منها إلى الأرض التي منها خلق، وإليها عاد، وفيها مات وقبر، ومنها يبعث ويعود إلى الجنة التي ظل يتحسر على الخروج منها، وقد رضيَ آدمُ بقضاء الله تعالى، وظل يعمل للعود إلى الجنة حتى لقي الله. ثم إن القرائن اللغوية وسياقات الآيات لا تمنع من تصور هبوط آدم من السماء إلى الأرض.

وهنا لا بد من مراعاة أن الله تعالى جعل الْجنة مقابلةً للعالَم الأرضي: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]، يضاف إلى ذلك ما ورد في الآية على لسان إبليس: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠: ٢٢]، والأوصاف المذكورة في هاتين الآيتين من الخلد والملائكية لا تنطبق إلا على جنة الخلد. ولا بد من مراعاة نقطة مهمة أيضاً في هذه القرينة، وهي تتمثل في هذا السؤال: أين كان الملائكة الذين أُمروا بالسجود لآدم! الأقرب أنهم كانوا في السماء، يعني خارج حدود هذا

العالم المشهود.

ومن الصعب تصور أن تكون في العالم جنةٌ أرضية يُطرد منها آدم وحواء وإبليس، وأن يقول الله تعالى:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝﴾ [طه: ١١٧: ١١٩]، ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٣].

وما كان إبليس ليُطرد من بستان على الأرض كان أمامه أن يعود إليه، أو يقال له: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، والمعروف أن إبليس لم يمنع من دخول أي مكان في الأرض، حتى المساجد ودور العبادة، أو شهود مواسم الطاعات كالحج، وغيره؛ فإنه يوسوس فيها ويحاول إضلال الناس.

يضاف إلى ذلك كله امتناع وجود جنة على الأرض بهذه الأوصاف الواردة في سياق الآيات الخاصة بخلق آدم وحواء، وما جرى لهما من ابتلاءٍ بسبب إبليس اللعين.

وفي هذه القرينة نشير إلى أقوال كتب اليهود والنصارى عن الجنة، فقد وردت كلمة "بَرَادايس" Paradise، في كتب العهد القديم والجديد بهذه الألفاظ Park, Preserve, Garden. وفى العهد القديم تظهر الكلمة ثلاث مرات (في النص العبري)، وتدل على:

١- غابة (Forest) (نحميا - ٢: ٥)،

٢- حديقة أو بستان يحتوى على أشجار كثيرة (ECCL 2: 5)،

"عملت لنفسي جنات وفراديس وغرست فيها أشجارًا من كل نوع ثمر" فالجنة أو الفردوس هنا جنة أرضية من عمل الإنسان.

وفى "أبوكريفا" Apocrypha، وفى التراث اليهودي اللاحق تحددت الجنة على أنها "مسكن الموتى الصالحين" (An abode of the righteous dead in Hades). وتربط هذه الكتب بين الجنة على هذا النحو وجهنم Gehenna، وتجعل المسافة

بينهما قريبة (2 Esdras 7: 36).

وتتعدد تحديدات أحبار اليهود وأساطيرهم للجنة، فهي عندهم تارة دار السعداء، وتارةً أخرى هي مقر الذين لم يذوقوا طعم الموت أبداً، وأخرى هي المكان الذي يقيم فيه المسيح انتظارًا ليوم ظهوره. وقد حدد بعضهم موقعها بالجانب الشرقي من العالم، وادعى آخرون أنها في السماء الثالثة. ويتوسط بعضهم فيجعل مكانها بين الأرض والسماء، الجهة السماوية منها للكاملين، وأما الجهة الأخرى فلغير الكاملين. وفي أساطيرهم أيضًا أن الجنة تقع على يمين الرب، وتقع جهنم على شماله.(١)

وقد تكلم الأحبار في مرحلة لاحقة عن أوصاف الجنة بتفصيل وصل إلى حد وصف الألوان والروائح والمادة التي صنعت منها أبواب الجنة؛ وقد ذكر بعضهم أن في الجنة مجموعات ضخمة من الأشجار، أوصلها إلى ثمانية.(٢) وعدَّ بعضهم شجر الجنة بثمانين ألف نوع من الأشجار تغطي كلَّ ركن من أركان الجنة، ووأن الجنة ستين جماعة، أو تجمعا من الملائكة يغنون بصوت جميل وعذب، وأن شجرة الحياة قائمة في وسط الجنة تنشر ظلها على جميع أرجائها. وللأشياء التي في الجنة خمس عشرة ألف طعم، كل طعم منها يختلف عن الآخر، وعلى هذا النحو تتنوع أصناف روائح الجنة.(٣) ويزعم بعضهم كذلك أن الله لما خلق آدم أسكنه الجنة التي في السماء الثالثة، وأن ميكائيل كبير الملائكة عندهم، هو الذي رفع آدم بيده إلى مكانه من السماء بأمر الله تعالى، وذلك بعد أن طهره الله وأعده للسكنى هناك.(٤)

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكتب القانونية لليهود والنصارى لم تتكلم عن السماوات السبع التي ذكرها القرآن [المؤمنون: ١٧]؛ [الطلاق: ١٢]؛ [الملك: ٣]؛ [نوح: ١٥- ١٦]، غير أنه قد وردت إشارة في كتب "أخنوخ" - وهي من الكتب غير القانونية- إلى هذه السماوات السبع.(٥)

---

(1) Ginzberg, The Legends of the Jews. Vol.1, p.3.

(2) Ibid, p20

(3) Ibid, 21

(4) Ibid, p100; See also The Zondervan Pictorial Ency. Of the Bible, Vol., 4, p598.

(5) Ibid, p. 599.

ويُفهم من كلام بولس في رسالته الثانية إلى أهل كُورِنثِيوس أن الجنة أو الفردوس في السماء الثالثة، وأن الله نفسه يوجد في هذه السماء؛ وهذا دليلٌ على تأثر بولس بأقوال أحبار اليهود، يقول: "أعرف إنساناً في المسيح قبل أربع عشرة سنة، أفي الجسد لست أعلم أو خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم. اختطف هذا إلى السماء الثالثة. وأعرف هذا الإنسان أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم. أنه اختطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا يُنطقُ بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها ..." (١٢- ٣: ٥) فالسماء الثالثة توازي الجنة في كلام بولس.

وفي هذه القرينة أيضاً نلاحظ أن يوحنّا الذي ينسب إليه الإنجيل الرابع يتبنى الأفكار اليهودية الخاصة بشجرة الحياة التي نقلنا عنهم أنها في وسط الجنة. وهذه عبارات يوحنا: "... من يَغلبُ فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢- ٧).

وسيراً على نهج أحبار اليهود في تصور الجنة يقول يوحنا أيضاً: "وأراني صافياً من حيوة لامعاً كبِلُّور خارجاً من عرش الله والخروف (يعني المسيح) في وسط سوقها وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع اثنتي عشرة ثمرة وتعطي كل شهر ثمرها..." (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٢- ١- ٢).

والذي يَقرأ الإشاراتِ المقتضبةَ الخاصةَ بالجنة في كتب العهد الجديد يلاحظ بالإضافة إلى غموضها أنها لا يمكن أن تقدم الصورة الحقيقية التي قدمها القرآن لها، بل إنه يخرج بانطباعٍ مؤداه أن الجنة لا تعدو عندهم أن تكون مرادفةً للسماء، أو أنها بالأجدر الاتحاد بالمسيح أو الدخول في مَعِيَّتِه بعد الموت مباشرةً. على أن حِجْر إبراهيم يمثل قمة نعيم الجنة في أحد معطيات التخيل اليهودي للجنة، وقد ظهر هذا المعنى في كلام السيد المسيح عليه السلام إذ جاء في الإصحاح السادس عشر من إنجيل لوقا ما يلي: [كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبر وهو يتنعم كل يوم مترفهاً. وكان مسكينٌ اسمه لعازر الذي طُرح عند بابه مضروباً بالقروح. ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنيّ. بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ومات الغني أيضاً ودين. فرفع عينيه في

الهاوية وهو في العذاب ورأى إبراهيمَ من بعيدٍ ولعازر في حضنه. فنادى وقال: يا إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر لِيبُلّ طرف أصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب. فقال إبراهيم: يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمةٌ قد أُثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا. فقد أسألك إذاً يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي. لأن لي خمسة إخوة. حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضا إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم: عندهم موسى والأنبياء. ليسمعوا منهم. فقال لا يا أبي إبراهيم. بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون. فقال له: إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون][1]

ونشير هنا إلى المحاورة التي وقعت بين ابن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ) وبين قاضي نصارى قرطبة على عصره في إثبات النعيم الحسي في الجنة والعذاب الحسي في جهنم، واستشهد بهذا النص الذي أثبتناه، وفيه أن في الجنة أكلاً وشرباً ومتعاً. وأضاف ابن حزم إلى هذا النص نصين آخرين: "وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي" (متّى ٢٦-٦: ٣٠) [2] فهذا نص على أن في العالم الآخر أكلاً وشرباً.

وقد أصاب صاحب كتاب الفِصَل في قوله لمحاوره النصراني: "أما التوراة التي بأيدي اليهود فليس فيها ذكر لنعيم الآخرة أصلاً ولا لجزاء بعد الموت ألبتة"[3]

ولهذا السبب نجد أن الكلام عن الحياة الآخرة وما يتبعها من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار تشتمل عليه أكثر آيات القرآن الكريم؛ كما نلاحظ أن الحديث القرآني عن الآخرة يأتي متلازماً مع التعاليم القرآنية أو سواءً كانت في العقائد أو في المعاملات والأخلاق أو القصص والأمثال.

---

(١) إنجيل لوقا . الإصحاح السادس عشر.

(٢) وانظر أيضاً مرقس ١٤: ٢٥.

(٣) الفِصَل ٢/١٠٣، ١٠٤.

نوح والمسيح عليهما السلام

بعد أن استوفينا الكلام عن آدم والملائكة والشيطان والجنة، التي يؤمن بها إخوان الصفا ويتخذون منها رمزاً أو رموزاً يتوارون خلفها، يستدرجون الناس من خلالها للدخول في دعوتهم، ننتقل إلى الحديث عن نوح عليه السلام وعن السفينة والطوفان، فإنهم يدعون المستهدفين بدعوتهم إلى الانضمام إلى جماعتهم والركوب في السفينة معهم، ونوح هو رمز الداعي في كلام إخوان الصفا والسفينة رمز على المكان الذي يتجمع فيه الأتباع، والطوفان هو الشهوات والغرائز التي تندفع من الطبيعة البشرية، ومن النفس الأمارة بالسوء، وإتيان السماء بدخانٍ مبين تضمين لقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [الدخان: ١٠]، ويعنون به مقدمات قيام الساعة، والساعة عندهم هي وقت قيام القائم أو الداعي الحجة.

وبحر الهيولي Hyle هي عالم المادة الأولى للخلق قبل التصوير، ويقابله الصورة، وهي قوة محضة ولا تنتقل إلى الفعل إلا بقيام الصورة بها؛ وترجع هذه التسمية إلى أرسطو، ثم انتقلت إلى الْمَدْرَسِيِّين من بعده.[1]

وهم يقولون: "إن الأمور الإلهية هي الصور المجردة من الهيولي، وهي جواهر باقية خالدة لا يعرض لها الفساد والآفات كما يعرض للأمور الجسمانية. واعلم أن نفسك هي إحدى تلك الصور، فاجتهد في معرفتها لعلك تُخلصها من بحر الهيولي وهاوية الأجسام وأسر الطبيعة التي وقعنا فيها بجنايةٍ كانت من أبينا آدم، عليه السلام، حين عصى ربه فأخرج هو وذريته من الجنة التي هي عالم الأرواح، وقيل لهم: "اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فيها تموتون ومنها تخرجون". فقد قيل في المثل إن أول أناس، إذا نفخ في الصور وشق عليهم القبور يوم البعث والنشور، وقيل: ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ[2] هو عالم الأجسام ذو الطول والعرض والعمق. فاجتهد يا أخي في معرفة هذه المرامي والرموز التي ظهرت في كتب

---

(١) المعجم الفلسفي ١٦٣، ٢٠٨. والمدرسيون هم الذين يأخذون بمنهج القرون الوسطى وآرائها (المصدر نفسه ١٧٣)

(٢) تضمين في كلامهم الآية رقم ٣ من سورة النازعات ، وهو من أوصاف جهنم.

الأنبياء، عليهم السلام، لعل نفسك تتنبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتحيا بروح المعارف الربانية، وتعيش بحياة العلوم الإلهية، وتسلم من الآفات الطبيعية"[1].

ويلمح إخوان الصفا بهذا إلى أنه لا توجد وسيلة أخرى للنجاة خارج جماعتهم، فهم وحدهم الناجون.

إنهم يصورون أنفسهم وكأنهم وحدهم الحريصون على السير على نهج الرسل، وأنهم وحدهم المستأثرون بعلم الأنبياء. فهم يدعون إلى النظر في ملكوت السماوات اقتداءً بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي توصل بالنظر إلى اليقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥].

ويوظف إخوان الصفا ما جرى لموسى عليه السلام عند الشجرة للدعوة إلى عقيدتهم بشكل عام، وربما لجلب أتباع من اليهود إلى جماعتهم بشكل خاص، وقد ضَمَّنوا كلامهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: ٢٩- ٣٠]

ينتقل إخوان الصفا بعد ذلك إلى الحديث عن المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام "Jesus son of Mary" والذي يسمونه "الأيسوع"، ويقولون فيه كما يقول النصارى بأنه جالس عن ميمنة الرب وعلى مقربة منه، كما يجلس الابن قريباً من أبيه؛ وهذا إقرارٌ منهم للعقيدة النصرانية في بنوة المسيح لله، والمرفوضة تماماً من الإسلام.

بعد أن تكلم إخوان الصفا عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام أشاروا إلى المجوسية والكيومرثية منها على وجه الخصوص. والمجوسية Zoraoastarianism يقال لها الدين الأكبر والملة العظمى وهم طوائف[2]. وقد أثبت

---

(١) الرسائل: ٢/٢١

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ٣/٥٠

المجوس أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان فيما بينهما الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد؛ يسمون أحدهما النور، والثاني الظلمة؛ وهما بالفارسية يزدان Ormazd وأهرمن Ahriman.

يقول الشهرستاني: إن عقائد المجوس كلها تدور على قاعدتين، إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، أما الثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأً والخلاص معاداً. ويعتقد الزرادشتيون أن يزدان هو صاحب السلطة والسلطان والقانون الذي يجب أن يطاع.[1] إلا أنه مما ينبغي ملاحظته أن المجوس الأصليين قد زعموا أن الأصلين (النور والظلام) لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين؛ بل النور أزلي والظلمة محدثة[2].

وللمجوس كلام في كيفية ظهور الشر في العالم وسببه، هل هو من النور! وكيف يحدث الشر أمن النور، وهو خير محض! أم هو من الظلمة، أم من شيءٍ آخر؟ ولا شيء يشارك النور في الإحداث والقدم، وهم في هذا الأمر متخبطون، كما يقول الإمام الشهرستاني. ويذهب الثنوية والمجوس عل أن الآلام كلها قبيحة لا يجوز على الباري فعلها؛ وقد خطَّأهم في هذا الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ). ومجمل رد الطوسى أن القديم تعالى لا يفعل ألماً لا في المكلفين ولا في غيرهم في دار التكليف، إلا إذا كان فيه غرض يخرج عن كونه ظلماً أو عوضٌ يخرج عن كونه عبثاً".[3]

ويقول الشيخ أيضاً في الرد على الثنوية والمجوس: "والصحيح أن في الآلام ما هو حسن ، وفيها ما هو قبيح؛ فما يقبح منها لوجوه ثلاثة: أحدها : لكونه ظلماً، وثانيها: لكونه مفسدةً، وثالثها: لكونه عبثاً".[4] وليس شيء من ذلك من فعل الله.

أثبت الكيومرثيون- أصحاب كيومرث- أصلين هما يزدان وأهرمن؛ وقالوا بقدم

---

(١) الدين والأخلاق ٩/ ٥٦٦ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: ٥١

(٣) انظر ردّه عليهم وعلى الكرامية والتناسخية في كتابة الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد. بيروت. دار الأضواء ط٢ ١٤٠٦ هـ ١٤٨٦م ، ص ١٤١ - ١٤٩

(٤) المصدر نفسه: ١٤٢

الأول، وحدوث الثاني وعللوا لظهور الشر في العالم على هذا النحو. قالوا إن يزدان القديم الأزلي فكر في نفسه، وقد كان وحده لا شريك له، قائلاً كيف يكون الحال إذا كان لي في الوجود والخلق شريك، وقد كانت هذه فكرة رديئة في الأساس، غير مناسبة لطبيعة النور، الذي هو خير محض، فَحَدَثَ الظلامُ من هذه الفكرة وسُمِّي أهرمن. وكان أهرمن مخلوقاً مطبوعاً على الشر، والفتنة والفساد وجميع أنواع الرذائل؛ فخرج على النور وخالفه طبيعةً وقولاً، وجرت من ثم المعارك والفتن بين جند النور وقوى الظلام، إلى أن تدخلت الملائكة وصالحوا بينهم على أن يكون العالم السفلي خالصاً لأهرمن وهو الشيطان، ويقولون إن يزدان خيَّر الأرواح قبل خلقها في أن تظل هكذا أو يخلق لها أجساداً وتخرج إلى الدنيا وتحارب اهرمن وجنوده، على أن يكون لهم النصر في النهاية؛ فاختاروا التلبس بالأجساد والخروج إلى العالم ومحاربة أهرمن، وبعد الانتصار الأخير على أهرمن تقوم القيامة، وبهذا فسر المجوس ظهور الخير والشر وظهور الشيطان في العالم، وهذا تفسير خاطئ بالطبع؛ فالله واحدٌ لا شريك له، ولا يغلب في أمره ولا يقهر، والخير والشر إنما هما بجعل الله لهما، وبحسب أمره ونهيه، كما يقول ابن حزم في الفِصَل.[٢]

بعد هذا التوضيح المختصر للكلام المقتضب الذي أشار به إخوان الصفا إلى المجوسية على طريقتهم نقول إنهم بهذا الكلام قد أرادوا دعوة المجوس للدخول في جماعتهم وهم يقولون مخاطبين لهم بصراحة: "هل لك أن تخرج من ظلمة أهرمن (إله الشر) حتى ترى اليزدان (إله الخير القديم الأزلي) قد أشرق منه النور في فسحة أفريحون".[١]

---

(٢) الرسائل: ١٥/٤.

الأفلاك وعملها في الكون وعقيدة الصابئة

ينتقل إخوان الصفا بعد ذلك إلى الكلام عن تأثير الأفلاك، قائلين إن الطبيعة تتحرك أصلاً بفعل آلةٍ فلكيةٍ[1] ويزعمون أن هذه الأفلاك هي التي تحرك العالم، وتؤثر في كل شيء فيه، وهي الأفلاك أو النجوم الروحانية التي حاكها أفلاطون وهى غير أفلاك المنجمين، والتي ذكروها في نسق واحد مع الجنان (جمع جنة) والفردوس عالم الأفلاك والسبع سماوات).[2]

ويعنى إخوان الصفا بهذا العقول العشرة: وأولها المحرك الذي لا يتحرك، وتحريكه لكرة الجرم الأقصى. ثم الذي هو مثله لكرة زحل .... وهكذا، حتى ينتهي إلى العقل الفائض أو الفياض على أنفسنا، وهو عقل العالم الأرضي، ونسميه نحن العقل الفعال هذا بالإضافة إلى العقل الأول.

ويذهب أفلاطون إلى أن نفس العالم هي أول ما خلق الصانع، وهى مبدأ حركة العالم المنظمة، وهى علة الحياة بوجه عام، لأن الحياة تظهر دائماً في هيئة حركات منتظمة تهدف إلى تحقيق غايةٍ، ونفس العالم تمتزج بالسماء أول المرئيات وأكبرها، وعنده أن العالم المحسوس واحدٌ؛ لأنه شبيه بمثاله الواحد. والله خيرٌ محض، فنشأ العالم على مثالة، ثم بث فيه النظام وجعله مرئياً، لأن النظام أفضل من الفوضى. ثم بث فيه العقل، وأودع العقل في نفس. وبذلك أصبح العالم حيواناً له نفس وعقل.[3]

وهذا الكلام نجده عند إخوان الصفا بالنص تقريباً، غير أنهم يضيفون أن الذي يحرك الأفلاك ويُسَيِّر الكواكب هو الروح القدس، والنفس الكلية الفلكية الموكلة بها بإذن ربها.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أفلاطون يميز بين ثلاثة أنواع من علم الفلك، الفلك الحسي: وهو الذي يدرك بالعين في حركة الكوكب وانتقال الشمس وأوجه القمر؛ والفلك الرياضي: الذي يقوم على النسب الرياضية في حركة الكواكب؛ والفلك

---

(١) الرسائل: ١/٣٠٧

(٢) المصدر نفسه: ١/٣٨، ٣/ ٥٣٣ .

(٣) تيلور ص ٤٤١ والنقل عن احمد فؤاد الأهواني أفلاطون دار المعارف ط ٤ ص ١٠٤.

الإلهي: وهى السماء المعقولة التي تقوم عليها الحركات الرياضية للكواكب الأعداد الصحيحة.[1]

ولعل إخوان الصفا أشاروا إلى أفلاطون هنا تحديداً؛ لأنه كانت لديه نزعةٌ صوفيةٌ يسعى من خلالها إلى حالة تنكشف له الحقائق فيها، وأن يتصل بها اتصالاً مباشراً، كما يراها في داخل النفس ويشعر بها بغير توسط آلة الحس، كما لاحظ الفيلسوف الإنجليزي برترند راسل.[2]

وأفلاطون الإلهي كما يسميه الشهرستاني هو آخر الفلاسفة المتقدمين الأوائل الأساطين، معروف بالتوحيد والحكمة، كان يقول إن للعالم محدثاً مبدعاً أزلياً، واجباً بذاته، عالماً بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية، كان في الأول ولم يكن معه شيء وجوداً بل علماً. وتقوم فلسفته الميتافيزيقية على فكرة المثل التي عرف بها "المثل الأفلاطونية"؛ فالمبادئ الأول بسائط، والمُثل مبسوطات، والأشخاص مركبات، والإنسان المركب، أي من عناصر محسَّة، هو جزء ذلك الإنسان المبسوط المعقول، وكذلك القول في سائر أنواع الحيوان والنبات والجماد، ولكل طائف في هذا العالم مثال على هيئته من عالم المثل؛ وبما أن العقل الإنساني من ذلك العالم فإنه يدرك من المحسوس مثالاً منتزعاً من بيئته المادية، معقولاً مطابقاً لما في عالم المثال. والصور أو المثل لا نهاية لها عند أفلاطون، وذلك لأنها كانت في علم الله الكلى الدائم ولولا هذا لما دامت الصور ولا ثبتت.[3] ومما تجدر الإشارة إليه أننا نلاحظ شبهاً وتقارباً بين مُثل أفلاطون وروحانيات الصابئة والروحانيين.

وردت الإشارة إلى الصابئة في كلام إخوان الصفا على طريقتهم في الرمز والإلغاز، وإذا كنا قد عرضنا لكلامهم في الأفلاك وتأثيرها الروحاني في الكون وفى الإنسان، فإننا نعرض هنا لكلامهم عن هيكل عاذيمون الذي هي من مشتملات النص الذي نقلناه عنهم، حيث جاء فيه: "أو هل لك أن تدخل إلى هيكل عاذيمون حتى ترى

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٣، والرسائل ١/ ٢٧٧

(٢) المصدر نفسه ص ٧٥، وانظر أيضا تاريخ الفلسفة الغربية ترجمة زكى نجيب محمود ص ١٧٧ والنقل عن المصدر نفسه.

(٣) الملل والنحل ٨٣/٤ : ٨٤.

الأفلاك التي يحكيها أفلاطون".

وقد رد علماء المسلمين على قول إخوان الصفا ومن نَحا نحوهم في القول بتأثير النجوم والفلك ونأخذ مثلاً هنا ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) في الرد عليهم.

فقد تتبع ابن قيم مزاعم المنجمين والدهرية في تأثير الكواكب أو النجوم وأبطلها، كما بين ضلالتهم في الاستشهاد ببعض آيات القرآن الكريم على صحة مذهبهم في فعل الفلك وتأثيره في النفوس وفى الكائنات بشكل عام، وكذلك إسنادهم ما يجرى من خير ومن شر في الكون إلى فعل النجوم وحركاتها واتصالاتها. وزعمهم بأن ما تأتى به النجوم من الخير والشر، فعن تعريف الرسل والأنبياء، وكذلك ما تعطيه من السعود والنحس، يضاف إلى ذلك زعمهم إبطال النبوة بحجة أن العقول الإنسانية متساوية في النوع فوجب بالتالي أن تدرك العقول أن تأثير الكواكب والروحانيات التي هي مدبرات من حسن وقبح في الخلق والأخلاق، ولا يتوقف إدراك ذلك على النبي، أيّ نَبيٍّ، أو مَنْ هو في رتبته من حيث العقل. وهذا هو قول الدهرية والكافرين الذين سجل القرآن كلامهم في قول الله تعالى: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[المؤمنون: ٢٤] إلى آخر كلامهم المتضمن خلق السماوات بغير أمر ولا ثواب ولا عقاب حيث قد ترك الله تعالى ذلك لفعل النجوم واتصالاتها؛ وهذا هو الباطل الذي نفاه الله تعالى عن نفسه وأخبر أنه ظن أعدائه الكافرين.

ومن استدلالاتهم التي فندها ابن قيم الجوزية قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا﴾[ص: ٢٧][(١)].

يقول ابن قيم: "إن هذا من أعجب العجب في الاستدلال فإن هذا من أقوى الأدلة وأبينها على بطلان قول المنجمين والدهرية فالله سبحانه وتعالى قد رد على الكافرين مزاعمهم في مسألة الخلق وأثبت أنه هو الخالق وأنه الآمر الناهي والمدبّر الحكيم. وقد اتفق المفسرون على أنه الحق الذي خلقت به السماوات والأرض وهو الأمر والنهى وما يترتب عليهما من الثواب والعقاب، فمن جحد ذلك وجحد رسالة

---

(١) المصدر نفسه ص: ٢٧

الرسل وكفر بالمعاد وأحال حوادث العالم على حركات الكواكب فقد زعم أن خلق السماوات والأرض من فعلها أبطل الباطل وأن العالم خلق عبثاً وتُرك سُدًى وخلّي؛ وغاية ما خُلق له "الإنسان" أن يكون متمتعاً باللذات الحسية كالبهائم في هذه المدة القصيرة جداً ثم يفارق الوجود وتحدث حركات الكواكب أشخاصاً مثله هكذا أبداً! فأي باطل أبطل من هذا وأي عبث فوق هذا! ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥]، والحق الذي خُلقت به السماوات والأرض وما بينهما هو إلهية الرب المتضمنة لكمال حكمته وملكه وأمره ونهيه، المتضمن لشرعه وثوابه وعقابه، المتضمن لعدله وفضله ولقائه؛ فالحق الذي وجد به العالم كون الله سبحانه وتعالى هو الإله الحق المعبود والآمر الناهي المتصرف في المماليك بالأمر والنهي، وذلك يستلزم إرسال الرسل وإكرام من استجاب لهم وتمام الإنعام عليهم وإهانة من كفر بهم وكذبهم، واختصاصه بالشقاء والهلاك وذلك معقود بكمال حكمة الرب تعالى وقدرته وعلمه وعدله وتمام ربوبيته وانفراده بالإلهية وجريان المخلوقات على موجب حكمته وإلهيته وملكه التام، وأنه أهل أن يعبد ويطاع، وأنه أول من أكرم أحبابه وأولياءه بالإكرام الذي يليق بعظمته وغناه ووجوده وأهان أعداءه المعرضين عنه، الجاحدين له، المشركين به، المُسَوِّين بينه وبين الكواكب والأوثان والأصنام في العبادة بالإهانة التي تليق بعظمته وجلاله وشدة بأسه...."[1]

وفى الاستدلال على أن الله تعالى وَضعَ حركاتِ الأجرام على وجهٍ يُنْتفَع به في مصالح هذا العالم، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ﴾[يونس: ٥]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

يعلق ابن قيم الجوزية على هاتين الآيتين بقوله: "فمن أطراف الاستدلال ، فأين

---

(١) مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة. تحقيق سيد إبراهيم وعلى حسن. القاهرة. دار التراث. ١٤١٨هـ، ١٩٩٧، ٢/ ٥٥٣- ٥٥٤

في هذه الآيات ما يدل على ما يدعيه المنجمون من كذبهم، وبهتانهم، وافترائهم، ولو كان الأمر كما يدعيه هؤلاء الكذابون لكانت الدلالة والعبرة، فيه (أي في الفلك) أعظم من مجرد النور والحساب، ولكان الأليق ذكر ما تقتضيه من السعد والنحس،وتعطيه من السعد والشقاوة، وتهبه من الأعمار والأرزاق والآجال والصنائع، والعلوم والمعارف والصور الحيوانية والنباتية والمعدنية وسائر ما في العالم من الخير والشر".[١]

وقد ردَّ الباقلاني على المنجمين الذين زعموا أن الأفلاك السبعة، وهي الطوالع (الشمس، والقمر، وزحل، والمريخ، والمشترى، والزهرة، وعطارد) قائلاً إن هذه الأجسام حادثة وأنها جارية مجرى أجسام العالم خاضعة للحد والنهاية والتأليف والحركة والسكون والانتقال من حال إلى حال، وما دامت هذه الأجسام حادثة فإنها خاضعة بلا شك لمن أحدثها ودبرها وأنه ليس لها على نفسها سيطرة أو تأثير أو على غيرها.[٢]

فالله تعالى خلق الكواكب والأفلاك وكل ما في الكون بقوانين وقواعد تضبط حركته، وتنظم سيره وعلاقته بما في الكون من خلق الله تعالى؛ وكل شيء هو فعل الله عز وجل وليس لشيء فعل بذاته مستقل عن فعل الله تعالى أو بمعزل عن تدبيره وقيوميته عز وجل.

---

(١) المصدر نفسه ٥٤٧– ٥٤٨.

(٢) انظر كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للقاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ت: الشيخ عماد الدين أحمد حيدر. بيروت. مؤسسة الكتب الثقافية ط٣– ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ص ٦٦– ٧٧

تحقيق كلام إخوان الصفا في الصابئـة

الصابئة مأخوذة في اللغة من "صبأ الرجل" إذا مال وحاد عن الحق، وقد سُمي أهل هذه النحلة بالصابئة لبعدهم عن نهج الأنبياء، ويدور مذهبهم على التعصب للروحانيين؛ كما أن مذهب الحنفاء يدور على التعصب للبشر الجسمانيين، وهم يدّعون أن مذهب الحنفاء هو الاكتساب، والحنفاء يكذبونهم في ذلك ويقولون إن مذهبهم هو الفطرة.

وعاذيمون وهرمس هما معلما الصابئة في الأصل وقد أخذوا عنهما الدين والأخلاق، كما سنبينه باختصار فيما بعد. وهم يعتقدون أن هرمس العظيم صعد إلى العالم الروحاني فانخرط في سلكهم، ولتوضيح هذه المسألة ينبغي أن نلقى بعض الضوء على عقائد الصابئة، والهيكل الذي وردت الإشارة إليه في كلام إخوان الصفا بوجه خاص؛ وقبل أن نتكلم عن الصابئة لا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن أفلاطون كان على مذهب الصابئة والروحانية، وإن كانوا لم يصرحوا بذلك حتى أثناء كلامهم عن زهده؛ إذ قد اكتفوا بإيراد بعض أقوالهم في شأن العناية بالجانب الروحاني في الإنسان. والإيمان ببقاء النفوس وصلاح حالها بعد مفارقة الجسد، ومن حِكَم أفلاطون التي ساقوها في هذا الصدد قوله: "لو لم يكن لنا معادٌ نرجو فيه الخير لكانت الدنيا فرصة الأشرار"، وقوله: "نحن هاهنا غرباء في أسر الطبيعة، وجوار الشياطين ، أخرجنا من عالمنا بجناية كانت من أبينا آدم".[1]

أما أصحاب الروحانيات فيعتقدون أن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً منزهاً عن مشابهة الحوادث، مقدساً عن صفات المخلوقين، وأن الواجبَ على البشر معرفةُ العجز عن الوصول إلى جلاله، وأنه يمكنهم فقط أن يتقربوا إليه بالمتوسطات أو الشفعاء المقربين إليه، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وحالة.

فهم خَلقٌ لا من مادة، إذ أنهم مبرءون عن الطبيعة الجسمانية، وعن القوة الجسدانية وما يجرى عليها من عوارض وتغيرات؛ وهذه الروحانيات عند الصابئة

---

(١) الرسائل: ٣٥/٤

قد أُبْدِعت إبداعاً لا من شيء، لا مادةً ولا هيولي، فالمادة والهيولي عندهم هي سَنخُ الشر وأصله ومنبع الفساد في الكون ومصدره. وهى كلها جوهر واحد ومن أصل واحد.[1] وجواهرها كلها أنوار محضة لا ظلام فيها، وهى من شدة ضيائها لا يدركها الحس، ولا ينالها البصر؛ ومن غاية لطافتها يحار لها العقل، ولا يجول فيها الخيال. أما الإنسان وسائر المخلوقات الأخرى فهي مركبة من العناصر الأربعة، ومؤلفة من مادة وصورة، والعناصر بطبيعتها متضادة ومزدوجة، ومن تضادها وازدواجها يحصل الفساد والشر.[2]

هذه الكائنات الروحانية مجبولة على الطهارة، مفطورة على التقديس والتسبيح، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم عندهم كالملائكة عند المسلمين؛ ويزعم الروحانيون أن الذي أرشدهم لهذه الكائنات الروحانية هو معلمهم الأول عاذيمون وهرمس، ويقولون إنهم يتقربون إليهم ويتوكلون عليهم ويتخذونهم أربابا وآلهة ووسطاء وشفعاء عند الله، الذي هو رب الأرباب واله الآلهة. وهم إذا أرادوا شيئاً من الله سألوا الوسطاء أن يشفعوا لهم عنده، وفزعوا إلى هذه الهياكل، ويعنون بها السيارات السبع، وبمرور الوقت قالوا إن السيارات السبع قد تُرى في وقت ولا تُرى في وقت آخر؛ لأن لها طلوعاً وأفولاً وظهوراً بالليل وخفاءً بالنهار، لذا لم يصف لنا التقرب بها والتوجه إليها، فلا بد لنا من صور وأشخاص منصوبة دائماً؛ فتوصلوا من ذلك لاتخاذ أصنام أشخاص على مثال الهياكل السبعة، كل شخص في مقابلة هيكل، وراعوا في ذلك المادة التي صنعوا منها الهيكل، وكذلك الوقت وسائر الاعتبارات وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان وقد أشار القرآن إلى ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].[3]

والروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع والخلق وتدبير أحوال

---

(١) الشهرستاني / الملل والنحل ج ٥ ص ٩٠، ١٤٠ ، ١٥١.

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه: ٤/١٣، ١٤.

المخلوقين والمخلوقات، وهم يستمدون القوةَ من الحضرة الإلهية القدسية، ومنهم تفيض القوةُ على الموجودات السفلية التي هي مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها، والأفلاك هي هياكلها، ولكل روحاني عندها هيكل، ولكل هيكل فلك، ونسبة الروحاني إلى هيكله الذي اختص به، هو كَنِسْبَة الروح إلى الجسد؛ وكما أن الروح هي التي تدبر أمر الجسد، فكذلك الروحاني هو الذي يدبر أمر الهيكل، وكانوا يُسَمُّون الهياكل أرباباً، وربما سموها آباءً، وسَمّوا العناصر- أي مشكلات الطبيعية- أمهات، وزعموا أن الروحانيات هي التي تحرك الماديات وتشكلها من جوانبها المادية والروحانية؛ وعندهم أن التأثيرات الروحانية منها ما هو كُلي صادر عن روحاني جزئي؛ وتأثيرات الروحانيات في الماديات تقاس درجته بحكم المصدر الروحاني المسبب له، سواءً أكان ذلك في الظواهر الطبيعية أم في الأحوال النفسية الخاصة بالإنسان. ويعتقد الروحانيون كذلك أنهم لكي يحصلوا على رضا هذه القوى الروحانية، ويتلقون منهم الشفاعة والهداية فإن عليهم أن يطهروا أنفسهم عن دنس الشهوات الطبيعية، وأن يهذبوا أخلاقهم، وأن يكثروا من الزهد والأدعية والصلوات، وبذل الزكاوات والصيام عن المطعومات والمشروبات، وأن يقربوا القرابين والذبائح وغير ذلك مما تحبه القوى الروحانية؛ ولذلك فهم يزعمون أن بإمكانهم أن يصلوا عن طريق الرياضة الروحية إلى مرتبة الأنبياء فيتلقون الوحي عن أربابهم؛ وهم بالتالي لا يرون للنبي أي مزية على غيره من سائر البشر، بل يقولون إن حكمهم وحكم من يدعي الوحي على وتيرة واحدة، وقالوا إن الأنبياء أمثالنا في النوع وأشكالنا في الصورة، يشاركوننا في المادة، يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب، فهم بشرٌ مثلنا، فمن أين لنا طاعتهم إذن![1] وشأن هؤلاء الروحانيون في ذلك شأن من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤].

وقد مرّ بنا زعم الصابئة أنهم تلقوا علم الروحانيات وعرفوا الله وأخذوا شرائعهم

(١) المصدر نفسه: ٥ / ٨٨- ٩٤، ونلفت النظر إلى أن بعض عبارات الشهرستاني تخللت بعض كلامنا دون أن نضع علامة تنصيص محافظة منا على جمال النسق.

عن عاذيمون وهرمس، وشيث وإدريس عليهما السلام.[1]

وفي هذه القرينة نضيف أن الحرانيين، وهم جماعة من الصابئة، ينسبون مقالتهم إلى عاذيمون وهرمس وأواذي أربعة من الأنبياء؛ ومنهم من ينسب مقالات الحرانيين إلى سولون جد أفلاطون لأمه، ويزعم أنه كان نبياً، ويعتقد الحرانيون أن الصانع المعبود واحد بالذات، وكثير بالأشخاص وهي المدبرات السبع والأشخاص الأرضية الباطنية الخيرة[2]، وزعموا أن "أواذى" حرّم عليهم البصل والكرات والباقلاء. والصابئون، على اختلاف طوائفهم، يُصَلون ثلاث صلوات، ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت؛ وهم يحرمون أكل لحم الخنزير والجذور والكلب، ويحرمون من الطير كل ما له مخلب، وهم في زواجهم يعتمدون الزواج بولي وشهود، كما أنهم يحرمون الجمع بين الأختين[3]، والطلاق عندهم لا يقع إلا بحُكم الحاكم؛ وإلى الحرانية يرجع أصل القول بالتناسخ والحلول، ويعنون بالتناسخ تكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية، ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الدور الأول، وأن ما يعيشه الناس من فرح أو حزن، غني أو فقر، صحة أو مرض، إنما هي أجزية على الأعمال السالفة التي مضت؛ والحلول يعني عندهم التشخص، وربما يعنون بالتشخص حلول ذات الإله حلولاً كلياً أو حلولاً جزئياً على قدر مزاج، وتحمل الشخص أو القابل- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[4]. فالله تعالى لا يَحل في مكان، ولا يَخلو منه مكان، ولا يَحُدّه زمان، ولا يُخرجه عن علمه زمان، ولا يَجري عليه شيء مما يجري على خلقه.

ولا يفوتنا أن ننبه هنا على أن تأثر إخوان الصفا بالصابئة والروحانيين وأصحاب الهياكل ثابتٌ لا يقبل الجدل. والمُطالِعُ لرسالتهم الخامسة من النفسيات والعقليات "رسالة العقل والمعقول"[5]، في الأدوار والأكوار[1]، والمعقول، ورسالة

---

(١) المصدر نفسه: ٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠.

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٢٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٢.

(٥) الرسائل: ٣/٢٣١

"ماهية الطبيعة"، يتضح له ذلك بأدنى ملاحظة. ويكفى في إظهار هذا التأثير أن نشير إلى بعض عباراتهم في هذا الصدد: "ذكر تأثيرات الأشخاص العلوية الفلكية في الأشخاص السفلية الكائنة تحت فلك القمر الذي هو عالم الكون والفساد"، "روحانية الكواكب"، "أدوار الأشخاص الفلكية وأكوارها وقراناتها.... الخ"[(٢)]

هذا الكلام وغيره كثيرٌ في الرسائل يثبت بوضوحٍ تأثر إخوان الصفا بآراء الصابئة ومعتقداتها.

---

(١) المصدر نفسه: ٣/٢٤٩، ٢٦٨

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٢٤٩، والأكوار: جمع كور وهي الزيادة، مأخوذة من كور العمامة. ألكور تلوير العمامة أو إدارتها على الرأس. (لسان العرب ٥/ ١٥٥)، قال النصر كل دارة من العمامة كور، وكل دور كور المعنى بكون قرانئة الكواكب ١٣/ ٣٣٦.

التوسل بالأولياء وزيارة قبور الصالحين

يجيز إخوان الصفا زيارة قبور الصالحين والأخيار والتوسل بهم عند زيارة قبورهم، يقولون: "ومما يدل على بقاء النفس وصلاح حالها، بعد مفارقتها لأجسادها، ذهاب الناس إلى قبور الصالحين والأولياء والأخيار لطلب الغفران واستجابة الدعاء، والتوسل بهم إلى الله عز وجل، وما يرجون من شفاعتهم عند ربهم، وما يطلبون أيضاً من قضاء حوائجهم من أمور الدنيا بالدعاء عند قبورهم؛ أفترى أن أهل الديانات كلها اتفقوا على شيء لا حقيقة له؟ كلا؛ بل هذا علم غامض وأسرار خفية لا يعقلها إلا العالمون كما ذكرهم الله عز وجل ومدحهم بما علموا مما خفي على غيرهم حيث يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾" [الروم: ٥٥- ٥٦].(١)

ويقولون في الرسالة الناموسية الإلهية الشرعية في الرسالة الأولى منها والخاصة بالآراء والديانات: "إن من الناس من يتقرب إلى الله بأنبيائه وبرسله، وبأئمتهم وأوصيائهم، أو بأولياء الله وعباده الصالحين أو بملائكة الله المقربين، والتعظيم لهم، ومساجدهم ومشاهدهم، للاقتداء بهم وبأفعالهم، والعمل بوصاياهم وسننهم على ذلك، بحسب ما يمكنهم ويتأتى لهم ويتحقق في نفوسهم ويؤدي إليه اجتهادهم. فأما مَنْ يعرف الله حق معرفته فهو لا يتوسل إليه بأحد غيره، وهذه مرتبة أهل المعارف الذين هم أولياء الله؛ أما من قصر فهمه ومعرفته وحقيقته فليس له طريق إلى الله تعالى إلا بأنبيائه. ومن قصر فهمه ومعرفته بهم، فليس له طريق إلى الله تعالى إلا بالأئمة من خلفائهم وأوصيائهم وعباده الصالحين. فإن قصر فهمه ومعرفته بهم فليس له طريق إلا اتباع آثارهم، والعمل بوصاياهم، والتعلق بسننهم، والذهاب إلى مساجدهم ومشاهدهم، والدعاء والصلاة والصيام والاستغفار، وطلب الفران والرحمة

---

(١) الرسائل: ٤/ ٣٦

عند قبورهم، وعند التماثيل المصورة على أشكالهم، لتذكار آياتهم، وتعرف أحوالهم".

ثم يقولون في تعليل إباحتهم لهذا الأمر: "ثم اعلم أنه على كل حال فإن من يعبد شيئاً من الأشياء، ويتقرب إلى الله تعالى بأحد، فهو أصلح حالاً ممن لا يدين شيئاً، ولا يتقرب إلى الله ألبتةَ."[1]

ومعنى كلامهم أن من يعتقد في شيء أفضل ممن لا يعتقد في شيء ألبتة، وفي هذه القرينة نذكر إلى أن الإسماعيلية يأمرون بزيارة قبور ساداتِهم.[2]

---

(١) الرسائل : ٤٨٣/٣

(٢) الملطي الشافعي – التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ت: محمد زاهد الكوثري ص ٣٢.

المبحث السادس

الآراء الكلامية في رسائل إخوان الصفا

وجود الباري ودعوى قِدَم العالم :

تكلم إخوان الصفا عن الإلهيات تحت عنوان الآراء والديانات في رسالة خاصة من رسائلهم وهى الرسالة الثانية والأربعون؛ وتقع هذه الرسالة في مائة صفحة وثلاث صفحات، وهى تمثل القسم الرابع من أقسام رسائلهم الكبرى، وينوه كاتب الرسائل في البداية بأن الكلام في الإلهيات هو الغرض الأقصى للبحث، والغاية القصوى المقصودة للإنسان.

الدهرية :

الدهرية، ويُسَمَّون أيضاً الزنادقة والملاحدة، هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤]، فهم يؤمنون بالخالق على نحو ما، وينكرون البعث عقلياً وحسياً.[١]

والدهريون ينفون الأعراض. والدهرية الأزلية منهم بخاصة يزعمون أن العالم كان في الأزل على هذه الصورة في أملاكه وكواكبه وسائر أركانه، وأن الحيوانات متناسلة كما هي الآن كذلك.

يبدأ إخوان الصفا كلامهم في هذا الموضوع بتقرير أن الاختلاف البَيِّن في آراء الناس ومذاهبهم، مترتبٌ على اختلافهم في صور أبدانهم وأخلاقهم وأعمالهم وصنائعهم؛ وهذا الاختلاف مرده إلى أربعة أسباب:

١- اختلاف الناس من جهة الأبدان ومزاج أخلاطها وعناصرها.

٢- اختلاف البقاع والبيئات والفلك والأزمنة ومواضع الكواكب ومساقط النطف والعوامل الطبيعية التي تؤثر فيهم.

---

(١) انظر الرسائل ٣ / ٤٠٢

٣- اختلافهم في النشأة والعوائد والسنن الاجتماعية، وفى الدِّين الذي رُبُّوا عليه.

٤- عادات المربين والمعلمين الذين أثروا فيهم.

ويَمضى إخوان الصفا، انطلاقاً من هذه الأسباب، يبينون لماذا اختلف العلماء، وكيف ظهرت المذاهب والآراء والمقالات في الوجود، وعن طبيعة الاختلافات بين البشر وفلسفتها، وعن ظهور الجدل، وما ينتج عنه من خصومات بين الناس، إلا أن الذي يعنينا هنا هو كلامهم عن أنفع الاعتقادات، وما ينبغي على كل إنسان التسليم به والعقد عليه يقولون:

"اعلم أن من أجود الآراء وأنفع الاعتقادات، وما يصلح لجميع الناس من الخاص والعام أن يعتقدوها، ويقروا بها، هو القول بحدوث العالم، وأنه مصنوع، وله بارئ حكيم، وصانع قديم، وخالق رؤوف رحيم؛ وأنه قد أحكم أمر عالمه، وأتقن أمر خلقه على أحسن النظام والترتيب، ولم يترك فيه خللاً واعوجاجاً ألبتة. فإنه لا يجري في عالمه أمر، ولا يحدث حدث صغير ولا كبير، دقيق ولا جليل، إلا هو يعلمه قبل كونه، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، وإن له ملائكة هم خالص عباده، وصفوة بريته، نصبهم لحفظ عالَمه، ووكلهم بتدبير خلائقه، لا يعصونه طرفة عين مما نهاهم عنه، ويفعلون ما يؤمرون. وإن له خواصَّ من بني آدم اصطفاهم وقرَّبهم، وجعلهم وسائط بين الملائكة وبين خلقه من الجن والإنس، وسفراء له؛ وإنه أمر عباده بأشياء، إذا فعلوها، فهو خير لهم وأنفع للجميع. ونهاهم عن أشياء، إن لم ينتهوا عنها، صرفهم عن الأنفع، وفاتهم الأفضل. وإنه لم يأمرهم شيئاً لا يطيقونه، ولا يفعلون شيئاً مما هو لا يعلمه، وإنهم قاصدون نحوه، متوجهون إليه منذ يومِ خلقهم ينقلهم حالاً بعد حال، من الأنقص إلى الأتم، ومن الأدْون إلى الأكمل، ومن الأدنى إلى الأفضل، إلى يوم يلقونه ويشاهدونه فيوفيهم حسابه. ثم اعلم أنه ليس إلى معرفة هذا الرأي سبيل، وإلى هذا الذي ذكرنا، وحقيقة ما وصفنا، طريق إلا شيئان اثنان: أحدهما الاستبصار واليقين، بالقلب الصافي من الشوائب للنفس الزكية النقية من الذنب، بعد تأمل شديد للمحسوسات، ودقة نظرٍ في المعقولات، ودرايةٍ بالرياضيات،

وبحث عن القياسات، كما فعلت القدماء الحكماء الموحدون الربانيون؛ وإقرار باللسان، وإيمان بالقلب، وتسليم بالقول كإقرار الملائكة بها إلهاماً وتأييداً، وكإقرار الأنبياء وحياً وإنباءً، أو كإقرار المؤمنين للأنبياء إيماناً وتسليماً، وكإقرار العامة والأتباع للخواص والعلماء تقليداً وقولاً، أو كإقرار الصبيان للآباء والمعلمين تعليماً وتلقيناً. فهذا الذي ذكرناه هو أحد أركان الدين وهو الاعتقاد الصحيح. وأما الركن الآخر الذي هو الطاعة فهو الانقياد من المأمورين والمرؤوسين للآمرين الناهين."[1]

يتكلم إخوان الصفا بالإضافة إلى ذلك عن الدهرية في إطار كلامهم عن الآراء الحكمية.[2] والدهريون نوعان: دهرية أزلية وقد أشرنا إليهم، ودهرية مُحْدِثة مُضلِّلة؛ وسبب ضلالة الدهرية أنهم في العموم نظروا إلى الموجودات الجزئية المدركة بالحواس، وتأملوا فيها واعتبروا لها أحوالاً، فوجدوا لكل مصنوع أربع علل: علة هيولانية، علة صورية، علة فاعلية، علة تمامية. فلما فكروا في حدوث العالم وصنعته أرادوا أن يبحثوا عن علل لهذه المصنوعات؛ وبناءً عليه فقد وجهوا هذه الأسئلة: من عمله (أي العالم)؟، ومن أي شيء عمله؟ وكيف عمله؟ ولم عمله؟ ومتى عمله؟.

وقد قادَتْهم هذه الأسئلةُ، التي لم يفهموا الإجابة عليها، إلى القول بقدم العالم وأزليته، وأنكروا العلة الفاعلة من ورائه؛ وهكذا كل من بحث بعقله فقط، بمعزل عن الوحي، وبغير نَقاء نفس وطُهر قلبٍ، فإن مآله إلى الكفر. فإن العقل كما أن له مزايا ومناقب، له أيضاً آفاتٌ ومخاز. فإن العقل يخطئ عندما يبحث عن الله، وكأنه شئ من الأشياء التي خلق الله وتنزّه عنها؟، وإنما يعرف الله تعالى بالآثار المشاهدة، وبالأخبار المسموعة. فحقّ خلق هذا الكون بعوالمه المختلفة، والتي لا يحصى العلم بها إلا الله سبحانه وتعالى.

وهذا الاتساع والبسط في الخلق والتنوع فيه، من أصغر ذرة لأكبر مجرة؛ وهذا الاختلاف بين الوالد والولد، وبين السلف والخلف، وبين أعضاء الجسد الواحد، وبين الأوراق على الغصن الواحد، وبين الأغصان على الشجرة الواحدة، وبين الأشجار في المكان الواحد، وهذا التنوع في الأجسام والصور والطعوم والمذاقات والمشاعر

---

(١) الرسائل: ٣/ ٤٥٢- ٤٥٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٤٥٥

والعواطف والعقود، وهذا التعدد والكثرة في المخلوقات فيها براهين كافية على أن من ورائها خالقٌ أعظم منها، مدبّر لها، يحييها بإرادته، ويميتها ويحولها بمشيئته؛ كلا بل إنها لآياتٌ بيناتٌ على الصانع القدير، والمدبر الحكيم.

الشرور الواقعة في العالم وتفسيرها :

أما الشرور والمضار التي تقع في العالم فهي دليل أيضاً على وجود الله، وليست بحال من الأحوال دليل على عدم وجوده؛ وذلك لأنها هي الأخرى تحتاج إلى خالق يسيطر عليها، ويوجه مسارها[1] ويحدد مداها ومدتها وغايتها. وحلُّ مشكلة الخيرَ والشر، ومن أين تَوَلَّد، لا يحلها القول بوجود إلهٍ للخير وإلهٍ للشر، إلهٍ للنور وإله للظلام، كما هو مذهب الزرادشتيين.

يقول إخوان الصفا: "فأما القائلون بالعلة الواحدة وأنها واحدة قديمة، فإنهم لو نظروا أدق من نظر أولئك، وبحثوا أجود من بحثهم، وتأملوا غير تأملهم، فرأوا من القبيح الشنيع أن يكون محدثُ العالم قديمين؛ واعتبارهم وقياسهم كان في ذلك هكذا. قالوا: لا يخلو الأصلان القديمان من أن يكونا متفقين في كل شيء ومختلفين في شيء. فإن كانا متفقين في جميع المعاني فواحد لا اثنان، وإن كانا مختلفين في المعاني، فأحدهما عدم. وإن كانا متفقين في شيء، فالشيء الثالث، وقد بطلت المثنوية، فيجب أن يكون أصل العالم ثلاثة. والقائلون بالثلاثة أو أكثر لازمةٌ لهم هذه الحكومة والشنيعة أيضاً. فأما العلة الواحدة فمتفق عليها بأن من يقول بالاثنين كمن يقول بالواحد، ثم ادعى إلى مادة الزيادة."[2]

فلننظر إلى السماء التي صنعها الله على سعتها ووفرة أسرارها وأجرامها وبديع تركيبها، فإننا لا نرى فيها فطوراً ولا قصوراً، وكذلك المحيطات والبحار والجبال، وكل ما خلق الله تعالى وأبدع فيه.

أما الشرور والآفات وعوارض النقص والعاهات فإن لها أسبابها وغاياتها في

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٤٦٢ – ٤٦٣

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٤٦٣– ٤٦٤ .

إطار النظام الإلهي الكلي الذي وضعه الله تعالى للخلق، ورتب عليه الحياة والجزاء على الأعمال خيراً فخيراً، وشراً فشراً. وحتى يميز الله الخبيث من الطيب، والحق من الباطل. يقولون: "ثم اعلم أنه لم يفت من فاته وجدانه من أجل خفاء ذاته ودقة صفاته، وكتمانها، ولكن من شدة ظهوره وجلالة نوره، وإنما ذهب على من ذهب معرفة ذاته وحقيقة صفاته، من أجل أنهم طلبوه كطلبهم سائر الأشياء الجزئية المحسوسة، وبحثوا عنه كبحثهم عن سائر الموجودات الكليات المبدعات المخترعات المصنوعات الكائنات، من الجواهر والأعراض والصفات الموصوفات، المحتوية عليها الأماكن والأزمان والأكوان والأشخاص والأنواع والأجناس. وذلك أن كل واحد من هذه الموجودات يطلب فيه ويبحث عنه بتسعة مباحث، وهي: هل هو؟ وما هو؟ وكم هو؟ وكيف هو؟ وأيّ هو؟ وأين هو؟ ومتى هو؟ ولم هو؟ ومن هو؟"[1]

علة ترك الملاحدة للدين والرد عليها :

ويضيف إخوان الصفا إلى أن علة ترك الملاحدة للدين أصلاً: "أنهم لما تأملوا بعقولهم اختلاف أهل الديانات، وجدوا كل دين قوم معيوباً عند قوم آخرين، ولم يجدوا مذهباً ولا ديناً بلا عيب (فيما يزعمون)، فتركوا الدين جملةً من أجل هذا؛ ولم يتأملوا ولا فكروا بأن كون العاقل بلا دين أعيب وأقبح من كل عيب".[2] ونضيف أن هؤلاء الملاحدة لم يروا عيب أنفسهم وبطلان مذهبهم ولا حيرتهم التي أهلكتهم.

ويقدم إخوان الصفا كذلك تفسيراً توفيقياً للخلاف الكائن بين أهل الأديان والتنازع بينهم فيقولون: "ثم اعلم أن في ذكر أهل الديانات عيوب بعضهم بعضاً حكمةً جليةً قد بيناها في رسالة العلل والمعلولات. وليس ذلك بأن الدين معيوب، ولكن لأن مفروضات واضعي الشريعة، وسننهم مختلفةً لأغراض شتى. والأغراض يطول شرحها، وتكون تلك السنن عند قوم محمودةً صالحةً، لسبب نشوئهم عليها ودربتهم في طول الزمان، وجريان عاداتهم عليها. ويكون الدين معيوباً ومنكراً عند

(١) المصدر نفسه: ٣/ ٥١٣.

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٤٨٤

قوم آخرين، لأنهم نشأوا على غيرها، واعتادوا سواها، وأَلِفُوا خلافها، لا بأن الدين معيوب، وسنن الديانات قبيحة. ثم اعلم أنه لما كانت طباع الناس مختلفةً، وأخلاقها متغايرة، وإرادتها مفننة (متشعبة)، والنفوس يعرض لها أمراض مختلفة بحسب الزمان والأمكنة والطباع والأمزجة والعادات، وكان واضعوا النواميس هم أطباء النفوس ومنجموها، كقول النبي ﷺ: "**إن مثل أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**" وغرضهم كلهم اكتساب الصحة وحفظ السلامة من الآفات العارضة. فمن أجل هذا كله اختلفت مفروضاتهم وتغايرت سننهم حسب ما يليق بأمةٍ أمةٍ، وطائفةٍ طائفةٍ، من الناس والأمم، من المداواة لنفوسهم، والحمية لها من المحرمات عليهم، كما يفعل أطباء الأجسام في العلاجات المختلفة بالبلدان المختلفة، لأجل الأمراض المختلفة في الأزمان المختلفة، من تغيير الأشربة، وتبديل الأدوية، وتقليل الأوزان وتكثيرها، بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة، ولا سيما بحسب اختلاف أمزجة الإنسان، ومراعاة العادات: وذلك أن غرضهم حفظ الصحة الحاصلة واسترداد الصحة المفقودة. فهكذا أفعال الأطباء من النواميس، واختلاف سننهم، وترتيب أوضاعهم وأمرهم، وإجازتهم في شيء، ونهيهم وتحريمهم عن شيء، تشبه بعينها أفعال أطباء الأجسام ومداواتهم قطعاً" [1]

ويضيفون إلى ذلك قولهم الذي ساقوه تحت عنوان "في بيان علة الاختلافات التي بين أهل الديانات النبوية" (أي الديانات السماوية): "ثم اعلم أن الأنبياء، عليهم السلام، لا يختلفون فيما يعتقدون من الدين سراً وعلانيةً، ولا في شيء منه ألبتةَ، كما قال تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقد بينا أنّها اثنتا عشرة خصلة يعتقدها الأنبياء وأصحاب النواميس الإلهية أجمعون لا يختلفون فيها، كما بينا في رسالة النواميس. وأما الشرائع التي هي أوامر ونواهٍ، وأحكام وحدود وسنن، فهم فيها مختلفون كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:

---

(١) المصدر نفسه: ٣/ ٤٨٤- ٤٨٥.

٦٧]. ثم اعلم أن اختلاف الشرائع ليس بضار، إذا كان الدين واحداً، لأن الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الآمر فيما يأمر وينهى المرؤوسين بحسب ما يليق بواحد واحد، ما يرى أنه يصلح له ويصلح فيه، لأن أوامر أصحاب النواميس ونواهيهم مماثلة لأمر الطبيب الرفيق الشفيق، فيما أمر العليل من الحمية في الصيف من تناول الأشياء الحارة بالطبع، وإجازته شرب المبردات في البلدان الحارة، وفيما يرى ويأمر له. فمن أجل هذا اختلفت شرائع الأنبياء، عليهم السلام. وكذلك اختلفت سنن الدين وقواعد النواميس لأنهم أطباء النفوس ومنجموها، وذلك أن في الأدوار والقرانات والألوف قد تعرض للنفوس من أهل كل زمان أمراض وأعلالٌ مختلفة من الأخلاق الرديئة، والعادات الجائرة، والآراء الفاسدة من الجهالات المتراكمة، كما يعرض للأجساد من الأمراض والأعلال من تغييرات الزمان، والأهوية والأغذية، فبحسب ذلك يجب أن يكون اختلاف علاجات الأطباء ومداواتهم. فهكذا شرائع الأنبياء واختلاف سننهم بحسب أهل كل زمان وما يليق بهم أمةً أمةً، وقرناً قرناً..."[1]

صفات الله تعالى ودعوى خلق القرآن :

عرض إخوان الصفا لمسائل كلامية أخرى كصفات الله تعالى، كما تناولوا مشكلة خلق القرآن، واتفقوا فيها مع جمهور المسلمين، في أن القرآن كلام الله تعالى القديم، وأما الإشارات فإنها جملة من الحروف والأصوات، مخلوقةٌ، إلا أنهم للأسف يذكرون أن كلام جبريل لرسول الله ﷺ هو إفهامه معاني القرآن، وأن محمداً هو الذي صبها في اللغة العربية، وكان يمكن، على حد قولهم، أن تُصب في أي لغة أخرى؛ ويَسْنِد إخوانُ الصفا هذا الرأي إلى بعض المتكلمة الذين لم ينصوا عليهم[2]، وذلك لأن هذا هو الرأي الذي راقهم؛ وبهذا خرجوا على مقررات القرآن والسنة، وعلى إجماع المسلمين في أن القرآن هو كلام الله تعالى بلفظه ومعناه، وأنه

---

(١) المصدر نفسه: ٣/ ٤٨٦- ٤٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٥١٧

لم يكن لرسول الله ﷺ حظ فيه، إلا البلاغ الأمين، والبيان البليغ، والتطبيق العملي في الحياة، بعد حفظه ﷺ للقرآن كتابةً في السطور، وحفظاً في الصدور.

وجود العالم :

تناول إخوان الصفا مسألة وجود العالم، ولا شك في أنهم يؤمنون بوجود الله تعالى وبصفاته، ويعتقدون في وحدانيته، وفى عدم مشابهته للحوادث، كما ذكرناه في موضعه من هذا الكتاب، وبالنسبة لطبيعة العالم هل هو مخلوق أم حادث، فإنهم تناولوه في إطار كلامهم عن اختلاف العلماء في تحديد ماهية الهيولي، يعنى المادة الأصلية للخلق، فقد اختلف أصحاب المقالات والآراء في ماهية الهيولي، وفى كيفية حدوث الأجسام منها؛ وخلافهم هذا من إحدى أمهات الآراء والمذاهب المتفرعة عنها.[1]

وكلام إخوان الصفا في هذا الموضوع، وإن ورد بالتفصيل هنا في هذه الرسالة التي عليها مدار كلامنا في هذا الجزء الخاص بطبيعة العالم، فإنهم على جاري عادتهم قد نثروا كثيراً من الكلام عنه أيضاً في ثنايا رسائلهم بشكل عام.

وليس من غرضنا أن نتوسع معهم أو مع الفلاسفة والمتكلمة في عرض هذا الموضوع أو التشعب معهم فيه، ولكننا رغبةً في الاختصار نكتفي بإيراد قولهم الذي يلخص بوضوح موقفهم من هذه المشكلة التي هي محل نزاع بين الفلاسفة، والتي ربما كفّر بعضهم بعضاً فيها، يقولون في إحدى رسائلهم:

"ثم اعلم أن كثيراً من أهل العلم، ومن تكلم في حقائق الأشياء، لا يعرفون الفرق بين الشيء المخلوق والمصنوع، وبين المخترع والمبدع. وهذا أحد أسباب الخلاف بين العلماء في آرائهم ومذاهبهم في قدم العالم وحدوثه. ثم اعلم أن الخلق هو تقدير كل شيء من شيء آخر، والمصنوع ليس هو بشيء غير كون الصورة في الهيولي. وأما الإبداع والاختراع فهو إيجاد شيء لا من شيء، وهذه المعرفة. وتصور هذه الحكومة يبعد عن كثير من المرتاضين بالرياضيات الحِكْمِية، فكيف على غيرهم."[2]

---

(١) المصدر نفسه : ٣ / ٤٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٤٧٢ - ٤٧٣.

ومن المسائل التي كَفّر فيها الإمامُ الغزاليُّ الفلاسفةَ قولَهم بالبعث الروحاني لا الجسماني، وأن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات، وقولهم بقدم العالم وأزليته؛ وقال: إن الدهريين رأوا أن العالم قديماً، ولم يثبتوا له صانعاً، ومعتقدهم مفهوم، وإن كان الدليل يدل على بطلانه؛ وأما الفلاسفة فقد رأوا أن العالم قديم ثم أثبتوا له مع ذلك صانعاً[1]، وهذا كله مصادم لاعتقادات المسلمين[2]، وقد ردّ ابنُ رشد على الغزالي في دعوى أن الفلاسفة يقولون بأن العالم قديم وليس محدثا. والتوسع في هذا الموضوع يخرج بنا عن غرضنا الذي التزمنا به عند تحديدنا معالم هذا الكتاب.

ونعود إلى مقالة إخوان الصفا في طبيعة العالم فنجدهم يذكرون وجهة نظر القائلين بقدم هيولي وتعليلهم لذلك يقولون: "إن الذين قالوا بقدم الهيولى (مادة العالم) إنما دعاهم إلى هذا النظر والرأي نظرُهم إلى الموجودات الجزئيات التي دون فلك القمر، واعتبارهم هذه الكائنات الفاسدات من المعادن والنبات والحيوان، وذلك أنهم وجدوا كلَّ مصنوع بشري وطبيعي مُركّباً من هيولي ساذج، لا بشكل فيه قبل تصوير الصانع له بذلك الشكل، وإذا خلا المصنوع زماناً طويلاً، اندرس واضمحلّ، وانخلعت الصورة عنها، ورجعت إلى حالتها الأولى تراباً. مثال ذلك البنايات المتَّخذة في المدن والقرى: وذلك أنهم رأوا صُنَّاعها جمعوا التراب والخشب وبنوها، ثم يحفظونها بالمرمّات لتدوم زماناً، فإذا خلت زماناً طويلاً، تهدمت واندرست، واضمحلت وصارت تراباً وحجارة، كما كانت بَدِيًا. وهكذا حكم النبات والحيوان والمعادن التي هي مصنوعات طبيعية فإنها تصير كلها يوماً وإن طال الزمان. فعلى هذا القياس والاعتبار حكموا على الهيولي الأولى وصنعة الباري فيها العالَم وحفظِه على ما هو عليه الآن من النقش والتصاوير والأشكال والهيئات المختصة بفلكٍ فلك، وكوكبٍ كوكب، وركن ركن، وأجناس الحيوانات أجمع، والنبات والمعادن واحداً واحداً. وأما الهيولي الذي لا كيفية فيها فليست محتاجة في وجودها إلى صانع وفاعل- بزعمهم- فهذا كان اعتبارهم، وإلى هذا الموضع كان مبلغ اجتهادهم."[3]

---

(١) تهافت الفلاسفة، وتهافت التهافت ٢/ ٤٢٧

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٤٧٣

(٣) الرسائل ٣/ ٤٧٣.

ثم يختم أصحاب الرسائل كلامهم في الهيولي هل هي قديمة أم حادثة ويصوبون وجهة نظر القائلين بحدوثها؛ وذلك بعد أن دققوا النظر فيها، واستوفوا هذه المسألة بحثاً، حتى وصلوا فيها أخيراً إلى الحقيقة التي قررها الدين.

الإيمـــان والكفـــــر:

في البداية نعرض لتعريف معنى الإيمان والكفر كما هو عند علماء المسلمين، ثم ننتقل إلى الحديث عن مفهومه وحَدّه عند إخوان الصفا. يقول الإمام أبو الحسن الأشعري: "إن الإيمان هو التصديق لله ولرسله عليهم السلام في أخبارهم، ولا يكون هذا التصديق صحيحاً إلا بمعرفته".

والكفر عندهم هو التكذيب، وعلى هذا الرأي ابن الراوندى والحسين بن الفضل البجلى؛ وكان عبد الله بن سعيد يقول: "إن الإيمان هو الإقرار لله عز وجل وبكتبه وبرسله، إذا كان ذلك عن معرفة (علم) وتصديق بالقلب فإن خلا الإقرار عن المعرفة بصحته لم يكن إيماناً".

ويُروى أن أبا حنيفة قال: "إن الإيمان هو المعرفة والإقرار"[(١)]؛ وقال الإمام الأعظم في كتابه "الوصية": "الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان، وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص من جهة اليقين والتصديق."[(٢)] ومعنى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص أي من حيث الأصل، وذلك لأن التصديق إذا لم يكن على وجه التحقيق يكون في مرتبة الظن والتردد، والظن غير مفيد في مقام الاعتقاد؛ أما اليقين المترتب على التصديق فإنه يزيد وينقص.[(٣)]

وزعمت الجهمية أن الإيمان هو المعرفة وحدها. وهذه الأقوال التي تقتضي الحكم على المقلدين، والبسطاء، ومن ليس لديهم معرفةٌ بالكفر؛ وتقضي كذلك بأن كل عالم مؤمنٌ ولو كان كافراً.[(٤)]

---

(١) عبد القاهر البغدادى (ت ٤٢٩) كتاب أصول الدين . بيروت . دار الآفاق ١٤٠١ – ١٩٨١ ص ٢٤٨

(٢) شرح الفقه الأكبر للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان شرح الإمام المُلا. بيروت. دار الكتاب العلمية. ١٤١٦هـ/١٩٩٥. ص١٤٤.

(٣) المصدر نفسه

(٤) انظر ابن حزم . الفِصَل ٣ / ١٣٩

نتناول هذه المسألة بشيء من التفصيل والتحقيق، بعد عرض كلام إخوان الصفا، وقد ابتدأنا قبل ذلك بالإشارة إلى القائلين بأن الإيمان هو العلم وحده أو المعرفة وحدها؛ لأن إخوان الصفا رتبّوا كلامهم على هذا النحو مع علماء الكلام في هذه النقطة، هذا أولاً، وأما ثانياً فلأنهم أطلقوا الكلام، ولم يحددوا من هم القائلون بأن العلم هو المعرفة، مما جعلنا نبدأ كلامنا بالإشارة إليهم وذلك على سبيل التحديد للموضوع.

يرد إخوان الصفا على القائلين بأن الإيمان هو العلم وحده قائلين: إن العلم ما هو إلا تصور النفس رسوم المعلومات، في ذاتها، ويعنى هذا التصور حصول مفاهيم مجردة في الذهن، وإذا كان العلم هكذا فإنه ليس كل ما يرد الخبر به من جهة السمع تتصوره النفس على حقيقته كالجنة والنار وسائر الغيوب مثلاً، ولذلك يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ولم يقل "يعلمون الغيب"؛ ثم حثهم على طلب العلم بعد أن آمنوا فقال على سبيل المثال: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، ثم مدح العلماء فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦] فكفى بذلك فرقاً بين العلم والإيمان؛ وليس يعنى هذا أن إخوان الصفا يضعون العلم في مرتبة دنيا، كلا فإنهم قد بنوا دعوتهم على العلم واجتهدوا في تعليم أتباعهم. واهتمام إخوان الصفا بالعلم والمعرفة من الوضوح بمكان.

وما هذه الرسائل إلا دليل على اهتمامهم البالغ بالعلم، يقولون على سبيل المثال: "لأن المؤمنين هم ورثة الأنبياء وتلامذتهم وأن الأنبياء لم يورثوا دراهم ودنانير، بل إنما ورثوا علماً وعبادة فمن أخذ بهما فقد وَفُر حظاً جزيلاً"[1]

يقول الإمام أبو منصور الماتُريدي (ت ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م): "إن بعض المتكلمين ظنوا أن التصديق لا يكون في القلب، وإنما يكون به معرفة خاصة. والأصل أنه يكون وإن كان لا يقدر على الإشارة إلى ذلك بحرف يفضل إلا من طريق الدلالة بالمعروف من

---

(١) الرسائل ٤ /٦٢

القول: إن الإيمان تصديق في اللغة، والكفر تكذيب أو تغطية قصد المعرفة في الحقيقة النكرة والجهالة. ويقول إن كل من جَهل حقاً لا يوصف بالتكذيب له، ثبت (أي من ذلك) أن الإيمان بالقلب في التحقيق غير المعرفة. على أن المعرفة هي سببٌ يبعث على التصديق كما تبعث الجهالة على التكذيب"[1] وقد حمل الماتريدي قول من قال: "الإيمان معرفة" على أن الإيمان يعني التصديق عند المعرفة أي أن المعرفة والتصديق متلازمان، ولذلك سُمّي الإيمان معرفةً للزومه للتصديق أو مصاحبته له على أن المعارف ربما تقع بأشياء بلا أسباب لا يوصف الإيمان بها.

وحصول المعرفة ليس شرطاً لحصول الإيمان؛ فقد يكون العارف أو العالم ملحداً أو فاسقاً أو منافقاً؛ والإيمان الصحيح ما وقر في القلب وصدقه العمل، ودلَّ عليه العقل، وقام له من الله نور وبرهان.

وعن أهمية الإيمان وعمله في النفس وموقعه من الدين يصنف إخوان الصفا الناسَ بحسب الإيمان إلى أصناف:

صنف أوتوا الإيمان بمعنى التصديق الجازم بما جاء به النبي ﷺ عن الله من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، ولم يرزقوا العلم، وهم مع قلة علمهم ساكنة نفوسهم، هادئ جأشهم، متين يقينهم، تلقوه تقليداً وعملوا به بطريقة أشبه بحكم العالم، وهؤلاء لا ضير على إيمانهم إذا كانوا بمأمن من أعداء الدين والمشككين بل رُبَّما مثَّل هؤلاء قوةً في رصيد الأمة، وكم من الأشياء يفعلها الإنسان بحكم كونه في جماعة وبحكم المولد والنشأة وهى نافعة غير ضارة. ثم إن مجرد العلم لا يستدعى الإيمان بل إنه عند بعض الناس قد يجر إلى الإلحاد أو إلى النفاق والإيمان الزائف. وهؤلاء المطمئنون بالإيمان، المسَلِّمُون بخبر المعصوم ﷺ لَهم الأمن واليمن والأمان، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]، ولذلك قيل في متانة إيمان أبى بكر: "**لو وُزِن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم**" أخرجه البيهقي في الشعب عن عمر؛ وقد سبق أبو بكر وتفرد في السبق بسبب قوة إيمانه، وطُهْر صحبته وطولها مع رسول الله ﷺ.

---

(١) كتاب التوحيد . حققه وقدم له د. فتح الله خليف. القاهرة. دار الجامعات المصرية. بدون تاريخ. ص ٣٨٠، ٣٨١.

والصنف الثاني: قوم رُزقوا حظاً من العلم، ولم يرزقوا الإيمان فهم الذين شغلوا بالنظر في كتب الفلاسفة فأعجبوا بها وتركوا النظر في كُتب الدين والمباحث الشرعية، فَشَكُّوا وتحَيّروا، وبالتالي ضَعُف إيمانهم وزاد بُعْدُهم عن الله تعالى.

الصنف الثالث: صنف حُرِموا الاثنين معاً، وهما العلم والإيمان وهؤلاء هم المترفون الذين غرقوا في بحر الشهوات واللذات، وأعرضوا عن علم الدين وعن العلماء الناصحين فكان مصيرهم مع الترف التلف وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[محمد: ١٢]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]

وللأسف فإن إخوان الصفا يوظفون مثل هذا الكلام لصالح جماعتهم؛ بل إنهم يكادون يَقْصِرون الفضائل على أنفسهم إن لم يكونوا كذلك بالفعل؛ يقولون: "فأما الذين أوتوا من العلم والإيمان حظاً جزيلاً فهم إخواننا الفضلاء الكرام الأخيار الذين إليهم الإشارة من قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[1]، وقد أخبرنا عن مذهبهم وعرفناكم أخلاقهم، وبينا آراءهم، وأوضحنا أسرارهم في إحدى وخمسين رسالة عملناها".

ولو أنهم قد اكتفوا بالدعوة إلى الفضائل ولم يقصروها على أنفسهم وخرجوا بها عن حدود طائفتهم، لكان أرجى منهم وأشد تأثيراً في غيرهم، ولكنهم لا يفتأون يدعون إلى جماعتهم بصراحة في ثنايا رسائلهم فهم يقولون في سياق كلامهم عن العلم والإيمان علاوة على ما نقلناه:

"واعلم أنك أيضاً محتاج إلى الإيمان والتصديق لقول الْمُخبِر لك الذي هو فوقك في العلم وأعلى منك في المعارف، لأنك إن لم تؤمن بما يخبرك به حرمت أشرف العلوم وأجلّ المعارف. وتعلم أنه ليس لك طريق إلى تصديق المخبر لك في أول الأمر إلا حُسن الظن بصدقه، ثم على ممر الأوقات تتبين لك حقيقة ذلك، فلا تطلبه

(١) [المجادلة: ١١]

بالبرهان في أول الأمر، ولكن اجتهد في أن تتصور في فكرك ما تسمع بأذنك، ثم اطلب السبيل والبرهان بعد ذلك، ولا ترضَ بالتقليد إذا توسطت في العلم، ولا تطلب البرهان في أوله، ولكن هلم بنا يا أخي إلى مجلس إخوان لك فضلاء، وأصدقاء لك علماء، وأوِدّاء لك نصحاء، لتسمع أقاويلهم وترى شمائلهم، وتقف على أسرارهم، وتتصور بصفاء جوهر نفسك ما تصوروا بصفاء جوهر نفوسهم، وتنظر بعين قلبك كما نظروا بعيون قلوبهم، وترى بنور عقلك ما رأوا بنور عقولهم؛ فلعلك أن تنتبه نفسك من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتحيا بروح العلوم، وتعيش عيش السعداء، وتوفق للصعود إلى ملكوت السماء، لتنظر إلى الملإ الأعلى، وتكون هناك بنفسك الزكية الطاهرة، النقية الشفافة، مسروراً فرحاً، منعماً ملتذاً أبداً، لا بجسدك الثقيل المظلم المستحيل الفاسد. وفقك الله، أيها الأخ، للصواب وهداك إلى الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد".[1]

وكما قَسّم إخوانُ الصفا الناسَ بالنسبة للإيمان إلى ثلاثة أصناف، فإنهم قسموا الإيمان كذلك إلى نوعين: ظاهر وهو الإقرار بوجود الخالق ووحدانيته وبجميع صفاته الكاملة؛ وبالملائكة صفوة الله من خلقه،وقد خلقهم لعبادته ووكلهم لتدبير شئون عباده، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ والثالثة الإيمان بالرسل الذين اصطفاهم وجعلهم واسطة بينهم وبين خلقه يتلقون الوحي والإلهام والأنباء عنهم ويبلغونها إلى أقوامهم؛ والرابعة الإيمان بالوحي الصادر عن الله تعالى باللغات المختلفة التي هي "مأخوذة معانيها من الملائكة إلهاماً ووحياً"[2]، وهنا لابد من ملاحظة أن إخوان الصفا قد خلطوا بين الوحي والإلهام وجعلوا ما تمليه الملائكة من كلام الله تعالى مقصوراً على المعنى وهذا خطأ من جهتين: أما الجهة الأولى فهي أن القرآن هو كلام الله تعالى لفظاً ومعنى، ولا دخل لجبريل عليه السلام فيه، ولا لمحمد ﷺ، إنما مهمة الملاك هو البلاغ فحسب، ومهمة النبي هو التلقي والحفظ ثم الكتابة. أما الجهة الأخرى فهي أن الوحي القرآني فهو نقل كلام الله تعالى نصاً

---

(١) الرسائل ٤ / ٦٦

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ٦٧ ، ٣ / ٤٥٣

إلى النبي ﷺ بواسطة الملاك جبريل عليه السلام، أما الإلهام فهو الإلقاء في الروع سواء من جهة الله تعالى مباشرة أم عن طريق الملاك، وعلى هذا فإن القرآن وَحيٌ، والحديث القدسي إلهام.

والخامس: الإيمان بيوم القيامة وبالبعث والحساب والثواب والعقاب: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

يقول إخوان الصفا بأن هذا هو الإيمان الذي دعت إليه الأنبياء عليهم السلام الأمم المنكرة إلى الإقرار به، وهو يؤخذ تلقيناً كما يتلقن الصغار من الكبار، والجهال من العلماء الإقرار به.

وأما الإيمان الباطن فهو إضمارُ القلب باليقين على تحقيق هذه الأشياء التي أقر بها اللسان، وعَقْدُ النية على ذلك فهذه هي حقيقة الإيمان.

وقد أثنى الله تعالى في القرآن الكريم على المؤمنين حقاً الذين يتيقنون بقلوبهم حقائق هذه الأشياء التي أقروا بها، وأما الطريق إلى الإيمان فهو التفكير والاعتبار والقيام بشرائطه وواجب حقه كما قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢]

وشرائط الإيمان الصحيح هو التوكل على الله والاعتماد عليه، فالأولاد الصغار يمضون يومهم في اللعب ولا يفكرون في أمر المعاش؛ لأنهم يتوكلون على أبيهم ويعتمدون عليه، والغنى يعتمد على ثروته، والقَوِيّ على قوته، وهكذا أبناء الدنيا، وكما أن كل من وُكل إليه أمرُ أحدٍ من الناس قام بما له عليه، فإن الله تعالى هو الموكول إليه أمر العباد، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، لذا يجب أن تطمئن على رزقك معه، وتعمل ما أمرك الله بعمله، وتتوكل عليه، فإن الأنبياء لما اختارهم الله، لم يهتموا بأمر المعاش، كما كانوا من قبل النبوة، بل ظلوا يعملون لله وتركوا شئونهم له عز وجل يدبرها لهم.(١)

---

(١) المصدر نفسه ٤/ ٦٨ ، ٦٩

والإخلاص لله من علامات الإيمان ومن شرائطه، والإخلاص يكون في كل شئ، في الاعتقاد، وفى العبادة، وفى العمل، وفي الدعاء وفى علاقتك مع الناس.[1] والصبر من شرائط الإيمان ولوازمه وهو رأس الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠] والصبر هو الثبات في حال الشدائد بلا جزع لما يرجى من محمود العاقبة.

والحياء كذلك لا ينفك عن الإيمان، عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**الحياء والإيمان في قَرَنٍ**" أي مجموعان في حبل معا.

والقضاء والقدر يعتبره إخوان الصفا من شرائط الإيمان ومن خصال المؤمنين – والصواب أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، ومعنى الإيمان به هو طيب النفس بما تجرى به المقادير، وتفاجئ به الأيام. والقضاء علم الله السابق بما توجبه أحكام النجوم، فلا يمكن أن يكون للنجوم أو غيرها عملٌ على الله تعالى، بل هي مسخرة له عز وجل كسائر خلقه.

وإيماناً بالقضاء والقدر صَبَر الأنبياءُ والصالحون على الأذى وسلموا أنفسهم للقدر، سقراط شرب السم طائعاً ومات دفاعاً عن المبدأ ولم يهادن في ذلك، وهابيل صبر على تهديد أخيه قابيل له ولم يقاومه حتى قتله، ولم يبسط يده في الشر ضد أخيه لا هجوماً، ولا دفاعاً، بل قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨]، ورضي المسيح بالقضاء وسلّم ناسوته لليهود فصلبوه؛ وهذا تسليم من إخوان الصفا بوقوع الصلب، وهو ضد العقيدة الإسلامية وصريح القرآن كما ذكرناه في موضع آخر.

وصَبَر السحرةُ على قضاء الله كما هددهم فرعون بالصلب فقالوا له: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى

(١) المصدر نفسه: ٤/ ٧٠، ٧١

﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]؛ وذلك أنّهم أيقنوا أن سلطان فرعون إنما هو على أجسادهم الفانية، ولكنه لا يصل إلى أرواحهم الباقية قالوا له: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

وقد رضي النبي ﷺ بقضاء الله يوم أحد، لما قُتل خيارُ أصحابه وأنصاره وفضلاء المهاجرين، ورفض حتى أن يدعو على أعدائه القتلة الفجرة، ورضي عثمان ﷺ ثم آل البيت على القتل والأذى والتشريد رضاءً بقضاء الله تعالى، ومحبة فيه ولنيل السعادة الأبدية؛ وإلى هؤلاء الراضين أشار الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].(١)

وعند إخوان الصفا أن أولَ عُمُد الإيمان، وأقوى أركانه هو اتّباع الأنبياء فيما أَمَروا به عن الله تعالى من الطاعات وفيما نَهوا عنه من معاصي ومناكر، ولهؤلاء المبلِّغين عن الله ولأتباعهم صفات وشرائط عدة يعرفون بها، ذكرها إخوان الصفا في رسالة النواميس ورسالة اعتقاد إخوان الصفا، وفي رسالة عشرة الإخوان بعضهم لبعض.

ويُشبِّه إخوان الصفا واضعي الناموس "الأنبياء" مع أتباعهم بالمطر الذي ينزل من السماء إلى الأرض فتخرج به الزروع وتينع الثمار وكذلك فإن ما يسمعه الأتباع من واضعي الناموس فإنما ينتج فيهم الإيمان والعلوم والآراء. وإليه أشار المولى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٧٤، ٧٥

ﭐلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧] يعني القرآن، ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ يعني حفظتها القلوب بمقاديرها من القلة والكثرة، ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾ يعني ما تحمل ألفاظه وظاهره معاني متشابهات حفظتها قلوب المنافقين الزائفة، الشاكين المتحيرين، ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ مثل آخر يعني الجواهر المعدنية لها زبد عند السبك كزبد السيل، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ يعني أمثال الحقائق والأباطيل، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾ يعني الأباطيل والشبهات تذهب فلا ينتفع بها، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني ألفاظ التنزيل تثبت في قلوب المؤمنين المصدقين وتثمر الحكمة كما ذكر فقال عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤: ٢٦].[1]

والحق هو بغية كل طالب؛ والحق هو الغاية التي لا غاية بعدها، ولكن دون الحق شبهات ومشكلات قد تعترض طريق طالبه، ولذلك ينبغي علينا أن نتعمق في فهم ألفاظ الشرع فإن بعض الناس يتعجل الحكم على الشرع ويتسرع في إصدار الأحكام، وبالذات هؤلاء المتعاطون للفلسفة لأن منهم من يتجرأ على تخطئة الشرع.

يقول إخوان الصفا: "واعلم يا أخي أن كثيراً من العقلاء الذين يتعاطون الفلسفة والنظر في المعقولات، إذا فكروا بعقولهم في أحكام الناموس، وقاسوها بآرائهم وتمييزهم وفهمهم، يؤدي بهم اجتهادهم وقياساتهم إلى أن يروا ويعتقدوا في كثير من أحكام الناموس أن العدل والحق والصواب في خلافه؛ كل ذلك لقصور فهمهم وقلة

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٧٧.

تمييزهم وعجز معرفتهم عن كنه أسرار أحكام الناموس. مثال ذلك أنهم إذا فكروا في حكم المواريث، أن للذكر مثل حظ الأنثيَين، فيرون أن الصواب كان أن يكون للأنثى مثل حظ الذكرين، لأن النساء ضعفاء قلائل الحيلة في اكتساب المال، ولا يدرون ولا يبصرون أن هذا الحكم الذي حكم به الناموس سيؤول الأمر به إلى ما أشاروا إليه وأرادوه، وذلك أن الناموس لما حكم للذكر مثل حظ الأنثيين، حكم أيضاً أن المهر في التزويج على الرجال للنساء، فهذا الحكم يؤول الأمر به إلى أن يحصل للأنثى من المال مثل حظ الذكرين. مثال ذلك لو أنك ورثت من والدك ألفَ درهم، ووَرثت أختك خمسمائة درهم، فإذا تزوجت أخذت مهرها خمسمائة درهم أخرى، فيصير معها ألف درهم، وأنت إذا تزوجت وأمهرت خمسمائة درهم بقي معك من المال نصفُ ما مع أختك. فعلى هذا القياس قد آل الأمر في حكم الناموس إلى ما أرادوا وأشاروا إليه. فهكذا ينبغي أن يكون نظرك في أحكام الناموس، حتى يتبين لك وجه الصواب فيها وغاية الحق."(١)

وفي ردٍّ إخوان الصفا على خصوم الإسلام الذين يقدحون في نظام المواريث في الإسلام معتبرين أنه ضد المرأة يضيفون قائلين: "واعلم أن نظر واضعي الناموس في موجبات أحكامه ليس بنظر جزئي يريد صلاح بعض دون بعض، ولا عاجل دون آجل، بل نظره كلي يريد الصلاح للكل، والخير للعاجل والآجل جميعاً، بالنظر في العواقب وما يؤول الأمر إليه في المنقلب"(٢)

ويتكلم إخوان الصفا عن علم المؤمنين كما تكلموا عن صفاتهم وشرائطهم والمؤمنون هم الراسخون في العلم، الفاهمون له المجتهدون فيه. والعلم عند إخوان الصفا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنفس طالبة فكلما رقت النفس كان استعدادها لتلقي العلم والانتفاع به أكبر وأعمق، حتى ينتهي الأمر بتلقي الوحي عن الله، سواء يقظةً أم مناماً.(٣)

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٧٩ – ٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ٤/ ٨٠

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ٨٤.

النبوة والإمامة:

قبل أن نتناول وجهة نظر إخوان الصفا في النبوة والإمامة، ينبغي أن نعرف، بادئ ذي بدء، أن أصول الدين عند الإمامية أربعة: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة، وهى آخر المراتب. وهم يُدخلون في التوحيد نفى الصفات، والقول بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يُرى في الآخرة[1]، شأنهم في ذلك شأن المعتزلة، والمعروف أن الأصول التي يقوم عليها الفكر الاعتزالي هي: العدل، والتوحيد، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين (وهى منزلة الفاسق)، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.[2]

والخلافة عند إخوان الصفا نوعان: الأولى خلافة النبوة، والثانية خلافة الملك. وقد أخذ أصحاب الرسائل هذا التقسيم من قاعدة الاستخلاف؛ فخلافةُ النبوة أخذوها من قوله تعالى لآدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠]. فالله- تعالى- قد جعل آدم خليفة، ولذلك علّمه كل ما تصح به خلافته عند نزوله إلى الأرض: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ولما هبط آدم إلى الأرض تلقى الوحي من الله، فصار بذلك نبيا: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧]؛ أما الخلافة الثانية، وهى خلافة الملك، فهي استخلاف الأنبياء من يرعى شئون الدين بعدهم. وبما أن الخليفة من النوع الأخير لا يُوحى إليه، لذا فقد صارت خلافته ملكية، يحكمون من خلالها الناس بما لديهم من كلام الله وسنة الأنبياء واجتهادهم. وسوف نتناول موضوع الخلافة بمزيد من التفصيل فيما بعد، غير أننا قدمنا بهذه الكلمات التمهيدية حول الخلافة نظراً لتعلقها الشديد بالنبوة.

ابتدأ إخوان الصفا كلامهم عن النبوة بذكر خصالها وخصائصها، وهي كما عدوها: الوحي، والطبيعة الملائكية، وإظهار الدعوة في الأمة - يعنى البلاغ - ثم تدوين الكتاب الْمُنْزَل بالألفاظ الوجيزة، وتبيين قراءته في الفصاحة، ثم إيضاح

---

(١) ابن تيمية. منهاج السنة النبوية. بيروت. دار الكتب العلمية. ٢٣/١ .

(٢) انظر الملطي. التنبيه والرد. ص ٣٥- ٣٧، والبغدادي. الفرق بين الفرق ص ١٨، ٩٣، ١٨٩.

تفسير معانيه وبلوغ تأويله، ثم وضع السنن المركبة، ومداواة النفوس المريضة من المذاهب الفاسدة والآراء السخيفة، والعادات الرديئة، وباقتلاع الأفكار القبيحة من النفوس، ووقاية هذه النفوس من العودة إليها وإشفائها بالرأي الرصين والعادات الجميلة والأخلاق الحميدة، وذلك عن طريق الترغيب في جزيل الثواب.

وعَدُّوا من خصال النبوة كذلك معرفة سياسة النفوس الشريرة عن قصد سبيل الرشاد، وصدها عن طريق الغي، وتذكيرها بيوم المعاد، حتى لا تكون لهم حجة أو يقع منهم تعليل لكفرهم وفسقهم.

ومن خصال النبوة عندهم أيضا إجراء السنة في الشريعة، وإيضاح المنهاج في الملة، وتبيين الحلال من الحرام، وتفصيل الحدود والأحكام في أمور الدنيا جميعا، ثم التزهيد في الدنيا وذم الراغبين فيها. وغير ذلك من الخصال التي ورد ذكرها في القرآن، وكتب الأنبياء السابقين[1]. هذا الكلام عن خصائص النبوة يدعونا وبشدة إلى التعليق عليه.

أولاً: لم ترد المعجزة في كلامهم ضمن خصال النبوة أو خصائصها؛ مع أن المعجزة أمرٌ لازم لها؛ وهي بمثابة "صَدَقَ عَبْدِي فيما يُبَلّغ عَنّي"، وقد جرت للأنبياء معجزات كثيرة، مناسبة لعصورهم ولطبيعة دعواتهم؛ وقد أشار إخوان الصفا إلى معجزات عيسى عليه السلام، وغيره من الأنبياء، وإلى بعض معجزات النبي محمد ﷺ ، ولعلهم قد أدخلوا المعجزة ضمن أعمال السحر. وقد أوضحنا ما يؤيد ذلك في قرينة كلامنا معهم في طبيعة السحر ومدى تأثيره، وقد ذكرنا زعمهم بأن الأنبياء استعانوا على التأثير في الناس بالسحر، على أن موقف القرآن، والإسلام- بشكل عام، واضح في رفض السحر، ولا يقبل التأويل؛ فقد نفى القرآن أن يكون رسول الله ﷺ ساحراً أو أن القرآن نفسه سحر، كما ادعى الكفار:﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا

---

(١) الرسائل: ٣/ ٤٩٤– ٤٩٥.

سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[المدثر:١٨ :٣٠].

ومن المفيد أن نشير إلى كلام الإمام الغزالي هنا حول طبيعة المعجزة الذي يعقد فيه مقارنة، وينشئ علاقة بين المعجزة كمعطى إلهي، وبين العلوم التي هي من جنسها؛ وهي معطى إلهي عقلي كالطب والنجوم.(١)

ولم يَرِد في القرآن الكريم أن السحرةَ أفلحوا في تغيير طبائع الأشياء، أو أنّهم أفلحوا إلى النهاية في التأثير على الناس بل إنهم فقط خيّلوا لهم واحتالوا عليهم، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١٦-١١٨]، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه: ٦٩].

والسحر ما هو إلا طريق من طرق تأثير الشياطين على الإنسان، وقد علّمنا الله تعالى في القرآن أن السحر من عمل الشياطين وأعوانهم من الإنس: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢]. وعرّفنا الله تعالى كذلك كيف نَقِي أنفسَنا منه، وألا نعتقد في تأثيره في نفسه، ومن حيث إنه سحر.

ومن خصائص النبوة التي أهملوها، أو على الأقل أهملوا ذكرها تصريحاً، علم الغيب والإخبار به في حدود المشيئة الإلهية: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا

---

(١) المنقذ من الضلال – تحقيقنا ص ٢٧٢.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧]، ولم ينص إخوان الصفا كذلك على أن النبوة منحةٌ من الله لِمَن اصطفاهم وأعَدهم لها: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].

وأما قول إخوان الصفا إن "الأنبياء من الملائكة"، فقولٌ خاطئ؛ فقد فرق القرآن بين الملاك وبين الإنسان، أو النبي، وهذا محل إجماع المسلمين. فالله تعالى يقول على سبيل المثال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم: ١١].

وأما ما ورد في القرآن مِن إطلاق لفظ ملك على يوسف عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف: ٣١] فإنما هو وصف أطلقته النساء اللائي رَكَّزن على صورة يوسف التي أبْهَرَتْهُنّ، فقالوا هذا الكلام مبالغةً في الوصف، وليس على وجه الحقيقة. ولقد كان الكفار يسخرون من الأنبياء لتساويهم معهم من حيث مطلق الطبيعة البشرية، وكانوا يزعمون أن الله لو شاء أن يرسل رسلاً إلى الخلق لاختارهم من الملائكة، كما نقله القران عنهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وإذا أردنا أن نلتمس تفسيراً لكلام إخوان الصفا بشأن طبيعة الأنبياء، نقول إنهم ربما عنوا بقولهم "الأنبياء من الملائكة"، أي في العصمة والتميز بالوحي وبالطهارة والْمَعِيّة الدائمة مع الله عز وجل، لكنهم أخطأوا في إطلاق اللفظ دون حد يقيده.

ولقد أخطأ إخوانُ الصفا خطأً ذريعاً يلازمهم إثمه في كل رسائلهم تقريبا في قولهم: إن من خصال النبوة "تدوين الكتاب المنزل بالألفاظ الوجيزة وتبين قراءته في الفصاحة"؛ وذلك لأن الوحي المنزل، كالقرآن مثلاً، إنما جاء به جبريل عليه السلام عن الله تعالى بلفظه ومعناه، كما هو في اللوح المحفوظ، وليس لمحمد ﷺ أي دخل فيه غير

الحفظ والبلاغ؛ والآيات الناطقة بهذا كثيرة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾[النجم: ٣- ٤]، ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الحاقة: ٤٤:٤٨]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾[يوسف: ٢]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢: ١٩٥]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾[النساء: ٨٢]، ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٦- ١٧].

والاختلاف كما يكون في المعنى يكون في اللفظ؛ ثم إن قَصْر إخوان الصفا مهمة الأنبياء على مداواة النفوس وعلاجها من الأمراض النفسية غير صحيح على الإطلاق؛ فإن الأنبياء إنما جاءوا بطب النفوس والعقول، وجاءوا لإصلاح حال الفرد والجماعة والأمة من جميع النواحي؛ ولذلك فقد تميز الإسلام عن سائر الأديان بأنه نظام إلهي شامل يتعامل مع جوانب الحياة المتنوعة والمختلفة. وليس صحيحاً مِنْ ثَمَّ أن يقول إخوان الصفا بأن مهمة الأنبياء تنحصر في شئون الدنيا، وأنهم ينبغي أن يقتصروا على تذكير الناس بيوم المعاد، لكي يستعدوا له، فإن النبي ﷺ حث على العمل في الدنيا، وجعل العمل في الدنيا قيمةً وزاداً صالحاً يوصل إلى الآخرة، ومن أجل هذا جاء الإسلام بهذا النظام الشامل الذي يسع شئون الدنيا والدين معاً. والإسلام لم يذم أهل الدنيا لمجرد تحقير شأن الدنيا، وإنما ذم حرصهم وتكالبهم عليها فقط دون مراعاة جانب الآخرة الذي به تستقيم الدنيا أيضاً؛ والنبوة عل هذا التوجيه ليست أمرا أخرويا فحسب، كما يقول إخوان الصفا[1]؛ بل هي للدين والدنيا معاً.

وللإنصاف فإن إخوان الصفا قد عادوا فحَدّدُوا عبارتهم، وصَوَّبوا فكرتهم عن

---

(١) الرسائل ٣ / ٤٩٧

الإسلام كدين كامل وشامل، يقولون في صدد الكلام عن الإمامة أو الملك: "ثم اعلم أن الله تعالى قد جمع لنبيه محمد، عليه الصلاة والسلام والتحية، خصال الملك والنبوة جميعاً، كما جمعها لداود وسليمان، عليهما السلام، وكذلك جمع ليوسف الصديق، عليه السلام. وذلك أن النبي ﷺ أقام بمكة في أول مبعثه نحواً من اثنتي عشرة سنة يدعو الناس ويعلمهم معالم الدين، حتى استوفى خصال النبوة وأحكمها، ثم هاجر إلى المدينة؛ وأقام بها نحواً من عشر سنين في ترتيب أمر الأمة، وتحذير الأعداء، وجباية الخراج والعشر، ومصالحة الأعداء والمهادنة، وقبول الهدايا وحملها، والتزويج منهم وإليهم، حتى أمر المُلك. ثم اعلم أن الله تعالى لما أضاف نبوة الملك، لم يضفها إلا لرغبته في الدنيا وحرصه عليها، ولكن أراد الله تعالى أن يجمع لأمته الدين والدنيا جميعاً، وكان القصد الأول هو الدين، والملكُ عارضٌ لأسباب شتى: أحدها أنه لو كان الملك في غير أمته، لم يكن يؤمن أن يردّهم عن دينهم أو يسومهم سوء العذاب من كان مسلطاً عليهم، مثل ما كان يفعل فرعون ببني إسرائيل. والخصلة الأخرى ما قال أردشير: "أن الملك والدين أخوان توأمان". وخصلة أخرى هي أن الناس في طباعهم وجبلتهم لا يرغبون إلا في دين الملوك، ولا يرهبون إلا منهم، وبهذه الخصال وخصال أخرى يطول شرحها جمع الله الملك والنبوة لنبيه محمد، عليه الصلاة والسلام والتحية والرضوان. ولما أُشكلت هذه المسألة على اليهود والنصارى، ارتدوا وشكوا في نبوته، لما رأوا أن الملك والنبوة لمحمد، عليه السلام. فلما أنزل الله، عز وجل، قصة داود وسليمان ليُحاجّ بها اليهود والنصارى، إذ كانوا مقرين بنبوتهما، وقد جمع الله لهما من الملك والنبوة، ولم يكن قادحاً في نبوتهما، فهكذا كان حكم النبي محمد ﷺ فإن الملك لم يكن قادحاً في نبوته. واعلم يا أخي أن الله تعالى قد جمع لمحمد ﷺ الملك والنبوة، وأيده بروح منه، حتى إنه قام بواجب حقهما لما خصه الله به من الجبلة القوية، والقوة المتينة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤]، وقلَّ من يكون كذلك، لأن النبوة تتم بنيف وأربعين خصلة من فضائل البشرية، والملك يحتاج إلى شرائط أخر غيرها."[1]

وذكر إخوان الصفا خصال المُلك أو خصائصه على جهة الاختصار. فقالوا أول

---

(١) المصدر نفسه: ٣/ ٤٩٦- ٤٩٧

هذه الخصال أخذ البيعة، وترتيب أحوال الناس بحسب مراتبهم، وجباية الخراج وسائر متحصَّلات الدولة من المسلمين والكتابيين الذين ينعمون بحماية الدولة الإسلامية ويشاركون المسلمين العيش في الوطن الواحد، كما أن على الأمة أو الملِك حماية الدولة والمملكة وتأمين حدودها ضد أي عدوان خارجي.(١)

وتجدر الإشارة في هذه القرينة إلى أن الشيعة بكل فِرَقهم يزعمون أن الإمامة أصلٌ من أصول الدين، وهي عندهم أهم أركان الإيمان كلها، وإنها أشرف مسائل المسلمين، ويعتقد الشيعة بعصمة الإمام، كما يعتقدون في الإمام الغائب وينتظرون عودته؛ وقد رد الإمام ابن تيمية(٢) عليهم في كتاب "منهاج السنة"(٣)؛ كما تكلم ابن حزم في "الفِصَل"، والشهرستاني في "الملل والنحل" في رد مزاعم الرافضية، وجميع الفرق التي تجعل الإمامة أصل من أصول الدين وركن من أركان الإسلام التي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها، إلا أنه ليس من غرضنا التوسع في هذا الباب؛ وما أجملناه في هذا المبحث فيه غنية وكفاية.

الوحي والرؤيا:

يُعَرِّف إخوان الصفا الوحي بأنه "إنباء عن أمور غائبة عن الحواس تنقدح في نفس الإنسان من غير قصد ولا تكلف". والوحي هو الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن اللفظ والعبارة وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة من ذلك قوله تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝﴾[مريم: ١١] وأوحى إليهم أي رَمَزَ لهم أو أشار. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

---

(١) المصدر نفسه : ٣/ ٤٩٥.

(٢) أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ت: ٧٢٨هـ

(٣) الرسائل: ١ /٢٠ وما بعدها.

لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ [الأنعام:١٢١]، وذلك عن طريق الوسوسة لهم والإلقاء في نفوسهم.

والكلام الذي ينزله الله تعالى على أنبيائه أو يُلقي به إلى أوليائه يقال له وَحي. والوحي بهذا المعنى على أوجه، إما عن طريق رسول مُشاهَد تُرى ذاته ويُسمع كلامه كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في صورة معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى عليه السلام كلامَ الله لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١]، وإما بإلقاءٍ في الروع وإما بإلهامٍ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧] أي ألهمناها وحركناها لذلك، والوحي بمعنى التسخير والتوجيه الإلهي في قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] أي أوحينا إلى أنبيائهم ووجهناهم إليهم بالبلاغ ليهتدوا إلى فعل الخيرات؛ والخيرات هي كل ما ينفع الناس في الدين أو الدنيا أو هما معاً، وينفع الإنسان وغيره، بل وينفع الحيوان، بل والبيئة التي يعيش فيها الإنسان بشكل عام.(١)

ومما يتصل بالوحي، الرؤيا؛ وقد تكون الرؤيا مثل القناة يمر من خلالها الوحي إلى النبي كما في رؤيا إبراهيم عليه السلام؛ ورؤيا الأنبياء حق لذا هَمَّ إبراهيم بتنفيذ أمر الله تعالى بذبح ولده بمجرد أن استيقظ من نومه لأن رؤيا النبي كيقظته حقٌ بدليل أن الله تعالى قال له لَمّا عَلِم بصدق نيته واستعداده: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٥]، والرؤيا جزء من النبوة وهى من المبشرات.(٢)

يقول إخوان الصفا عن الأشرار والفُسَّاق الذين يُسمونهم بإخوان الشياطين: "إن

---

(١) الأصفهاني - مفردات ألفاظ القرآن ٨٥٨ - ٨٥٩

(٢) الرسائل ٤ / ٨٤ - ٨٩

اتّباع الشهوات والاستغراق في الملذات يُحَوِّل الإنسانَ إلى مَخلوق بَهيمي بحَيث يصير من شدة شَبَقِه حَيواناً في صورة إنسان، فهو شيطانٌ بالقوة، حتى إذا ما فارقَت نفسُه جسَدَه صار شيطاناً بالفعل؛ كما قال الله تعالى بشأن فاسق موسى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧٥: ١٧٧] فقد قيل إن هذا الرجل كان من خيار أصحاب موسى عليه السلام، ولكنه وقع في عشق امرأة وخاف على نفسه من الفضيحة فارتد عن الدين واتبع هواه وأخلد إلى الأرض وانقطعت صلته بالسماء.

يضيف إخوان الصفا إلى ذلك قولهم: "واعلم يا أخي أنك إذا تأملت وجدت في القرآن نحو ثلاثمائة وستين مثلاً ضرب الله بعضها في صفات المؤمن وأهل الخير وأمر الآخرة وثواب الأخيار، وبعضها في صفات الكفار وأنفس الأشرار وسوء منقلبها، ومبالغةً في ذمهم وتوبيخهم وسوء الثناء عليهم، فلا تجد مثلا أشد توبيخاً من هذه الصورة فإنه شبَّهه بالكلب في اتباع الشهوات فقال: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾[1] يعني من كان مثلهم في اتباع شهواته؛ ولا تجد أيضاً أشد اختصاراً في ترغيب نعيم الجنان من قوله : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾".[2]

وفى طريقة استقبال الوحي أو الإلهام ورؤية الملك، واستقبال الإنسان لوساوس الشيطان والفرق بينهما وتعليل ذلك، يقول إخوان الصفا: "إن كل إنسان يكون في أفعاله القبيحة وأخلاقه الرديئة وجهالاته المتراكمة بالبهائم أشد شبهاً، ولذلك

---

(١) [الأعراف: ١٧٧]

(٢) [النازعات: ٤٠ - ٤١]، الرسائل: ٤ / ١١٥.

تكون نفسه لوسواس الشيطان أسرع قبولاً، ولطاعة الهوى أسهل انقياداً كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝﴾[الأعراف: ٢٠١]

وفى الإجابة على السؤال كيف يرى الإنسان أشخاص الملائكة وليست بأجسام؟ أجابوا بقولهم: "كما يرى رسوم الأشياء في المرايا وصورها، وليست تلك الصور بأجسام".

وأجابوا كذلك عن السؤال: "كيف يُسْمَع كلامُهم وليسوا بحيوان ذي رئة ولا آلات جسدية ؟ قالوا: "كما نسمع الصدى".

ولا يفوتنا أن ننبه على أن إخوان الصفا جدّ واعين أنهم لم يقدموا تفسيراً نهائياً أو إجابة قاطعة عن كيفية رؤية الملائكة وسماع أصواتهم وإنما اكتفوا في ذلك بضرب الأمثلة لا غير؛ وذلك لأن معرفة حقيقة الملائكة مما يحتاج الإنسان فيه إلى قوًى أخرى وطاقاتٍ خاصة؛ كما فصّلوا فيه القول في رسالتهم "الحاس والمحسوس". وأيضاً لأن هذا الأمر عسير ولذلك فقد اختلف فيه العلماء لدقته وصعوبته على الفهم.(١)

وفي ختام هذا الموضوع نركز القول بأن إخوان الصفا قد تكلموا في البداية عن الإيمان والكفر وعلاقتهما بالعلم في إطار كلامهم عن العقائد الإسلامية، وقد حددوا سببين لتناولهم لهذا الموضوع الخاص بالإيمان والكفر، **الأول**: لأهمية الإيمان في حياة الناس، ومن حيث كونه هو أساس الدين وطريق النجاة، ولذلك فقد أثنى الله تعالى في القرآن على كثيرٍ من المؤمنين، ووعدهم على إيمانهم بالجنة، ونعى كثيراً في القرآن كذلك على الكافرينَ وتوعدهم بالنار الأبدية، والعذاب الأليم في الآخرة.

أما **السبب الثاني**: فإن كثيرا من أهل العلم لا يعرفون الفرق بين العلم والإيمان، حتى صار بعضهم يكفر بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً بغير علم ولا بيان، حيث إن كثيراً من المتكلمين يسمون الإيمان علما، ويقولون هو علم من طريق السمع(٢)، وما

---

(٣) الرسائل ٤ / ١١٩

(١) الرسائل ٤/ ٦١- ٦٣

يعلم بالقياس هو علم من طريق العقل[1]. وهذا التفريع غير صحيح؛ فالإيمان يأتي من طريق السمع ومن طريق العقل معاً.

والذين قالوا بأن الإيمان هو العلم أو المعرفة، وهو أحد أقوال أصحاب الحديث الذين قالوا إن المعرفة إيمان كامل وهو الأصل. وزعموا أن الجحود وإنكار القلب كفر ولم يعترفوا بشيء من الطاعات ما لم يوجد العلم بالجَنان (العقل) والإقرار باللسان. وممن قال بذلك أيضا الخوارج بجملتهم حيث اتفقوا على أن الإيمان بالله يتناول معرفة الله تعالى، ومعرفة كل ما نصَّب الله عليه دليلاً عقلياً أو نقلياً، ويتناول طاعة الله في جميع ما أمر به ونهى، صغيراً كان هذا الشيء أو كبيراً.

ويذكر ابن حزم الأندلسي أن أبا محرز الجهم بن صفوان وأبا الحسن الأشعري وأصحابهما يذهبون إلى أن الإيمان هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر الشخص ما يناقض الإيمان.[2] وقد تكلمنا بشيء من التفصيل عن الإيمان فيما سبق فليراجع في موضعه.

طبيعة السيد المسيح عليه السلام ونهايته على الأرض:

في هذا الموضع ننظر في كلام إخوان الصفا عن طبيعة السيد المسيح عليه السلام ونهايته على الأرض، حيث يظهر من كلامهم أنهم تناولوا دعوته إلى الله والكيفية التي كان يدعو بها، كما تكلموا عنه كنموذج للزهد والأخلاق الكريمة، وعن الجوانب اللاهوتية والعَقَدية المتعلقة بطبيعته عليه السلام.

وفى تدليل إخوان الصفا على بقاء النفس الإنسانية وصلاحها بعد مفارقة الجسد نجدهم يصرحون بموت المسيح على الصليب، وبالتالي ما ترتب عليه من عقائد لاهوتية، يقولون في الرسالة نفسها: "ومما يدل على أن الأنبياء عليهم السلام يرون ويعتقدون بقاء النفس وصلاحها بعد مفارقة الجسد، فعل المسيح عليه السلام، بناسوته

---

(١) الفصَل لابن حزم ١٣٧/٣ والتهانوي كشاف اصطلاحات الفنون ١٣٦/١

(٢) انظر الملطي الشافعي : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص ٣٢

ووصيته للحواريين بمثل ذلك"[1]

على أنهم عادوا فنقضوا هذا الكلام وتبنوا الموقف الإسلامي من طبيعة السيد المسيح، وقد أدرجوا فيه كذلك تخطئة الإمامية: "وأيضاً من الآراء الفاسدة، والاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها، رأي من يرى أن بارئه وإلهه روح القدس الذي قتلته اليهود وصلبت ناسوته، وذهب لاهوته لما رأى ما نزل بناسوته من العذاب، فتركه مخذولاً."[2]

ويمضى كاتب (أو كُتّاب) الرسائل في استعراض حياة المسيح عليه السلام في الدعوة بين اليهود "فقد كان اليهود يقرءون التوراة وكتب الأنبياء ولا يعملون بها، بل يعاملونها بحكم العادة والتقليد والرياء والنفاق، يحبون الدنيا ويجهلون الآخرة، ولا يؤمنون بالبعث، فدعاهم المسيح إلى الاهتمام بالآخرة، وبنظافة الداخل والخارج واستقامة السلوك، فلم يأبهوا بكلامه، ولم يبدوا رغبةً في الحياة الآخرة، التي رَغّبهم فيها وأظهر لهم جمالها وطهارتها وأبديتها وخلوها من الأمراض والمنغصات".

اتضح مما سبق أن لإخوان الصفا آراءً واعتقاداتٍ في شخص السيد المسيح وحياته على الأرض تخالف صريح القرآن وإجماع المسلمين، وسوف يتضح من هذا النص الذي سنثبته هنا أنهم ينقلون عن الأناجيل وأعمال الرسل دون تمحيص ودون اعتبار لموقف القرآن الواضح مما فيها؛ فهم يُصَرِّحون بإثبات صلب المسيح وبموته على الصليب لكفارة الذنب فداءًا عن البشرية، ثم بقيامه من القبر بعد ثلاثة أيام، وبعودته، وظهوره لبعض الحواريين بعد مرور أربعين يوماً من تاريخ دفنه، وصعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الرب. وهذه كلها معتقدات لا يقرها الإسلام، وهي ضد صريح قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[النساء: ١٥٧] فالصلب والقتل منفيان عن المسيح عليه السلام؛ والحكم في شأن نهايته على الأرض هو ما قاله الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) الرسائل: ٢٨/٤

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٥٢٣

كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[آل عمران: ٥٥].

ولكن القطع بكيفية رفع المسيح عليه السلام ونهايته على الأرض ليست محل إجماعٍ بين علماء المسلمين، بل محل اجتهادٍ منهم.(١)

ولأهمية موضوع الصلب والفداء والكفارة نرى أنه من الضروري إلقاء مزيدٍ من الضوء عليه حتى يتضح موقف إخوان الصفا منه بما لا يدع مجالاً للشك في خروجهم بشأنه عن صريح القرآن.

ينتقل إخوان الصفا من الكلام عن طبيعة دعوة السيد المسيح إلى الكلام عن الطريقة التي كان ينتهجها في دعوته، والنهاية التي انتهى إليها بسببها، إذ جاء في الرسائل: "وكان من سنة المسيح التنقل كل يوم من قرية إلى قرية من قرى فلسطين، ومن مدينة إلى مدينة من ديار بنى إسرائيل، يداوى الناس، ويعظهم ويذكرهم ويدعوهم إلى ملكوت السماء، ويرغبهم فيها، ويزهدهم في الدنيا، ويبين لهم غرورها وأمانيها، وهو مطلوب من ملك بني إسرائيل وغوغائهم. وبَيْنا هو في محفل من الناس، هجم عليه ليؤخذ، فتجنب من بين الناس، فلا يُقدر عليه، ولا يعرف له خبر، حتى يسمع بخبره من قرية أخرى، فيطلب هناك. وذلك دأبه ودأبهم ثلاثين شهراً. فلما أراد الله أن يتوفاه ويرفعه إليه، اجتمع معه حواريّوه في بيت المقدس في غرفة واحدة مع أصحابه وقال: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، وأنا أوصيكم بوصية قبل مفارقة ناسوتي، وآخذ عليكم عهداً وميثاقًا، فمن قبل وصيتي وأوفى بعهدي، كان معي غداً. ومن لم يقبل وصيتي، فلست منه في شيء، ولا هو مني في شيء. فقالوا له: ما هي؟ قال: اذهبوا إلى ملوك الأطراف وبلغوهم مني ما ألقيتُ إليكم، وادعوهم إلى ما دعوتكم إليه ولا تخافوهم ولا تهابوهم، فإني إذا فارقت ناسوتي، فإني واقف في الهواء عن يمنة عرش أبي وأبيكم، وأنا معكم حيث ما ذهبتم، ومؤيدكم بالنصر والتأييد بإذن أبي! اذهبوا إليهم، وادعوهم بالرفق، وداووهم، وأمروا بالمعروف، وانهوا

---

(١) انظر: المسيحية من وجهة نظر الإسلام. رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية للدكتور محمد أبو ليلة. باب الصلب وباب التثليث، وكتاب "القرآن والأناجيل" للمؤلف نفسه بالإنجليزية.

عن المنكر، ما لم تُقتلوا أو تصلبوا أو تنفوا من الأرض، فقالوا: ما تصديق ما تأمرنا؟ قال: أنا أول من يفعل ذلك. وخرج من الغد وظهر للناس، وجعل يدعوهم ويعظهم، حتى أُخذ وحمل إلى ملك بني إسرائيل، فأمر بصلبه، فصُلب ناسوته، وسُمّرت يداه على خشبتي الصليب وبقي مصلوباً من ضحوة النهار إلى العصر، وطلب الماء فسُقي الخل، وطعن بالحربة، ثم دفن مكان الخشبة، ووكّل بالقبر أربعون نفرًا، وهذا كله بحضرة أصحابه وحوارييه، فلما رأوا ذلك منه أيقنوا وعلموا أنه لم يأمرهم بشيء يخالفهم فيه، ثم اجتمعوا بعد ذلك بثلاثة أيام في الموضع الذي وعدهم أنه يتراءَى لهم فيه، فرأوا تلك العلامة التي كانت بينه وبينهم، وفشا الخبر في بني إسرائيل أن المسيح لم يُقتل، فنُبش القبر فلم يوجد الناسوت. فاختلف الأحزاب من بينهم، وكثر القيل والقال وقصته تطول. ثم إن أولئك الحواريين الذين قبلوا وصيته، تفرقوا في البلاد، وذهب كل واحد منهم حيث وُجّه: فواحدٌ ذهب إلى بلاد المغرب، وآخر إلى بلاد الحبشة، واثنان إلى بلاد رومية، واثنان إلى ملك أنطاكية، وواحد إلى بلاد الفرس، وواحد إلى بلاد الهند، واثنان أقاما في دير بني إسرائيل يدعون إلى رأي المسيح، حتى قُتل أكثرهم وظهرت دعوة المسيح في شرق الأرض وغربها بأفعال الحواريين بعدهم. فتهاونهم بأمر أجسادهم يدل على أنهم كانوا يرون ويعتقدون بقاء النفس وصلاح حالها بعد تلف الأجساد. ومن ذلك أفعال الرهبان، والذين هم خيار أصحابه وأتباعه، إن أحدهم يحبس جسده في صومعته سنين كثيرة، ويمتنع عن الطعام والشراب، واللذات، واللباس الناعم، وملاذ الدنيا وشهواتها. كل ذلك لشدة يقينهم ببقاء النفس وصلاح حالها بعد تلف الأجساد".(١)

وهذا الكلام نقله إخوان الصفا من الأناجيل ومن أعمال الرسل للوقا؛ وتعليقهم عليه يعني تسليمهم بما فيه. ولو أنهم اكتفوا بالنقل والإسناد وحملوا ذلك على اعتقاد القوم فحسب، لما وقعوا في المخالفة. وفي تأكيد خبر الصلب والفداء والكفارة نراهم يستشهدون بما جرى لأهل البيت من قتل وتشريد، وكيف أنهم صبروا على الأذى، وقدّموا أجسادهم فِداءً لمبادئهم وطمعاً في الحياة الأبقى والأرغد؛ ثم

(١) الرسائل ٤ / ٣٠- ٣٢.

يستشهدون كذلك بتضحية سقراط بجسده في سبيل الحياة الأفضل لمجرد الاستهانة بالحياة الدنيا واستحقار العيش فيها.

يقولون في رسالتهم التي بين أيدينا أيضاً: "ومما يدل على أن الفلاسفة الحكماء المتألهين كانوا يرون هذا الرأي ويعتقدونه تسليم سقراط جسده للتلف، وتناوله شربة السم اختياراً منه: وذلك أن هذا الرجل كان حكيماً من حكماء بلاد اليونان وفلاسفتها، وكان قد أظهر الزهد في الدنيا ونعيمها ولذاتها، ورغب في سرور عالم الأرواح وروحها وريحانها، ودعا الناس إليها ورغبهم فيها، وزهدهم في المقام في عالم الكون والفساد، فأجابه إلى ذلك جماعة من أولاد الملوك وكبار الناس، واجتمع حوله الأحداث وأولاد النعم يسمعون حكمته وغرائب نوادر كلامه، فحسده جماعة من مخالفيه ومن يريد الدنيا وزينتها، واتهموه بمحبة الصبيان، وقالوا إنه يتهاون بعبادة الأصنام ويأمرهم به. وسعوا به إلى الملك، وشهد عليه بالزور أحد عشر رجلاً بأنه واجب قتله، فحبس أشهراً يرون في قتله. فاجتمع عنده في الحبس نحو من سبعين فيلسوفاً، مخالفاً وموافقاً، يناظرون في رأيه وما يعتقدونه في أمر النفس وبقائها بعد مفارقة الجسد، وصلاح حالها، فحاجّهم كلهم وصحح رأيه في بقاء النفس وصلاح حالها بعد فراق الجسد، ولهذا قصة يطول شرحها في كتاب. فمما قيل له: إن كنت مظلوماً، فهل لك أن تخلص من القتل بفدية من مال أو بهرب؟ فقال: أخاف أن يقول لي الناموس غداً: لِم فررت من حكمي يا سقراط؟؟ فقالوا له: تقول: لأني كنت مظلوماً. فقال: أرأيتم إن قال لي الناموس: أرأيت أن ظلمك بالقضاة والعدول الأحد عشر الذين شهدوا عليك بالزور، فكان من الواجب أن تظلمني أنت وتفر من حكمي؟؟ فما أقول؟ فحاجّهم بهذا. وذلك أن القوم كان في حكم شريعتهم، إذا شهد العدول على واحدٍ من الناس بحكم ما، كان واجباً عليه أن ينقاد وإن كان مظلوماً، فمن لم ينقد كان ظالماً لحكم الناموس، يعني الشريعة.

وانقاد سقراط للقتل من أجل هذا، ثم قال: من تهاون بالناموس قتله الناموس. ولما تناول شربة السم ليشربها، بكى من حوله الحكماء والفلاسفة حزناً عليه. فقال لهم: لا تبكوا، فإني وإن كنت مفارقاً لكم إخواناً حكماء فضلاء فإني أذهب إلى

إخوان لنا حكماء فضلاء كرماء، وقد تقدمنا فلان وفلان، وعد جماعة من الفلاسفة الحكماء الذين كانوا قد ماتوا قبله. فقالوا: إنما نبكي على أنفسنا حين نفقد أباً حكيماً مثلك."[1]

قلنا في تعليقنا على النص الذي اقتبسناه آنفاً[2] إن إخوان الصفا يعترفون اعترافاً صريحاً بوقوع الصلب وبمقدماته وبما يترتب عليه من خطيئة أصليّةٍ، وفداءٍ وكفارةٍ، كما جاء في الأناجيل وأعمال الرسل، ثم استشهدوا بإبراهيم ويوسف عليهما السلام وبأهل البيت كيف أسلموا أجسادهم للبلاء وللقتل في كربلاء وبنزول أهل البيت على حكم يزيد.[3]

وفى موضع آخر أشاروا إلى قابيل وهابيل، وكيف انقاد هابيل للمقادير ورضى بقضاء الله وأسلم نفسه للقتل طائعاً: "ومثل ذلك أن رضي المسيح بقضاء الله وانقاد للمقادير وسلَّم ناسوته (جسمه) إلى اليهود طَيِّبةً به نفسه، راضيا بحكم الله الذي هو علمه السابق بالكائنات قبل كونها، إذ لا يكون شيء بخلاف ما علم. ومثل ما رضيت به السحرة بقضاء الله لما هددهم فرعون بالصلب فقالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾[4]. وذلك أن القوم قد علموا بأنه ليس له سلطان على نفوسهم إنما سلطانه على أجسادهم فقالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا﴾ فانقاد القوم للمقادير وسلموا أجسادهم إلى حكم فرعون طيِّبةً بها نفوسهم. ومثل ما رضي رسول الله ﷺ يوم أحد لما قُتل خيارُ أنصاره، وفضلاء المهاجرين، وكُسرت رايتُه، وجرى عليه من المقادير الفلكية ما جرى، قيل يا رسول الله، لو دعوت الله على المشركين بالهلاك لما فعلوا بك؟ فقال: رحم الله أخي نوحاً فإن غوغاء قومه ضربوه، وكان يقول:"اللهم لا تؤاخذ قومي فإنهم لا يعلمون". وأنا أقول: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون""[5]

---

(١) المصدر نفسه: ٣٤/٤ – ٣٥

(٢) المصدر نفسه : ٤ / ٣٠– ٣٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣/٤

(٤) [طه : ٧٢]

(٥) الرسائل: ٧٤/٤

فَهُم يُقِرّون هنا أيضا بوقوع الصلب ويذهبون مذهب النصارى في أن الذي مات على الصليب هو الناسوت لا اللاهوت، على أن إخوان الصفا يعودون فينقضون هذا الكلام عندما يقولون: "وأيضا من الآراء الفاسدة، والاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها رأى من يرى أن بارئه وإلهه روح القدس الذي قتلته اليهود، وصلبت ناسوته وذهب لاهوته لما رأى ما نزل بناسوته من العذاب لما رآه مخذولاً"، وقد ذكرنا ذلك آنفاً.

ويقول الإخوان في التأثير النفسي لهذا الاعتقاد على معتقديه: "واعلم يا أخي أنه من قدر على أن يحيي الجسم بعد موته ما عمله المسيح، فقد أتى بسحر عظيم لا تكاد النفوس أن تصدقه ولا العقول أن تحققه، وهو حق يقين وسحر مبين، ولكنها أجساد غير ناطقة، وأرواح منها خرجت ثم عادت إليها، وهي أصباغ مشرقة وألوان مونقة"[1] وهم بهذا يؤولون ما سبق أن قاله اليهود في حق المسيح عليه السلام من أنه يعمل الخوارق بقوة السحر.

ومن القصص والحكايات التي نسجها إخوان الصفا في تأكيد صحة اعتقادهم في صدق المنامات، وفى أن النفوس تعلم وتتلذذ بعيداً عن الجسد، تلك القصة التي تدور حول الكنيسة وما يجرى فيها من طقوس كنسية والتي يحس القارئ وهو يقرؤها وكأن مسيحياً هو الذي كتبها وليس كاتباً مسلماً: "ثم رأى، فيما يرى النائم، كأنه في بلاد الروم في كنيسة من كنائس النصارى، وهي مشتعلة بالقناديل، منقوشة بالتصاوير، مملوءة من الصلبان"[2]

وكدأب إخوان الصفا عقب كل كلام عن الأنبياء والحكماء أن يلحقوا أنفسهم به وأن يطلبوا من مدعويهم أن يصنعوا صنيعهم ليلحقوا بهم على سبيل المثال نجدهم يقولون: "فهل لك يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن تقتدي بهم وبسنتهم، وتسلك مسلكهم، وتقصد مقصدهم، وتبادر قبل الفوات في فكاك نفسك من أسر الطبيعة، وتنجيها من بحر الهيولي، وتخرجها من قعر الأجسام، وظلمة الأجساد،

---

(١) المصدر نفسه: ٤٢٥/٤

(٢) المصدر نفسه ٨٧/٤

ونيران الشهوات المحرقة، والغرور باللذات الجِرْمَانيّة (من الجرم ويعنون به البدن) في جوار الشيطان، وتعمل كما يعمل الناس النجباء بأن تصحب إخواناً لك نصحاء، وأصدقاء كرماء، محبين لك وادّين، مواظبين على نجاتك ونجاة نفوسهم، وأن ترغب في صحبتهم، وتسمع أقاويلهم، وتفهم كلامهم بحضورك في مجالسهم، وتنظر في كتبهم لتعرف اعتقادهم، وتتخلق بأخلاقهم، وتتعلم علومهم، وتسير بسيرتهم العادلة، وتعمل بسنتهم الزكية، وتتفقه في شريعتهم العقلية، لتحيا كحياتهم الملكية، وتعيش عيش السعداء مخلداً أبداً، وتتجنب صحبة إخوان الشياطين الذين لا يريدونك إلا لصلاح أمور دنياهم، وحياة أجسادهم، ودفع المضرة عنها،وهم يهلكون نفوسهم وهم لا يشعرون".[1]

وهنا وبلا مراعاة للسياق التاريخي يشير إخوان الصفا إلى النبي محمدﷺ ولكن باسمه أحمد، كما يشيرون إلى ليلة القدر والمعراج، وهم ربما رمزوا بليلة القدر إلى وقت ظهور إمامهم، وبالمعراج إلى طريقتهم في تأليف المستجلبة أو الأتباع.

جاء ذكر رسول الله ﷺ في هذا الموضع باسمه "أحمد"، وهو الاسم الذي بَشّر به عيسى عليه السلام قومه وبُشّر به كذلك في التوراة.

وهذه المعلومات قد ساقها إخوان الصفا، لا على سبيل التعليم فحسب، بل على سبيل الإشارات والرموز أيضاً؛ وهذه الرموز والإشارات تُخفِي وراءها معان لا تدرك إلا بتوقيفٍ منهم، وهم يختمون كلامهم في هذا الموضع بقولهم: "أو هل لك يا أخي أن لا ترقد من أول ليلة القدر، حتى ترى المعراج وتعاين طلوع الفجر، حيث أحمد المبعوث في مقامه المحمود، فتسأل حاجتك المقضية لا ممنوعاً ولا مفقوداً، وتكون من المقربين؟ وفقك الله، أيها الأخ البار الرحيم وجميع إخواننا لفهم هذه الإشارات والرموز وفتح قلبك وشرح صدرك وطهر نفسك ونور عقلك لتشاهد بعين البصيرة حقائق هذه الأسرار فلا تفزع من موت الجسد إذا فارقته وفيه حياة النفس، فتكون من أولياء الله الذين تمنوا الموت، لا من توهم منهم فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن

---

(١) المصدر نفسه: ٤/٣٣- ٣٤

زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾"[1]

إنهم يكررون ويقولون المرة بعد المرة بأن كلامهم يحمل رموزاً وإشارات، ويلحون على الأتباع أن يحاولوا معرفتها والوقوف على أسرارها؛ فهم بهذا يُشوقون قارئ الرسائل إلى المُضيّ قُدماً في قراءتها؛ ومن ناحية أخرى فإنهم بهذا يربطونه بهم، ويُحكِمون قبضتهم حوله. وهذه إحدى وسائل الجماعات السرية التي تدّعي أن المعرفة الكاملة تكمن في أيدي الأئمة، وأن على الراغبين فيها أن يثابروا من أجل تحصيلها.

السحر والعزائم والعين:

أفرد إخوان الصفا لهذا الموضوع رسالةً خاصة هي الرسالة الحادية عشرة من العلوم الناموسية والشرعية؛ وهى الرسالة الثانية والخمسون من مجموع الرسائل.[2]

وهم يعطون للسحر أهمية كبيرةً، ويعدونه أحد العلوم والمعارف المتفق عليها، والحكم المستعملة"[3]، وهو جزء من الحكمة وآخر علوم الحكمة لأنه يحتاج قبله إلى علوم تتقدمه"[4] - يعنون علم الكواكب وعلم الأفلاك والبروج. ويذكرون أنهم يحكون في هذه الرسالة ما سمعوه من العلماء وما اطلعوا عليه من كتب القدماء في السحر.

ويشكك إخوان الصفا من جهل أهل زمانهم بهذا العلم ومن عدم تصديقهم به؛ ويقولون إن في العالم نفوسًا خفية عن الحِسِّ، أفعالها ظاهرة، وذاتها خفية يُسَمَّوْن الروحانيون. والروحانيون عندهم هم أجناس الملائكة، وقبائل الجن، وأحزاب الشياطين، كما يعرفه أصحاب العلوم والسحر والطلسمات. ومعرفة علم أفعال النجوم وتأثيراتها فيما تحت فلك القمر، ومعرفة دلالاتها يعدونه من الحكمة الروحانية والتأييد الإلهي، والعناية الربانية، ويزعمون أن بطليموس صاحب

---

(١) [الجمعة: ٦]، الرسائل: ٩/٤

(٢) الرسائل: ٤ / ٢٨٣ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه ٤/ ٢٨٤.

(٤) المصدر نفسه: ٤/ ٢٨٤

المجسطى هو من وجهة نظرهم ابنٌ بِجدة هذا العلم.[1]

ثم إن العلماء الراسخون في العلم، الناظرون في العلوم الإلهية بتأييد الله وإلهامه لهم. والذين مكنهم الله تعالى من معرفة الأشياء قبل وقوعها على أساس هذا العلم. وقالوا إن هذه العلوم لا تصلح لكل أحد وليست تحصل جملةً، بل لا بد من الترقي في معرفتها.[2]

والكواكب عند إخوان الصفا هي ملائكة الله، وملوك سماواته خلقهم الله لعمارة عالمه وتدبير خلائقه وسياسة بريته، وهم خلفاء الله في أرضه، يسوسون عباده ويحفظون شرائع أنبيائه، بإنفاذ أحكامه على عباده لصلاحهم، وحفظ نظامهم على أحسن الحالات.

وهم يَعُدّون الكيمياء والطب وعلم النفس من علوم السحر، بالإضافة إلى علم السحر والطلسمات التي تُلْحِقُ الرعيةَ بالملوك، والملوكَ بالملائكة كما يزعمون؛ فإخوان الصفا يخلطون، كما هو ظاهر، بين العلوم التطبيقية وبين السحر، وفى هذا من الخطأ والخطر ما فيه.

وهم للأسف يزعمون أن كل شيء يقع في الدنيا سحر وعزيمة، وهو من تدبير النجوم وفعل الفلك.[3]، وما أدرانا هل على مذهبهم الفاسد هذا أن تكون النبوة سحر، والاعتقاد سحر، والعبادات سحر أيضًا، ولم لا يكون الكون كله من وهم السحرة وتخييل السحرة؛ وهذه هي عين السفسطة.

ويزعم إخوان الصفا أن الأنبياء أثروا على الناس بما أسموه "السحر العقلي"، و"الأمر الإلهي"، وأن الفلاسفة أثروا عليهم بالسحر النفساني الناتج عن فعل الطبيعة نفسها.

يقولون: "واعلم يا أخي أنه من قدر على أن يحيي الجسم بعد موته مثل ما عمله المسيح، فقد أتى بسحر عظيم لا تكاد النفوس أن تصدقه، ولا العقول أن تحققه، وهو

---

(١) المصدر نفسه: ٤/ ٢٨٥- ٢٨٦

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٨٦- ٢٨٧

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٤٣٠ .

حق يقين وسحر مبين، ولكنها أجساد غير ناطقة، وأرواح منها خرجت ثم عادت إليها، وهي أصباغ مشرقة وألوان مونقة."[١]

وهم يقولون بصراحة تحت فصل "في معرفة أرباب الساعات": "إن الكواكب السبعة هي أرباب الأيام السبعة، فرب يوم الأحد الشمس، ورب يوم الاثنين القمر، ورب يوم الثلاثاء المريخ، ورب يوم الأربعاء عطارد، ورب الخميس المشتري، ورب يوم الجمعة الزهرة، ورب السبت زحل".[٢]

ثم يضيفون: "واعلم أن لكل طالع رباً، وقد يبقى الطالع ساعتين حتى يخرج، وقد يجوز أن يسأل في تلك الساعتين عن مسائل كثيرة، فإن كان صاحب الطالع هو دليل تلك المسائل كلها، كانت تكون على أحد أمرين: إما مصلحة كلها وإما رديئة كلها، وليس الأمر كذلك. وقد يكون القمر متصلاً يومه كله أو ساعاتٍ من النهار بكوكب ما، والمسائل تختلف، منها ما يكون ومنها ما لا يكون بجودة النظر في الأصول."[٣]

ويزعم إخوان الصفا أن المسيح وإبراهيم وموسى (عليهم السلام) عملوا ما عملوا من معجزاتٍ بالسحر، إذ يقولون: "واعلم يا أخي أنه من قدر عل أن يحيي الجسم بعد موته مثل ما عمله المسيح، فقد أتى بسحر عظيم لا تكاد النفوس أن تصدقه، ولا العقول أن تحققه، وهو حق يقين وسحر مبين، ولكنها أجساد غير ناطقة، وأرواح منها خرجت ثم عادت إليها، وهي أصباغ مشرقة وألوان مونقة."[٤]

يواصل إخوان الصفا كلامهم قائلين: "واعلم يا أخي أن هذا الصنف من السحر يفسد العقول ويتلف النفوس إذا عطفت إليه وأقبلت عليه، وينبغي لإخواننا، أيدهم الله، أن لا يلتفتوا إلى هذا الفن من جهة القياس وقراءة الكتب والتجربة والاعتماد على من قال ووصف وقال رأيتُ، وإنما المراد من ذلك اتباع المعلم الواصل والحكيم الفاضل المانِّ على من يجب أن يَمن عليه بذلك، إذا كان ممن ينبغي أن يعلم له

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٤٢٥ – ٤٢٦، انظر رسالتهم في السحر والسحرة ثم انظر كلامهم في (٤ / ٣١٧-٣١٨)، والذي ينقضون به كلامهم الذي قالوه في موضع آخر .

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٣٤٤، ٣٨٦، ٣٨٧.

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٣٥٤

(٤) المصدر نفسه: ٤ / ٤٢٥ – ٤٢٦ .

السحر الحلال، ويعرف كيف يحيي الله الموتى كما قال إبراهيم: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن - يعني بالصفة - قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي - بالنظر - قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ - يعني أربعة أزواج طائرة - فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا - يعني أجساداً ثابتة جزءاً كما ينبغي أن يُجعل عليه - ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ - بالماء المخلل - يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[1] وهذا مقتضى هذه الآيات عل ما تأوله أصحاب هذه الصناعة. وبهذا السحر عمل قارون وصرفه في غير حله وخالف موسى في فعله، وتعدى ما رسمه له فحيل بينه وبينه، وخسف به وبداره وابتلعته الأرض وما كان معه. وقلّ من يستحق تعليم هذا السحر في العالم، وإنما أردنا بما ذكرناه ونذكره تلقيح عقول إخواننا، أيدهم الله، بالمعارف، وتحريضهم على النظر في كل العلوم، والمعرفة بمبادئ الصنائع وكيفياتها، ليكونوا علماء حكماء، ويفارقوا عالم الجهل وصفاته، ويتخلصوا من أهله وآفاته، ويرتقوا إلى عالم العقل وخيراته، وينالوا درجة العلم وبركاته، "وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ"[2]؛ والموفق لذلك قليل، وقليل ما هم."[3]

فالسحر كما هو واضح عند إخوان الصفا يمكن أن يقلب الأعيان ويحيل الطبائع، بل إنه يمكن للساحر أن يحيي الموتى؛ وتعلم السحر كذلك عندهم ممكن وحلالٌ، وهو بناءً على مذهبهم له تأثير العلوم التطبيقية في العناصر، يقولون: "فإذا كان ذلك كذلك، فيجب على من يريد الابتداء بمثل ما ذكرناه أولاً من عمل السحر الحلال: الزجر والفال والرقى والعزائم، وعمل الخواتيم، وربط الروحانيات، ونصب الطلسمات، ووضع العلامات، ودفن الذخائر واستخراجها، وجميع ما أحب عمله من حل وعقد وأعمال نِيرَنْجات (جمع النيرَنْج، وهو أخذ كالسحر وليس به، يغير به صاحبه حقائق الأشياء في نظر الرائي، ومرجعه السرعة وخفة اليد) وقلب الأعيان،

(١) [البقرة: ٢٦٠]، ونص الآية كاملة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(٢) [يوسف: ١٠٣]

(٢) الرسائل: ٤ / ٤٢٥ –٤٢٦.

وتحويل الكيان إلى كيان ...الخ"[1]

وقد اعترض معارضوهم عليهم، أو هكذا صوروا المسألة قائلين: "الأنبياء ما وقفوا على هذا العلم (أي النيرنجات) لأحوال: أحدها: أنه ضرب من الحيلة والمكر فلم يبعثوا بذلك، وثانيها: أنهم لو فعلوا ذلك لكان إجابة الناس إلى الخديعة لا إلى العلم الذي به نجاة أنفسهم. وكان يفوتهم الغرض الذي جاءوا فيه الذي هو نجاة الأنفس، لأن الأنفس ما كانت تصفو بما يكون فيه خديعة ومكر، إذا كانت تتخلص من عالم الكون والفساد، ولأن هذا العلم فوائده مختصة بالعلم الأرضي، والأنبياء، عليهم السلام، فهم دعاة العالم العلوي الذي هو أعلى من عالم الأفلاك فلذلك لم يستعملوه أيضاً."[2]

ويستشهد إخوان الصفا على صحة السحر وإمكان تأثيره بقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢]، وإذن فالسحر يُتلى ويُعلم، ويعني هذا أنه شيء موجود بالفعل.

ويَعُد إخوان الصفا من السحر الحلال الزجر والفأل والرُّقَى والعزائم وعمل الخواتيم وربط روحانيات ونصب الطلسمات وأعمال نِيرنْجات "وهو ضرب من السحر يعتمد على خفة اليد وسرعة الحركة"، وقلب الأعيان وتحويل الكيان إلى كيان آخر مخالف له في الجوهر والهيئة؛ وكل هذه الأشياء محرمة في الإسلام. عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا يا رسول الله: "وما هن؟"، قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات

---

(١) المصدر نفسه: ٤/ ٤٢٧

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٤٦٠- ٤٦١ .

المؤمنات". رواه البخاري ومسلم وغيرها. وروى أبو داوود وابن ماجة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من اقتبس من علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد" أي من تعلم أن للنجوم تأثير في العالم السفلي، أو اعتقد أن لها دخلاً في علم الغيب فقد أثم؛ وجملة "زاد ما زاد" استثنائية، وتعني أنه كلما زاد الإنسان من علم النجوم على هذا النحو المحرم زاد إثمه.

وهذا غير علم النجوم الذي يعرف به الطقس، واتجاه الرياح وهبوبها، وسقوط الأمطار، وتحديد الجهات، وغير ذلك؛ فإن هذا من الواجب معرفته، لا يقع في نطاق العلوم التي يحرم الاشتغال بها.[1]

الخير والشر:

الخير والشر من المسائل الأمهات، وهى محل خلافٍ بين العلماء ؛ وقد قسَّمها إخوان الصفا إلى أربعة أنواع: ما يُنسب إلى سعود الفلك ونُجومه، وقالوا إن ما يُنسب إلى الفلك إنما هو بعناية الله تعالى وقصده بلا شك، وليس هو بأي حال من الأحوال من فعل ذات الفلك؛ وأما ما يُنسب إليها من شر فهو من عوارض الخلق، وليس بالقصد؛ وقد ضربوا على ذلك مثلا من إشراق الشمس، وما يترتب على طلوعها من إضاءة وحرارة، أو على مغيبها من رطوبة وظلمة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾[القصص: ٧١]، وقوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[القصص: ٧٣].

أما ما يَحدث من شرور في الكون للإنسان أو للحيوان، من زلازل وبراكين، وبرودة شديدة مؤذية، وغير ذلك، فليس ذلك بالقصد الأول؛ يَعْنُون أن هذه الشرور وقعت عرضاً تبعاً للخلق وطبيعة الخلق، بعبارة أخرى أن الله لا يريد الشر، ولم يخلقه لذاته، ولكنه ينبغي أن يكون واضحا أن كل شيء يقع بإرادة الله تعالى وحكمه وعلى مقتضى مشيئته وحكمته، فإن من قواعد الإيمان، الإيمان بالقدر خيره و شره،

---

(١) انظر الجامع الصغير ١ / ٣١، وهامش الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٣٧– ٣٨

والله تعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

ويقول إخوان الصفا: "وأما الخيرات التي تُنسب إلى الأمور الطبيعية فهي كون الحيوان والنبات والمعادن، والأسباب المغيبة على النشوء المبلغة إلى أتم حالاتها وأكمل نهاياتها، فهي كلها بقصد من الله تعالى وعناية من تفضله وإنعامه، وأما الشرور التي مع الفساد والبِلَى الذي يلحقها بعد الكون والفساد، والأسباب التي تعوقها من البلوغ إلى التمام والكمال، فهي عارض لا بالقصد الأول ولكن بالقصد الثاني".[1]

والقصد الأول عند الحكماء يعنى أن الفعل حادث من قبل الباري- تعالى- وذلك مثل الإيجاد والإبداع والاختراع والتمام والكمال والبلوغ وما شاكل ذلك من الأوصاف. ويعنون بالقصد الثاني كل ما كان من قبل نقص الهيولي، إذ لم يجئ منها إلا هذا، ولم يقبل إلا هذا، وما شاكل ذلك من الأوصاف[2]؛ يعنون أن الشر ناتج عن الطبيعة التي عليها الكون من الفساد والنقص وسائر لوازم الحدوث، لكننا ينبغي ألا نسند حدوث شيء في الكون إلى غير الله تعالى، والسؤال في الخير والشر ينبغي أن يبحث في نطاق الحكمة الإلهية، من وراء الفعل، وكما ينبغي وضع الشيء في الإطار الكلي للخلق وللعناية من وراء الخلق.

والنوع الثاني من أنواع الخير والشر: ذلك الذي ينسب إلى الأمور الطبيعية من الكون والفساد وما يلحق الحيوانات من الآلام والأوجاع. وما قلناه عند ذكر النوع الأول هو هو الذي نقول به عن هذا النوع.

والنوع الثالث من هذه الأنواع لا ينسب إلى ما في جبلة (طبيعة) الحيوانات من التآلف والتنافر والمودة والتباغض، وما في طباعها من التنازع والتغالب.

والنوع الرابع والأخير هو ما ينسب إلى ما يجرى على النفوس الخاصة للأمر

---

(١) المصدر نفسه: ٣/ ٤٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٤٧٦.

والنهى من أحكام السعادة والنحس في الدنيا والآخرة.(1)

ويختم إخوان الصفا كلامهم هنا عن الخير والشر بذكر هذه العلة التي تلحق بالعلل الأخرى التي تسبب ظهور الشر في العالم يقولون: "إنه لما كانت هذه الكائنات يبتدئ كونها من أنقص الوجود وأضعف القوى مترقيةً إلى أتم الحالات، وأكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشوء والنمو، ومُبلِغه إلى أكمل غاياتها بعناية من الله تعالى، سميت تلك الأمهات خيراتٌ، وكذلك كل سبب عارَض بلوغها عن ذلك يُسمى شرّاً، وهي عارضة لا بالقصد الأول، والمثال في ذلك ما تقدم ذكره من أمر الشمس والمطر".(2)

ويُفَسّر إخوان الصفا وقوع الشر بأنواعه في العالم بأنه يقع على القصد الثاني، ولحكمة، فإن ألم الجوع والعطش يظهر ويشتد عند حاجة الأجساد إلى الغذاء والري، وما ذلك إلا لأن الأجساد مركبة على طلب الغذاء، والتقوّي بالمادة لحاجة بقاء الأجسام إليها، وهذه الآلام هي التي تبعث النفوس وتستحثها على طلبها، والاجتهاد في تحصيلها، وإلا لَيَبست الأجساد وماتت، أو ذابت واضمحلت؛ وهذه الآلام إذن ضرورية ونافعة وضامنة لبقاء نوع الإنسان والحيوان، وقد جعل الله تعالى أيضاً للنفوس لذة وشهوة عند تناول الغذاء؛ أما الشهوة فلأن لا تتناول من الغذاء ما لا يصلح لها، وأما اللذة فلأن تأكل وتشرب ما دامت الطبيعة محتاجة إلى ذلك، وإذا اكتفت زالت اللذة. فهذه كلها بقصد من الله الواحد القهار. ومن أجل النقص الذي في الهيولي (الجسم) كيما تتم وتكمل.

وأما الآلام التي تعرض للإنسان أو الحيوان سواءً بفعل خارجي كالضرب أو الرضخ بالحجارة أو اللذع بالنار، أم من داخله كأي نوع من أنواع المرض يلم به ويجهده، فإن ذلك واقع لحكمة أيضاً، وهي حث الإنسان على حفظ نفسه، وحماية جسده، ووقايته من الآلام والاعتداءات، إذ كانت الأجساد لا حيلة لها في جر منفعة ولا دفع مضرة عنها؛ ولهذا السبب يفزع الإنسان مما يهدده، ويطلب الأمان بالفرار أو

---

(1) المصدر نفسه: ٣/ ٧٤.

(2) المصدر نفسه: ٣ / ٤٧٦– ٤٧٩

الهرب، أو يقابلها بالقوة والجلد والمجاهدة أو بالحيلة والمداراة. وقد مرَّ بنا رد الشيخ الطوسى على الثنوية والمجوس في دعواهم أن الآلام كلها قبيحة، وبالتالي لا يجوز إيقاعها من الله تعالى، وقوله في الرد عليهم: إن القديم تعالى لا يفعل ألماً لا في المكلفين ولا في غيرهم في دار التكليف إلا لغرض يخرجه عن كونه ظلماً أو لعوض يخرجه عن كونه عبثاً.[١]

أمّا ما هو في جبلة الحيوانات المختلفة من الخيرات والأخلاق الصالحة كالإلف والمحبة؛ والشرور التي هي العداوة والغلبة والقهر فهي بالقصد الثاني كذلك، وذلك لأن الله لما خلق المخلوقين مختلفين في الصور والأشكال والطباع والميول والأفعال اقتضت حكمته تعالى أن يجعل بين بعضها البعض أُلْفَة ومحبة ومودة لكيما يكون ذلك سبباً ومحركاً لاجتماعها واتفاقها وتعاونها لما في ذلك من صلاح الكل والنفع العام.

والشيء نفسه يقال فيما بينها وبين بعضها من نفور وعداوة على الجانب الآخر حتى يكون ذلك سبباً لتباعدها وتفرقها لما في ذلك أيضاً من صلاح الكل والنفع العام. مثال ذلك تسخير بعض الحيوانات للإنسان وانقيادها له كالبقر والغنم والخيل والبغال والحمير والجمال والكلاب وغير ذلك لما في ذلك من عون له على عمارة الأرض وإصلاح حياته . ومثال نفور بعض الحيوانات من الإنسان وتباعدها عنه مثل السباع والحيات وذلك لأن صلاحه وأمنه في تباعدها؛ وعلى هذا تقاس علاقات سائر الحيوانات بعضها بالبعض الآخر، نقول: وفى كل شيء خلَقه تعالى حكمة ومصلحة ظاهرة أو خفية؛ وما الشر إلا ليتم الابتلاء، وتثبت الحُجة على الإنسان، وقد تكون بعض الشرور لتعميق الإحساس بالخير وللتذكير بالله تعالى. وقد تكون الآلام بمثابة المنبهات والمثيرات لكي يحافظ المخلوق على نفسه كما في حالة الجوع والعطش والمرض، فإنه بألم الجوع والعطش يندفع الإنسان للبحث عن الطعام والشراب الذي يحفظ عليه نفسه، وبالمرض يُستحث الإنسان على طلب الدواء والشفاء، فيسترد عافيته ويعاود نشاطه وهكذا وهكـذا....

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٤٧٩

المبحث السابع

مصادر إخوان الصفا

لم يبدأ إخوان الصفا من فراغ؛ بل إنهم وجدوا أمامهم تراثاً علمياً ثرياً يشتمل على علوم الإسلام، وعلى علوم الأوائل، وعلوم أهل الملل الأخرى، فأخذوا من كلٍّ هذه المعارف والثقافات والفلسفات ما ساعدهم على تشكيل مذهبهم، ورسم خطتهم، وعلى الوصول إلى أهدافهم. ففي عصر الدولة الأموية نضجت علوم العربية، ونشطت أعمال الجمع والتصنيف، وعلى عهد الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز كانت هناك عنايةٌ فائقة بأنواع معينة من العلوم، كعلم الطب والكيمياء، فقد كان ابن الحبر طبيباً ماهراً، وكان الخليفة عمر يصله، ويبعث إليه بالمال؛ وخالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وكان بصيراً بالطب والكيمياء.[1]

وهم يذكرون ذلك بأنفسهم في الرسائل إذ يقولون: "واعلم أن هذا الأمر الذى ندبنا إليه إخواننا وحثتنا عليه أصدقاؤنا ليس هو برأي مستحدث، ولا مذهب محدث، بل هو رأي قديم قد سبق إليه الحكماء والفلاسفة والفضلاء، وهو طريق سلكه الأنبياء، عليهم السلام، ومذهبٌ مضى عليه خلفاء الأنبياء والأئمة المهديون، وبه كان يحكم النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله، وهي ملة أبينا إبراهيم، وبه سمانا المسلمين من قبل. وفي هذا القرآن وهو الاجتماع على رأي واحدٍ بترك الاختلاف وموافقة النفوس وتأليف القلوب، والخطاب بصدق الأقاويل، والتصديق في الضمائر، وأن لا يكذب بعضها بعضاً، ولا يخدع ولا ينخدع، وينصح ولا يخون، ويثق ولا يتهم، ويتودد ولا يتحاسد، ويتحاب ولا يتباغض، ويوافق ولا يخالف، ويتفق ولا يختلف، ويتعاضد ولا يتخاذل، ويتناصر ولا يتقاعد، ويتعاون عل صلاح الدين، ويكونوا كرجل واحد ونفس واحدةٍ اقتداءً بسُنَّة الشريعة، كما قال النبي ﷺ: "**المؤمنون كرجل واحد ونفس واحدة تتكافأ دماؤهم وأموالهم وهم يدٌ على من سواهم**"[2] وكما أوصانا الله تعالى، وقال: ﴿تَعَاوَنُوا عَلَى

---

(١) صاعد. طبقات ص ٦٣ .

(٢) انفرد به ابن ماجة في سننه في كتاب الديات بلفظ "المسلمون تتكافأ دماؤهم"

﴿ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[1] وقال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2] وقال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[3]"[4].

وبقيام الدولة العباسية انطلق المسلمون، وبالأخص في أيام الخليفة الفقيه الفيلسوف أبي جعفر المنصور (عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن عباس) نحو تقييد العلوم، حيث بدأ الإقبال على تعميق العلوم العربية واستحداث فروع جديدة منها أو ترجمتها؛ وعندما آلت الخلافة إلى عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، وهو الخليفة السابع من البيت العباسي بلغت العناية بالعلوم والمعارف ذروتها، فقد أقبل هذا الخليفة على طلب العلم من مصادره واستخرجه من معادنه بِهِمّة وشَغَف، وإنفاق للمال كادَ يصلُ إلى حد السرف كما لاحظ بعضُ معاصريه؛ ولا سَرَف في الخير، والعِلم والبحث العلمي هما خيرُ ما تُنفِق فيه الدولُ، كما أنه عنوان تقدمها ورقيها، وما تخلف المسلمون إلا عندما توقفوا عن الإنفاق على العلوم واالبحوث.

راسل الحليفة المأمونُ ملوكَ الروم وأتحفهم بالهدايا العظيمة، وسألَهم أن يبعثوا إليه بما عندهم من كتب الفلاسفة، فاستجاب الملوك لطلبه، فبعثوا إليه من كتب أفلاطون، وأرسطاطاليس، وأبوقراط، وجالينوس، وأوقليدس، وبطليموس، وغيرهم من الفلاسفة فاختار لها مهرةَ التراجمة، وكلّفهم بإحكام ترجمتها؛ فتُرجِمت على الإتقان، ثم حض الناس على قراءتها ورغّبهم في تعليمهم، وتأسست دار الحكمة للترجمة والنسخ، وأقبل المسلمون على هذه العلوم، ولم يعادوها أو يعادوا العلماء أو المتعلمين لها.

ويذكر ابن النديم في الفهرست[5] أن المأمون رأى في منامه أرسطاطاليس وأنه سأله بعض الأسئلة، فأجابه عليها، ثم نصحه بعض النصائح التي كان يذكرها، ثم

---

(١) [المائدة: ٢]

(٢) [الأنفال: ٤٦]

(٣) [آل عمران: ١٠٣]

(٤) الرسائل: ٤/ ١٢٦ – ١٢٧ .

(٥) ص ٣٣٩

قال له: "وعليك بالتوحيد"، يقول بن النديم: "فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب، التي استوعبوها وتمثلوها بعد أن غربلوها ونقوها ونقحوها، وأضافوا إليها، ونموها، وطوروا منها.

ومما ينبغي أن يُعرف أن العرب لو لم يكن عندهم استعدادات وهبية وكسبية لما وجدت هذه العلوم الوافدة لديهم قبولاً منهم، ولما استطاعوا كذلك أن يفهموها ويستوعبوها وينموها ويطوروها ويهجنوها، ثم ينقلونها إلى الغير.

تنافس أولو النباهة فى العلوم لينالوا حظوة الخليفة، وينالوا شرف صحبته، ويفوزوا بعطاياه السَّخِيَّة التي كان يبذلها للعلماء المبدعين، حيث كان يقربهم ويخلو بهم ويأنس إلى مناظرتهم، ويسعد بمذاكرتهم. وقد كان هذا هو حال الخليفة مع سائر العلماء والفقهاء والْمُحَدِّثِين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار، والمعرفة بالأشعار؛ لذلك فقد تبارى العلماء في الابتكار والتصنيف في كل مجالات المعرفة، في الفلسفة، وفى سائر فروع العلوم الإسلامية، بحيث تحولت الدولة العباسية إلى دولة علمٍ وأدبٍ، "حتى كادت الدولة العباسية تضاهى الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها"، ثم بدأت الدولة تنحدر سياسياً، وتختل إدارياً مع تمام الثلاثمائة الهجرية.[1] من علماء القرن الرابع ابن سينا (ت: ٤٢٨ هـ)، والبيروني وهو معاصر لابن سينا وكان بينهما مراسلات.[2]

تجمع رسائلُ إخوان الصفا بين دفتيها شتّى أنواع العلوم وصنوف المعارف التى كانت سائدةً على عصر مؤلفيها، وقد اعتمد إخوان الصفا في كتابة رسائلهم على مصادر كثيرة، أهمها: القرآن، والسنة، وأقوال الصحابة، وحكماء المسلمين، وأقوال أئمتهم ودعاتهم، وعلى التراث الإسماعيلي بشكل عام. والكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعياتُ والكتب المنزلة التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة، والكتب الطبيعية ككتب الفلك والطبيعة والمعادن والكيمياء... الخ[3]، ولكنه مما يلاحظ أن شواهد كُتّاب الرسائل التي اقتبسوها من كتب اليهود والنصارى

---

(١) صاعد طبقات ٦٣، ٦٤ .

(٢) عيون الأخبار ٣/١٣ ، ١٩، ٢٠ .

(٣) انظر الرسائل ٤/ ٤٢.

والنصارى قليلةٌ جداً.

فإخوان الصفا يقتبسون من التوراة ومن كتب اليهود الأخرى، ومن الأناجيل وكتب التراتيل النصرانية؛ يقولون على سبيل المثال: "وأما الجنس الآخر من الروحانيين المسمين في مواضع كثيرة من الشياطين والجن وسائر أجناس أرواح السوء، فالقرآن مملوء بذكرهم أيضاً، وكتب النصارى خاصة وما يتلونه في بِيَعهم يتكرر فيه ذكر الشياطين وأفعالهم مع المسيح، وفي الإنجيل ذكرهم في عدة مواضع، فاقرأ الإنجيل أيها الأخ، أيدك الله، وكتاب الرسائل " قولوا من" فإنك ترى فيها من هذا الفن سبباً كثيراً، لولا خوف الإطالة لذكرنا لك منها، فنَزيدك معرفة بصحة ما قلنا من وجود الروحانيين وأفعالهم في هذا العالم".[1] ولا يفوتنا أن ننبه على أ، إخوان الصفا كانوا يدعون أعضاء جماعتهم لقراءة الإنجيل.

كما يلاحظ أن إخوان الصفا ينقلون كثيراً من أقوال فلاسفة اليونان ونظرياتهم ويستشهدون كثيراً بأقوال سقراط الحكيم وبمواقفه[2]، ويكثرون من الإشارة إلى أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث وإقليدس، لا سيما في كلامهم في الفلسفة والمنطق وعلم الطبيعة والعدد.[3]

ومن مصادرهم أيضاً الشعر والقصة الوعظية، والقصة التي تجرى على ألسنة الحيوانات مثل كليله ودمنة[4]؛ فهم يستشهدون بقصيدة وعظية مضمنة بعض فقراتٍ من القرآن، وتشتمل على مواعظ خلقية، وهى قصيدة طويلة، لم يشيروا إلى مصدرها، ونحن بدورنا لم نستطع أن ننسب هذه القصيدة التي اعتبروها سراً لا ينبغي لأحد من الإخوان أن يجيب أحداً إذا سُئِل عن المسائل التي تتضمنها، اللهم إلا لمن هذب نفسه، وأصلح أخلاقه؛ لأن من صدأت نفسُه وساءت أخلاقه يمتنع عليه فهمها.[5]

---

(١) المصدر نفسه: ٤/ ٢٤٤- ٢٤٥.

(٢) المصدر نفسه : ٤/ ٧٣- ٧٤

(٣) المصدر نفسه : ٩٤/٣ ، و انظر على سبيل المثال ١ /١ ، ٣٤٦ ، ٤٢٧

(٤) المصدر نفسه : ٤ /١٣٩، ١٤٤

(٥) المصدر نفسه: ٤ / ١٣٣، ١٤٤

الخاتمة

إخوان الصفا جماعة باطنية سرية ذات منطلقات وأهداف سياسية ، اعتنت بمزج الفلسفة بالدين وأعْلت من قيمة الفكر الفلسفي والسلوك العلمي والعملي.

تكونت هذه الجماعة في بغداد وربما في أماكن أخري في العراق أو خارجها لم يُكشف عنها بعد وترجع نشأة إخوان الصفا فيما تتفق علية الآراء والاجتهادات بين الباحثين إلي القرن الثالث أو الرابع الهجري- التاسع أو العاشر الميلادي، وهو العصر الذي اتسم بالاضطرابات السياسية العنيفة وبالحركة العلمية الواسعة والمتنوعة .

ولا تزال هوية هذه الجماعة غامضة حتى اليوم إذ لا تتوفر لدينا أية معلومات تدل علي مؤسسها أو مؤسسيها من هو أو من هم ؟ وإلى أي مذهب كانوا ينتمون؟ وهل كان من بينهم أعضاء غير مسلمين أم لا؟ إذ كانت دعوتهم تتجاوز حدود الإسلام إلى عدة من الديانات والمذاهب والآراء والفلسفات المختلفة، لدرجة يمكن معها أن نصنفهم ضمن أوائل المنادين بالعولمة في القديم والحديث- أي جمع الناس علي دين واحد، وثقافة واحدة.

اجتهد إخوان الصفا على الرغم من ذلك في الحض علي التمسك بالقيم الدينية والفضائل الإنسانية، ولم نجد لهم في الرسائل ما يدعون به إلى الرذائل أو الفواحش غير أنهم قصروا التحلي بالأخلاق الفاضلة علي جماعتهم والمنتمين إليهم وعلي الرغم من نزعتهم الشيعية الواضحة وباطنيتهم الظاهرة فإنهم تأدبوا في الحديث عن الصحابة ووقروهم، لا سيما أبو بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب وذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين؛ ولم يُجَرِّح إخوان الصفا كذلك في أهل السنة تصريحاً أو تلميحاً، بخلاف عموم الشيعة.

عُرِف إخوان الصفا من خلال رسائلهم؛ وتقع هذه الرسائل في اثنتين وخمسين رسالة بالإضافة إلى رسالتين أخريين؛ الأولى: وسموها الجامعة، لأنها جمعت أهم ما جاء في الرسائل الاثنتين والخمسين؛ والثانية: سموها جامعة الجامعة وهي اختصار للجامعة.

وقد اكتشفت هذه الرسائل مبكراً حيث أشار إليها مع النقد لها أبو حيان التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة"؛ كما أشار إليها الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" منبهاً علي الآراء الفاسدة التي تتضمنها؛ وذكرها ابن أبي أصيبعة في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" والذي نقل فيه عن كتاب صاعد بن أحمد الأندلسي "طبقات الأمم" أن الكرماني كان أول من أدخلها إلى الأندلس؛ ومنذ أن اكتشفت الرسائل في العصر الحديث وهي موضع دراسة وتمحيص من قبل العلماء العرب ومن قبل المستشرقين الذين كانوا أسبق من العرب إلى التنويه بها ودراستها وترجمة نصوص كثيرة منها كما ذكرناه في موضعه من هذا الكتاب .

وكما قسم الإخوان رسائلهم إلي هذا العدد المشار إلية، فإنهم قسموا العلوم التي تناولوها في الرسائل إلي أربعة أجناس، أولها: الرياضيات، وثانيها: المنطقيات، وثالثها: الطبيعيات، ورابعها: الإلهيات.

وتتميز الرسائل بالموسوعية والانفتاح علي شتي العلوم والديانات والمذاهب والمقالات، ذلك الانفتاح الذي جعل كُتّاب الرسائل يقولون بأشياء لا يقرها الإسلام ولا تنسجم مع عقائده ألبتة؛ غير أننا نلاحظ عليهم إلى جانب ذلك الاضطراب والتناقض في كثير من الحالات، فهم علي سبيل المثال يعترفون بصلب المسيح مرة، وينكرون صلبه في مواضع أخري عدة مرات .

اهتم إخوان الصفا بالفلسفة اليونانية أيما اهتمام، والفلسفة عندهم أولها: محبة الحكمة، وأوسطها: معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية، وآخرها: القول والعمل بما يوافق العلم.

ولقد وضع كُتّاب الرسائل الفلسفةَ اليونانية في مكانة متوازية مع الدين غالبا، وأعْلوا من مكانة فلاسفة اليونان إلي درجةٍ تكاد تدنو من التقديس، إن لم تكن بالفعل كذلك.

ولقد رأينا في هذا الكتاب كيف حاول إخوان الصفا أن يجمعوا بين الدين والفلسفة، بل وجدناهم كذلك يصرحون بوجوب غسل العلوم الإسلامية التي عكرتها الآراء والأهواء بالفلسفة، وهذا من العجيب؛ فإن غسل العلوم الدينية وتطهيرها كما



أهم المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

- **الكتاب المقدس** - (النسخة العربية)- دار الكتاب المقدس - القاهرة - ١٩٧٠

- أبو تمام، **ديوان الحماسة** - القاهرة. السعادة. ١٩٢٧.

- أبو حنيفة النعمان - الإمام الأعظم - **شرح الفقه الأكبر** - شرح الإمام المُلا - بيروت- دار الكتاب العلمية- ١٤١٦هـ/١٩٩٥ .

- أبو حيان التوحيدي- **الإمتاع والمؤانسة**- المكتبة العصرية- بيروت- صيدا ١٩٥٣

- **إخوان الصفا، رسائل**- بيروت - دار صادر- ١٩٥٧م

- ابن أبي أصيبعة - **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**- بيروت دار الثقافة ١٩٨٧م.

- ابن النديم - **الفهرست**- بيروت - دار المعرفة - بدون تاريخ

- ابن تيمية - **منهاج السنة النبوية**. بيروت. دار الكتب العلمية - بدون تاريخ

- **نقض المنطق**- تحقيق محمد حامد الفقي- القاهرة- مكتبة السنة المحمدية ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م

- ابن خلدون- **مقدمة**- تحقيق عبد الواحد وافي- القاهرة. دار نهضة مصر- بدون تاريخ

- ابن رشد- **تلخيص كتاب النفس**- تحقيق الفرد. ل. لبرس- القاهرة ١٩٩٤

- **فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**- دار المشرق- ط ٥

- ابن طفيل (حي بن يقظان) - **النصوص الأربعة ومبدعوها**- تحقيق يوسف زيدان- القاهرة- دار الأمين ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

- ابن فارس- **معجم مقاييس اللغة**- تحقيق عبد السلام هارون- القاهرة البابي الحلبي -

١٩٧٠م

- ابن قيم الجوزية - **تلبيس إبليس** - بيروت

- ابن منظور - **لسان العرب** - بيروت - دار صادر - ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

- الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب - **كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل** تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر - بيروت - مؤسسة الكتب الثقافية ط٣ - ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م

- البخاري، **صحيح البخاري** - بيروت- دار ابن كثير اليمامة ١٤٠٧/ ١٩٨٧ ت: د مصطفى البغا.

- البغدادي، عبد القاهر - **الفَرْق بين الفِرَق**- بيروت- دار الجيل ودار الآفاق ١٤٠٨هـ / ١٩٧٨م

- الجاحظ، أبو عثمان - **البيان والتبيين**، بيروت- دار الكتب العلمية- بدون تاريخ

- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر - **اعتقادات فرق المسلمين والمشركي**- القاهرة - الكليات الأزهرية ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م

- الراغب الأصفهاني - **مفردات ألفاظ القرآن**- تحقيق عدنان داوودي- دمشق- دار العلم- بيروت - الدار الشامية - ١٩٩٢م

- الزمخشري - **أساس البلاغة** - تحقيق مزيد نعيم وشوقي المعرى- بيروت ١٩٩٨م

- السيوطي- **تدريب الراوي، شرح تقريب النواوي**- القاهرة- المطبعة الخيرية ١٣٠٧هـ

- الشهرستاني - **الملل والنحل** بهامش الفِصل لابن حزم

- الغزالي، أبو حامد الإمام- **إحياء علوم الدين**- بيروت-دار الكتب العلمية - ١٩٩٣م

- **المنقذ من الضلال**- تحقيق: محمد أبو ليلة ونورشيف رفعت. واشنطن. جمعية

البحث في القيم والفلسفة.

- **تهافت الفلاسفة**- تحقيق سليمان دنيا- القاهرة - دار المعارف ١٩٧٢م

- الكندي - **رسائل الكندي** - تحقيق أبو ريدة - القاهرة ١٩٥٠.

- المالطي الشافعي - **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع** ت: محمد زاهد الكواثري

- المكي، أبو طالب (محمد بن علي بن عطية)- **قوت القلوب في معاملة المحبوب**- القاهرة - البابي الحلبي- ١٩٦٠م

- صاعد بن أحمد - **طبقات الأمم**- تحقيق حسين مؤنس- القاهرة- دار المعارف ١٩٩٣م

- عبد الجبار بن أحمد (القاضي)- **تنزيه القرآن عن المطاعن**- بيروت- دار النهضة الحديثة- بدون تاريخ.

- مسلم ، **صحيح مسلم** - بيروت. ت: محمد فؤاد عبد الباقي

- موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي - **دلالة الحائرين** (٥٣٠- ٦٠٣هـ/ ١١٣٥-١٢٠٥م) تحقيق حسين أتاي - القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية.

- الإمام المستور أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق - **الرسالة الجامعة**- تاج رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا- تحقيق مصطفى غالب- بيروت- دار صادر ١٩٧٤م

- ابن المقفع- (عبد الله)- **آثار ابن المقفع**- بيروت- دار مكتبة الحياة- ١٩٦٦م

- ابن حزم - **الأخلاق والسير**- د. محمد أبو ليلة - "**الحث على الفضيلة**" ط١ لندن ١٤١١ هـ/١٩٩٠م

- **الفِصَل في الملل والأهواء والنحل**- مكتبة صبيح ١٩٦٤م

- **المحلى** – بيروت – دار الفكر – بدون تاريخ

- ابن كثير – **قصص الأنبياء** – تحقيق عصام الدين الضبابطي – القاهرة- دار الفجر – ١٩٨٠م

- **التفسير العظيم**- تحقيق محمد علي الصابوني- بيروت- دار القرآن الكريم – ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م

- الماتوريدي- **كتاب التوحيد،** حققه وقدم له د. فتح الله خليف. القاهرة. دار الجامعات المصرية. بدون تاريخ

- البيهقي- ظهير الدين – **تاريخ حكماء الإسلام**- تحقيق محمد علي كردي- مجمع اللغة العربية بدمشق- سوريا – ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م

- الخوارزمي- محمد بن أحمد- **مفاتيح العلوم**- القاهرة- منشورات مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

- الرازي (أبو بكر محمد بن زكريا) **رسائل فلسفية**- تحقيق لجنة إحياء التراث العربي- بيروت- دار الآفاق ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

- **الرسالة الجامعة** – تحقيق صليبا- دمشق- مطبعة الترقي ١٩٤٩م

مصادر أخرى (عربية وأجنبية)

- أبو ريدة، عبد الهادي - **الإبانة عن سجود الجرم الأقصى** ؛ ضمن رسائل الكندي الفلسفية- ١٩٥٠/ ١٩٥٣

- أبو ليلة، محمد، الأستاذ الدكتور - **المسيحية من وجهة نظر الإسلام**. رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية. المملكة المتحدة- جامعة إكستر ١٩٨٤م

- التهانوي (محمد على الفاروقي)، **كشاف اصطلاحات الفنون**-تحقيق لطفي عبد البديع وعبد المنعم محمد حسين- القاهرة- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر- ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م

- الدسوقى ، عمر - **إخوان الصفا** - دار نهضة مصر - ط ٣

- العقيقى ، نجيب – المستشرقون.- القاهرة – دار المعارف ١٩٨٠م

- المعهد العالمي للفكر الإسلامي – **ندوة نحو فلسفة إسلامية معاصرة**- ١٩٨٩

- ج. دي بور - **تاريخ الفلسفة في الإسلام** - ترجمة وتحقيق محمد عبد الهادي – القاهرة – التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧هـ/ ١٩٣٨م

- جرونيباوم. جوستاف فون. **حضارة الإسلام**. ترجمة عبد العزيز توفيق. الهيئة العامة المصرية للكتاب – مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧م

- جعفر ، محمد كمال إبراهيم - **في الفلسفة: دراسة ونصوص**- مكتبة دار العلوم ١٩٧٦

- جعفر آل ياسين. الدكتور - **المدخل إلى الفكر الفلسفي عند العرب** دراسة في التراث - بيروت – دار الأندلس ١٩٨٣

- جعفر بن منصور اليمن ، الداعي الإسماعيلي - **سرائر وأسرار النطقاء**. تحقيق مصطفى غالب. بيروت. دار الأندلس ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

- جولدزيهر - **العقيدة والشريعة في الإسلام**- بيروت دار الرائد العربي- مصورة عن طبعة ١٩٦٤ م

- حمودة غرابة - **ابن سينا بين الدين والفلسفة**- القاهرة- مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

- دائرة المعرف الإسلامية. **مدخل إخوان الصفا**. مقدمة د. طه حسين وأحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفا ط القاهرة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.

- دراز ، محمد عبد الله -**الدين**- القاهرة - مطبعة السعادة - ١٩٦٩م

- عبد الواحد - **في المدينة الفاضلة للفارابي**- مكتبات عكاظ- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- غالب ، مصطفى. **تاريخ الدعوة الإسماعيلية**. دار الأندلس . بيروت.

- مجمع البحوث الإسلامية - **المعجم الفلسفي**- القاهرة- ١٩٨٣م

- هيكل، محمد حسين - **الإيمان والفلسفة**- القاهرة- النهضة المصرية ١٩٦٤م

- عبد الرحمن بدوي- **رسائل فلسفية: الكندي والفارابي وابن باجة وابن عدي**- بنغازي- منشورات الجامعة الليبية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م

- علي سامي النشار-**نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**-القاهرة- دار المعارف- ١٩٨١م

محمد فريد حجاب- **الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا**- القاهرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م

نبيه القاسم- **لغز إخوان الصفا**- مطبعة الراحة ١٩٩١م

طاش كبرا زاده- مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة. تحقيق سيد إبراهيم وعلى حسن. القاهرة. دار التراث. ١٤١٨هـ/١٩٩٧

- الأهواني- أحمد فؤاد - أفلاطون - دار المعارف - ط ٤

- Al-Tibawi A. L., ***Some Educational Terms in Rasa'il Ikhwan al-Safa, Islamic Quarterly***, Vol. 5. Nos 1- 2. (1959), pp. 55- 60.

- At-Tibawi, A. L., ***Ikhwan al-Safa and their Rasa'il, a Critical Review of a Century and a Half of Reseach Islamic Quartery***, Vol. 2, No.1. (1955) pp. 28- 46.

- Ginzberg, ***The Legends of the Jews - Philadelphia***, the Jewish publization societies of America, 1968.

- Hastings J. (ed.) ***Encyclopaedia of Religion and Ethics***. (Edinburgh. T. & T. Clark 1926)

- Levonion, L. (Trans.) ***The Ikhwan al-Safa and Chrisl***, Muslim World 35 (1945). Pp. 27- 31.

- Marquet, Yues, ***Ikhwan al-Safa, Encyclopaedia of Islam***, new ed., 14. A.R. Gibb et al. (Leiden, E. J. Brill- london, Luzac& Co., 1960)

- Massignon, ***Sur La date de la Composition des Rasa'il Ikhwan al-safa***, Der Islam 4 (1913) p. 324.

- Massignon. ***Opera Minora de Louris Massignon***, Vol. 3., ed, by: Y. Moubarac. (Beirut, Dar al-Ma'arif, 1963).

- Netton, I. R., ***Brotherhood Versus Imamate: Ikhwan al-Safa and the Isma'ilis***, Jerusalim Studies in Arabic and Islam2 (1980), pp. 253-62

- Netton, I. R., ***The Brethern of Purity in History of Islamic philosophy*** ed. By Seyyed Hossein Nasr and Oliver Leaman (London& New York, Rowtledge, 1996- 2001).

- Netton. I.R., ***Muslim Neoplatonists***, London, Jeorge Allen & Unwin 1982.

- Stern, S. M., ***The Authorship of the Epistles of the Ikhwan al-Safa***, Islamic Culture 20 (1946) pp. 367- 72.
- Tenny, M.C. (ed.) ***The Zonderuan Pictorial Encycloeadia of the Bible*** – U.S.A. Michigan- The Zonderuan publishing house- 1975.
- Wolfson, H. A., ***The Philosophy of the Kalam***. (U.S.A. Harvard University press, 1976)

الفهرست

('IKHWĀN AL-SAFĀ)

The Brethren of Purity & Their Theological and Philosophical Views

By:
Dr. Nurshif Abd Al-Rahim Rif'at
Associate Professor of Theology and Philosophy
Al-Azhar University

With An Introduction By
Prof. Dr./ Muhammad M. Abu-Laylah
Professor of Islamic Studies in English &
Head of the English Department
Al-Azhar University

2002

رقم الإيداع : ١٧٩٧٩/ ٢٠٠٢

الترقيم الدولي: I.S.B.N ٩٧٧١٧٠٦٩٣٤

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة